العظام المقدسة

مجموعة قصصية

جي دي موباسان

اسـم الكتـاب: العظام المقدسة
اسـم المؤلـف: جي دي موباسان
الترقيم الـدولي:978-2-12-345619-3
جميع حقوق الطبع وإعـادة الطبع والنشـــر والتوزيع © محفوظة لدار المحرر الأدبي للنشـر والتوزيع المشـهرة برقم 24821 بتـاريخ 2015/10/1. ومقرهـا جمهوريـة مصـــر العربيـة / محـافظة الجيزة.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشـــر أو تخزينه في نطاق اســـتعادة المعلومات أو نقله بأي شـــكل من الأشـــكال دون موافقة قـانونيـة مكتوبة من النـاشـــر يعرض صـــاحبه للمســـاءلة القـانونيـة، والآراء والمـادة الواردة وحقوق الملكيـة الفكريـة بـالكتـاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

الميتة...

أحببتها حتى غلب علي فيها الذهول، ولماذا أحببتها؟ أغريب شأني إذا لم تر عيناي إلا كائنا واحدا، ولم تحمل نفسي إلا فكرة واحدة، ولم ينطوي قلبي إلا على أمنية واحدة، ولم يتسع فمي إلا لاسم واحد؟ ذلك الاسم الذي يصعد من فمي تكرارا. من أعماق روحي مرارا، كأنه ينبوع متفجر. أقوله وأعيد فيه القول ثانية وثالثة كأنه صلاة أذكرها وأرددها.

لن أقص عليكم ما غشيني في هذا الحب، ومتى كان للحب حكايات متعددة، ورواياته في كل زمان ومكان واحدة. قد رأيتها وأحببتها، وهذا كل ما في روايتي.

قضيت زمنا - ويا حبذا ذلك الزمن - يغمرني عطفها، وتحوطني بذراعيها، وتشبعني نظراتها، ورداؤها وكلماتها. بل فنيت فيها حتى غلب علي الذهول فأصبحت لا أدري : أذلك الليل أو النهار يحيط بي؟ وأنا في قيد الحياة أو في سجل الأموات؟ وهل أنا على أرض غير الأرض؟

والآن ماتت، فكيف سطا عليها الموت؟ لا أدري.. لا أعلم، دخلت علي أمسية ليلة من ليالي الشتاء مبللة الأثواب فنامت، فاستيقظت وهي ترسل السعال ملحة فلزمت سريرها مضطرة.

وبعد ذلك لا أعلم.

الأطباء حشـــدناهم من كل صـــوب. فكانوا يقدمون ويكتبون ويذهبون. والعلاجات تنهال عليها وإزاءها امرأة ترعاها. يدها حارة الملمس. وجبينها متوقد. ونضرتها ساطعة، لكنها كئيبة.

أكلمها فتخاطبني، ولكن ماذا قلنا؟ لا أعلم.. قد نســيت كل شــيء.. كل شــيء. إنها قضــت ولا أزال أذكر تنهداتها الخفيفة وأنّتها الضعيفة.

وقد صاح من خولها (آه) ففهمت أن الأمر انقضى.

لم أعد أعلم شيئاً..

لمحت كاهنا يخاطبني بهذه الكلمة : أمعشــوقتك؟ فخيل إلي أنه ينال منها، - وهو بعد موتها - يجب عليه ألا يعرف شــيئاً من هذا فنفيته من دارها وطلبت غيره، فخف إلى كاهن طيب السريرة.

رقيق النفس، حدثني عنها فغلب علي البكاء.

أمسيت لا أعرف شيئًا، ولكني أذكر الأكفان والناووس الذي ووريت فيه إلى الأبد.

نزلت في التراب، وجاء معها بعض صــواحبها، وأخيرا انطلقت وطفت في الســبل شــاردا، وعدت أدراجي، وفي الغد الباكر حملت نفسي على الرحيل

وبالأمس دخلت باريس...

ومذ وقع ناظري على غرفتي.. غرفتنا وسـريرنا ومتاعنا. وكل ما يخلفه الميت وراءه، شـعرت بان أنفاسي تضيق، وبان كآبة تتمدد في إحناء نفســي فتزيد صــدري حرجا. وتبعثني على إلقاء نفســي من النافذة... لم اســتطع البقاء طويلا في هذه الغرفة التي تتراءى لي فيها

محبوبتي، فأســـرعت عازما على الخروج فوقع ناظري على تلك المرآة المصقولة التي كانت تقف إزاءها ناضرة إلى وجهها وجسدها كل يوم، تتقن زينتها تجاه هذه المرآة التي كان رســـمها ينعكس فيها، ولا يزال يتراءى على صـــفحتها فأدركتني رعشـــة عميقة، وعيني خلال ذلك لا تبرح المرآة العميقة الفارغة التي احتوتها - قبل اليوم - فخيل إلي أنني احب هذه المرآة فلمستها فإذا هي باردة...

ولكن الذكرى، الذكرى!! المرآة الملتهبة المعذبة.

إلا انهم ســـعداء، من تشـــبه قلوبهم هذه المرآة ترتســـم عليها الضلال ثم تمحى. وتنسى كل ما ارتسم عليها وارتسم فيها.

برحت مكاني وأنا غير مختار. ولا أعلم أية وجهة اســـلك!؟ فدخلت المقبرة فألفيت ضريحها المنفرد يشرف عليه صليب رخامي نقش تحته

(إنها أحبت وكانت محبوبة ثم ماتت...)

إنها تحت هذا الضـــريح قد عبث فيها الفســـاد! مكثت هنالك طويلا خاشـــع الرأس حتى واتى المســـاء، ولكن خطرة غريبة صـــعدت من نفسي هي خطرة عاشق يائس تحدثني وترغمني على قضاء الليل بجانبها ذاكرًا باكيًا، ولكن الناس ســـينظرون إلي وســـيطردوني فما عسى

اصـــنع؟ نهضـــت وأبديت لمن يراني إنني ضـــال بين القبور، فســـرت وأمعنت في الســـير، ولكن ما أضـــأل مدينة الموتى إزاء غيرها من مدن أهل الحياة، والموتى ينيف عددهم على عدد الأحياء.

يتخذ القصور الشامخة والدور الباسقة والسبل الفسيحة أبناء النور، وشاربو الينابيع، وراشفو ابنة الأعناب، وآكلو سنابل الحقول، أما الموتى الذين تحدروا إلى أعماق الثرى وما زالوا ينحدرون. أولئك لا ينالون شيئًا... رقعة من الثري تضمهم والنسيان يطوي أسماءهم ووداعًا.

في زاوية من زوايا المقبرة الآهلة بسكانها وقع ناظري على المقبرة العتيقة التي اختلط رفات أصحابها بالتراب، وأتى على صلبانهم الهلاك. وغدًا سيبدل الأحياء بالنازلين القدماء، نازلين محدثين.

كان يغشى تلك المقبرة ورود منتشرة، وأوراق سوداء، كأنها حديقة كئيبة سامخة تغذيها لحوم الموتى.

آويت إلى جذع شجرة تواريت به عن الناس. ولبثت مرتقبا قابضًا على الجذع كما يقبض الغريق على بقية من بقايا زورقه المحطم حتى مد الظلام رواقه، فغادرت مكاني وطفقت أطوف متمهلا بين اللحود

ضللت كثيرًا وأنا أتلمس قبرها. فكنت أسرى باسطًا يدي. وفاتحًا عيني، وواثبًا بين القبور على غير هدى، فكم قبور لمحت، وكم رسوم وقفت عليها كأعمى يود أن يهتدي إلى سبيله فلمست حجارة وصلبانًا. وأكاليل ذوت أزاهيرها، وأكاليل من زجاج. وتلوت أسماء كثيرة بيدي ولكنني لم أجدها.

لا قمر في السماء يزيح هذه الظلمة الداجية.! وياله من ليل بعث في نفسي الهول. أغشى الطريق تغمر جانبيها القبور. القبور عن يميني والقبور عن شمالي. والقبور أمامي ووراءي. أعياني السير

فاستويت على ضريح فسمعت خفقان قلبي وسمعت شيئًا غير خفقانه.

ماذا اسمع؟ أهذه وساوس تعيث في رأسي؟! وهذه أسماء تتصاعد من الأرض الطافحة بأشلاء بني الإنسان؟

كم مضى علي من الزمن وأنا لابث في مكاني؟ لا أعلم : ولكن الخوف قابض على قلبي بكلتا يديه لا يبرحه. همت باكيا أصيح، وأوشكت أن أقضي نحبي.

فجأة شعرت بأن لوح الضريح الذي اتخذته مقعدًا لي بدأ يتحرك كأن شيئًا تحته يزيحه، فبعدت عنه مذعورًا وإذا باللوح يمشي... وصاحبه ينتصب بهيكله العظمي. أزاح بظهره المقوس لوح الضريح فألقاه على الأرض

فتلوت على اللوح برغم حلوكة الليل : (هاهنا يرقد (جاك اوليفان) المتوفى في الخمسين من عمره. كان بارًا بأبويه : وكان صالحا شريفًا. ومات تحت كنف الله).

رأيت الميت يحدق في هذه الكلمات ثم جاء بحجر مسنون يمحوها حتى لم يبق لها من أثر. ثم أخذ ينظر مكانها وتناول عظمة من عظامه وسطّر عليها بأحرف بارزة (هاهنا يرقد جاك اوليفان المتوفى في الخمسين من عمره. قد عجّل موت والديه لعقوقه، وأضنى امرأته. وعذب أولاده وخدع جيرانه وسرق ما استطاع ومات فقيرًا).

أتم الميت تسطيرها وظل يتأمل فيها، وغادرت مكاني فإذا القبور جميعها متفتحة، وسكانها جميعًا بعثوا من مراقدهم،

ومحوا الصفات الكاذبة التي سطرها أهلوهم على لوحات قبورهم، ونقشوا مكانها حقائقهم المجردة، فوجدت أن جميع هؤلاء الآباء الصالحين والزوجات الأمينات، والأبناء الطاهرين، والغواني العفيفات، وأن هؤلاء التجار المستقيمين، منهم العاق والبغيض، واللئيم والمرائي، والكاذب والحاسد والنمام، ومنهم السارق والخادع، والمرتكب كثيرًا من الآثام. رايتهم جميعًا منكبين على منازلهم يسطرون حقيقة أنفسهم التي يجهلها أو يكاد يجعلها أبناء الحياة.

شعرت - إذ ذاك - بان محبوبتي خطبها خطبهم، فجعلت إليها نافضا عني الخوف، ومن حولي القبور المفتوحة. والجثث المنشورة والهياكل المنتصبة. عرفتها إذ لمحتها، ولم أتوسم وجهها المتصبب عرقا. وعرفت القبر الذي كانت هذه الجملة مسطورة عليه (إنها أحبت. وكانت محبوبة ثم ماتت).

تلوت هذه الجملة الثانية (خرجت يومًا لتخون حبيبها فأصابها برد أودي بحياتها)

ويبدو لي أنهم عثروا بي راقدا عند شروق الشمس على أحد القبور.

صانعة الكراسي

أقام المركيز دي برتران حفلة شـائقة على نخب صـيد العام الجديد. فدعا أصـحابه من أهل البلد. فالتف حول المائدة عشـرة رجال تصحبهم ثماني نساء من ذوات الحسن والدلال؛ وكان الخوان موقرًا بصـنوف الزهر الزكي، وضـروب الثمر الشـهي؛ وقد ألقت مصـابيح الكهرباء أنوارها المتلألئة على هذه الأنواع المختلفة من الزهر والثمر والطعام، فماجت تحتها موجانًا يسـتفز الشـهية ويستقطر اللعاب.

جلس في صـدر المائدة على مقربة من المركيزة طبيب البلدة، وهو رجل متقدم السـن، وقور الهيئة، يبدو على وجهه طابع الفطنة والذكاء.

كانوا جميعًا يتجاذبون ألوانًا ممتعة من الحديث اللذيذ والكلام الرقيق، فلما انتقلوا إلى حوار الحب، وماهية الحب، انبعثت بينهم تلك المناقشـة الخالدة التي يراد منها أن يفهم : هل الحب المحض يدرك القلب المرء مرة في حياته أو أكثر؟.

فكانت تورد أمثلة لأناس تيم قلوبهم الحب الصـحيح مرة فحسـب، وكانت تورد أمثلة لأناس آخرين أحبوا بعنف وقوة وهيام أكثر من مرة.

كان الرجال بنوع عام يشـبهون العشـق بالأمراض، فكما أن هذه تعتور جسم الإنسان دومًا، فالعشق أيضًا يصيب فؤاده كثيرًا

ويكون في كل مرة من العنف والقوة والهياج بحيث يُؤثْر العاشق الموت إذا ما اعترضت سبيله علة من العلل.

أما النسوة فكان رأيهن يستند أكثر ما يستند على الخيال والشعر، وينأى عن النظر والفكر. فكن يثبتن في حماس واندفاع أن الحب المحض، الحب العظيم لا يمكن أن ينبعث في القلب إلا مرة فحسب، حتى إذا تمكن منه ألهاه عن كل أمر، فأحرقه وألهبه، وكان فعله فيه فعل الصاعقة في الشجر والنبت، فكما أن هذه تحبس عنهما النمو والنشوء الجديدين، فهذا الحب أيضًا - يجعل القلب قفرًا فارغًا لا يمكن أن تنشأ فيه أحلام تشبه أحلامه الأولى ولا أن تنبت فيه مشاعر تشبه مشاعر هيامه الماضي وعهده السالف.

كان المركيز يدحض هذا الاعتقاد بكل ما أوتي من ذلاقة لسان، ومن حجة وبيان

كان يقول :

- أؤكد لكم يا سادتي أن الإنسان في مقدوره أن يعشق أكثر من مرة بكل جوارحه وبكل قواه. إنكم تعددون لي أمثلة أناس انتحروا من أجل الحب كأنهم عاجزون عن أن يعيشوا ليعشقوا ثانية. غير أني أجيبكم : إن هؤلاء الناس لو أهملوا الانتحار وتحاشوا هذا الحمق المجنون، لألفوا في الحياة ما يثير الحب جديدًا في قلوبهم الجريحة ويحي موات الأمل في نفوسهم اليائسة، لأن من هام عاد إلى الهيام، ومن احتسى أولى الكؤوس عاد إلى سواها. تلك طبيعة المرء لا منصرف عنها ولا محيد.

لما أتم المركيز خطابه وأعلن رأيه، انحدرت الأنظار إلى الطبيب تنتظر منه الحكم الأخير. قال :

- أنا لا أخالف المركيز في رأيه، فالهوى تتعدد فصوله وتتابع طوارئه على الفؤاد. غير أني عرفت فيما عرفت هوى دام خمسًا وخمسين سنة، وما خمدت ناره ولا انطفأ أواره إلا بالموت.

قال المركيز وهو يفرك يديه :

- ترى أهذا الحب محمود؟ وما وراءه من أمان وأحلام؟ وأي سعادة في أن يعيش المرء خمسًا وخمسين سنة على غرام واحد؟.

فابتسم الطبيب ابتسامة خفيفة وهو ينظر إلى المركيزة :

- إن الشخص الذي أتاح له القدر أن يكون معشوقًا طول هذه المدة كان رجلًا وأنتم تعرفونه جميعًا، هو السيد شوكه صيدلي الناحية. أما المرأة العاشقة فلستم تجهلونها أيضًا، هي صانعة الكراسي العجوز التي كانت تفد أحيانًا إلى القصر هاهنا :

بدت على وجوه النسوة ملامح الدهش ودلائل الاشمئزاز، كأنما الحب لا ينبغي أن يصيب فيما يصيب إلا المخلوقات المترفة المتميزة التي تستحق وحدها أن يبدي الناس لها عطفا واهتمامًا.

قال الطبيب :

- منذ ثلاثة شهور دعيت إلى جانب هذه العجوز وهي على فراش الموت، وكانت قدمت في عربتها التي اتخذتها مسكنًا لها وآلة ركوب تطوف البلدان عليها. يجر هذه العربة فرس مهزول ناحل لا شك أنكم رأيتموه. ويصحب العجوز كلبان أسودان هما صديقاها وحارساها. كانت دعت القسيس أيضًا لتكشف لنا عن رغباتها

الأخيرة فنكون منفذين لوصيتها. فقصت علينا جميع أطوار حياتها. الحق إنني لم أسمع قصة أشد تأثيرًا في النفس وأكثر غرابة في الأذن من قصتها. كانت حرفة والديها صنع الكراسي. ولم يكن لها سكن خاص في أرض معينة، فإنها طفلة كانت تطوف البلدان ممزقة الثياب معتلة الجسم يثير منظرها نفورًا واشمئزازًا. وكان أبواها كلما بلغا إحدى القرى وقفا عند مدخلها وأنشأ يصلحان الكراسي العتيقة والمقاعد القديمة تحت ظل الأشجار وهي تتدحرج لاعبة ضاحكة خلال أعواد العشب المشرئبة. فإذا ابتعدت قليلًا عنهما أو أخذت في الحوار مع الصبية، فإنها لا تلبث أن تسمع صوت أبيها المغضب يقول لها : (ارجعي يا وقحة). فكانت هذه الجملة، الجملة الوحيدة التي تسمعها من أبيها.

ولما ترعرعت بعض الشيء أرسلاها تلتقط أو تبتاع ما فسد من المقاعد. فكانت في تنقلها من مكان إلى مكان تتعرف إلى الصبيان وتأنس إلى الحديث إليهم. على أن ذويهم كثيرًا ما صدوهم عنها وهم ينتهرونهم أشد الانتهار، ومنهم من كان يقول لولده : (ألا اقطعن الكلام مع هذه الشريدة الحافية الأقدام).

أما الفتية الصغار فما أكثر ما قذفوها بالحجارة من غير أن ينبس فوهها بكلام! وكان بعض النسوة أعطينها قليلًا من دراهم، فاحتفظت بها وحرصت عليها.

وبينما كانت تجوز هذا البلد في أحد الأيام وقد بلغت الخامسة عشر ربيعًا من عمرها، إذ صادفت خلف المقبرة شوكه الصغير وهو يبكي أحر البكاء، لأن رفيقًا له سرقه درهمين. فآلمها

وهي البنت المسكينة، أن ترى طفلًا حضريًا يذرف دموعًا سخينة من حيث لا مواسي له ولا صديق. فدنت منه وما كادت تقف على سر بكائه حتى وضعت في يديه تلك الدراهم القليلة التي احتفظت بها. وكان طبيعيًا أن يبتهج الطفل بالدراهم فأخذها ومسح دموعه. وكان منها أن جنَّت فرحًا بعمله، فأنشأت تعانقه وتضمه إلى صدرها وتقبله تقبيلًا حارًا دون أن يمانع الولد أو يصدها عنه لأنه كان لاهيًا بفحص النقود.

ثم انصرفت عنه وقد فاض قلبها محبة لهذا الطفل

ولم يكن أحد يعلم ماذا جال في رأس هذه التاعسة من خواطر وأحلام، أتعلقت به لأنها ضحت في سبيله بثروتها المتجمعة من التشرد والانتقال، أم لأنها منحته أول قبلة وثب قلبها لها؟.

خفي ذلك على الصغار والكبار

وظلت أشهرًا تتمثل في خاطرها زاوية المقبرة التي شهدت فيها هذا الغلام وشرعت تسرق أبويها ما تصل إليه يدها من دراهم أملًا في لقائه ومصادفته. وكان في يدها آخر الأمر فرنكان. على أنها هذه المرة بدلًا من أن تلمح فتاها في محل منعزل، رأته خلف قضبان حانوت أبيه : بهي الطلعة نظيف الثياب، والقناني الحمراء والخضراء والصفراء تحيط به من كل جانب. فازدادت له حبًا وبه كلمًا، وبهرها ما ألفت لديه من مجد بادٍ في هذه المياه المصبوغة، ومن جلال ظاهر في هذه الزجاجات البراقة.

فاحتفظ خاطرها بذكراه مدة، حتى صادفته في السنة التالية خلف المدرسة يلعب مع رفاقه، فهجمت عليه وقبلته تقبيلًا عنيفًا

ريع له الولد وأخذ في الصراخ. لكنها سرعان ما وضعت في يده ثلاثة فرنكات هش لها الغلام وطرب، وحملق في وجهها في دهش وتعجب تاركا نفسه لها تداعبه ما رغبت في المداعبة، تعانقه ما اشتهت من عناق.

وظلت أربع سنوات تقدم إليه ما تجمعه فيأخذه منها مقدمًا إليها القبلات عن رضى وسرور. أعطته مرة فرنكين ومرة خمسة فرنكات، وهي قطعة كبيرة جعلته يضحك لها ويرقص طربا.

لم تكن تفكر إلا فيه؛ أما هو فكان ينتظر عودتها ويرقب شخوصها إليه بصبر فارغ وشوق لجوج، حتى إذا أبصرها، جري إليها مسلمًا خده لقبلاتها، ويده لدرهمها. وما أشد خفقان قلبها عند ذاك!.

وتوارى الغلام حقبة من الزمن عن عيانها لأنه انتقل إلى مدرسة أخرى. وعرفت هي انتقاله بمهارة وحذق، فأبلت في السياسة بلاء حسنًا حتى حملت أبويها على المرور من هنا في الصيف. وكان مضى عليها سنتان دون أن تراه. فلما أبصرته كادت لا تعرفه. لأنها رأت أمامها بدلا من طفل الأمس فتى تفتحت ورود الصبا في وجهه، وابتسمت زهور اليفاعة في قده.

نظرت إليه نظرة شوق ولهف. وكان منه أن تظاهر بعدم رؤيتها، ثم خطا أمامها ببزته الأنيقة ذات الأزرار الذهبية يملأ صدره زهو وافتخار، ويعلو برأسه أنفة واستكبار.

وانصرفت عنه والدموع تسح من عينيها والزفرات تتصاعد من قلبها. وأصبحت بعد ذاك العهد أليفة أحزان، وصديقة آلام.

وانطوت الأعوام متواريـة خلف حجـاب الفنـاء، وفتـاتنـا لا تنقطع عن الشــخوص كل عام إلى بلده لتراه دون أن تجرؤ هي على تحيته، ودون أن يتنازل هو بإلقاء نظرة عليها.

كانت تهواه بكل جوارحها، وهاكم ما أسـرته لي (إن هذا الرجل يا ســيدي الطبيب، الرجل الوحيد التي رأته عيناي، وما علمت بعد ذاك إذا كان يعيش في العالم سواه).

ومات أبواها واسـتمرت في حرفتهما، وقد صحبت من بعدهما بدلا من كلب واحد، كلبين هائلين يخشى الدنو منهما.

وكان يوم دخلت في هذا البلد، فرأت امرأة في نضــارة الصــبا وربيع الحيـاة تصــحـب شــوكـه حبيبهـا، وقـد تـأبطت ذراعـه وهمـا يخرجان من الحانوت معًا.

لقد تزوج إذن شوكه!

وفي مساء اليوم ألقت نفسها في الغدير القائم خلف المحكمة. واتفق أن رجلًا كان يمر هناك، فأنقذها وقادها إلى منزل شــوكه، فنزل هذا لعلاجها، ودلك بيديه مكان الألم من جســمها دون أن يتظاهر بعرفانها. ثم ما لبث أن قال لها بصــوت جاف : (أأنت مجنونة؟ لا ينبغي أن تكوني هكذا حيوانًا).

هذه الجملة وحدها بعثت فيها البرء والشفاء. ألم يتكلم إليها؟ حسبها ذلك! وظلت هائمة مغتبطة أمدًا طويلا.

قضت كل حياتها تذكر شوكه ولا تفكر في غيره. وكانت تلمحه في سـنيها خلف الزجاج، وما أكثر ما ابتاعت عقاقيره وأدويته لا تبغي من شرائها إلا رؤيته والحديث إليه.

وكما ذكرت لكم بديا، ماتت هذا الربيع وقد رجتني بعد أن قصت عليّ قصتها أن أحمل إلى هذا الذي أحبته حب العابد لمعبوده، جميع ما ادخرته من مال. لأنها كما اعترفت لم تشتغل إلا لأجله، تجوع أحيانًا لتدخر له بعض المال. فإن ذكرها بعد وفاتها مرة واحدة فستشعر في قبرها بالسعادة والهناء.

أعطتني عشرين وثلثمائة وألفين من الفرنكات. فقدمت العشرين فرنكا إلى القسيس لأجل دفنها، وأخذت الباقي لما فاضت روحها، وقصدت منزل شوكه، فلما دخلت كان وزوجه يتناولان طعام الغداء وقد جلس الواحد أمام رفيقه، والاحمرار يكسو وجهيهما، والسعادة تسبل عليهما ظلها الوارف وبشرها الطافح. طلبا إلي الجلوس فجلست، وقدما لي كوبا من مشروب (الكيرسك) فتناولته شاكرًا وبدأت أنقل لهما القصة بصوت مضطرب حزين، لأني زعمت أنهما سيبكيان ويحزنان على أن شوكه ما كاد يفهم أن هذه الأفاقة الشريدة تضمر له حبًا وولاء حتى جن جنونه وثارت ثائرته وشرع يثب من السخط والغضب كأنما سلبته المسكينة من المجد والشهرة، ومن العزة والشرف شيئًا كثيرًا. أما الزوجة فكانت تصيح والغيظ يملؤها (يالها من نذلة! يالها من نذلة!).

ثم نهض شوكه وألقى بقبعته على الوسادة وأخذ يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابًا كأنه أحد المجاذيب وكان يتمتم : (أو يمكن هذا يا دكتور؟ إن ذا لشيء فضيع! ما العمل؟ يا ليتني عرفت الأمر في حياتها! فلكنت أسوقها سوقًا إلى السجن بقوة الدرك).

فلبثت أنا كالمشدوه مما سمعته أذناي ورأته عيناي لا أدري ما ينبغي لي من قول ومن عمل. على أنني عقبت كلماتي : (سيدي إنها أوعزت إليّ أن أحمل إليك ما تركته من نقود، وقدرها ثلثمائة وألفان من الفرنكات. ولما كان ما نقلته لك من حديثها قد أثار فيك سخطًا وسوءًا، فلعل من الخير أن نهب النقود بعض الفقراء والمساكين).

نظرا وقد أفقدتهما الحيرة كل حركة!

فأخرجت المال من محفظتي، هذا المال المتجمع من بلدان عديدة والمدَّخَر من جميع النقود من ذهب وفضة وغيرهما. وسألته قائلًا : (ماذا عزمت؟).

قالت السيدة شوكه : (مادامت ربة المحتضرة الأخيرة تقضي بذلك. فأرى من الصعوبة رفض إرادتها).

وقال الزوج واحمرار الخجل باد عليه : (إن هذا المال ينفعنا في اقتناء بعض الحاجيات لأطفالنا).

قلت عند ذلك بصوت جاف : (كما تشاء)

قال : (هاته مادامت أوعزت إليك ذلك. فلن تعوزنا الوسيلة في إنفاقه إنفاقًا جميلا)

فقدمت إليهما الدراهم وصافحتهما وانصرفت

وجاءني شوكه في غد اليوم، وابتدرني قائلًا : (هذه المرأة تركت عربتها، ماذا فعلت بها؟). قلت :

- لا شيء، خذها إذا أردت. قال :

- إنها تنفعني؛ سأجعل منها كوخًا لحديقتي

وهم بالانصـــراف فناديته قائلًا : (إنها تركت أيضًـــا فرســـها وكلبيها، ألا تريدها؟ فوقف مندهشًـــا وقال : (آه! كلا، لا حاجة بي إليها، ما أصـــنع بها؟ خذها أنت.) وأخذ يضـحك ومد يده إليّ فصافحته بمودة، إذ لا ينبغي للطبيب والصيدلي أن يكونا عدوين.

احتفظت بالكلبين، أما الفرس فقدمته إلى القســيس، وأفاد شــوكه من العربة كوخًا لحديقته، وابتاع بالنقود خمســة أســهم في الخط الحديدي.

هذا هو يا ســـادتي الحب العميق المحض الذي صـــادفته في حياتي

وصمت الطبيب

فأخرجت المركيزة من صــدرها آهة حبيســة، وقالت والدموع تلألأ في عينيها :

(الحق أن النساء وحدهن يعرفن الحب!)

ذكرى....!

ما أمتع الربيع وغصن الشباب رطيب وماء الحياة يجري! وما أشجاه والشباب يولي والرأس يشتعل والحياة تدبر! لا زلت أذكر أي مخاطرة عظمي كانت الحياة في تلك الأيام الخوالي، وقد اعتدنا أن نجوب معًا خلال باريس رائجين مع الصبا بقلوب نزقة ونفوس مرحة، يملؤنا الرجاء، وتحف بنا النعماء، دون أن نعير الدنيا التفاته أو نحسب لها حسابًا.

سأقص عليك إحدى هذه المغامرات التي وقعت لي منذ أمد مديد وعهد بعيد، حتى يصعب علي الإقرار بصحتها والتسليم بما فيها. كنت في الخامسة والعشرين من عمري، ولم يمض علي في باريس غير عهد قصير. كنت أخرج كل أحد مجدا في البحث عن مخاطرة أو مغامرة وأنا ممتلئ شبابًا وفتوة. والآن... ما الذي تشابهه أيام الآحاد؟ أيام مروعة يضيق فيها المرء ذرعًا بكل فكر يثبته أو يتحدث به وبكل صحب يرافقه.

استيقظت في ذلك الصباح مبكرًا وفي نفسي هذا الإحساس بالحرية الذي يعرفه أولئك الذين يعملون طيلة الأسبوع والذين ينظرون إلى يوم الأحد كيوم راحة وحرية. فتحت نافذتي ورمقت الجو البهيج وحرارة الشمس الفائضة والعصافير المغردة.

ارتديت ملابسي على عجل، وخرجت لتمضية يوم في الغابة الحبيبة خارج باريس، وكانت المدينة كلها تلمع في ذلك اليوم

المشمس، ووجوه المارين تفيض بالبشر والسعادة لحياتها وسط هذا الجلال الرائع، وانتظرت على شـط النهر ذلك القارب الذي سـيقلني إلى (سان كلو).

وانتظاري بهذا القارب بدا لي كأنه مخاطرة في نفســه، فقد تصورته أخذًا بي إلى نهاية الدنيا، إلى أمصار عجيبة جديدة. وشد ما ابتهجت عندما لمحته قادمًا كقطعة صــغيرة من الســحاب أخذت تكبر تدريجيًا حتى لاحت أمامي، ورست على امتداد الرصيف.

ركبت القارب فألفيت نفسي وسـط رهط من المتنزهين الذين ينعمون بلذائذ الأحد ومتعه، ووقفت على ســطحه أرقب الأرصــفة والمنازل والأشـجار وهي تتوارى عن العين، حتى خلفنا باريس وراءنا، وانسـاب بنا القارب إلى ماء هادئ سـاكن، تحفه السـهول وتقوم على جانبيه التلال الشــاهقة، وفي أســفلها الغابات والأحراج والمراعي الخضراء الرطبة.

نزلت في (ســان كلو) وتخطيت مســرعًا القرية الصــغيرة ثم أشــرفت على الطريق الذي سـيقودني إلى الغاب، وكان معي خريطة لباريس وما يجاورها، ولذا فلن أضـل الطريق إذا وليت وجهي شـطر إحدى هذه الطرق الصــغيرة التي لا تعد والتي تؤدي على اختلاف امتدادها إلى الأحراج. وبعد فحصــها رأيت أنه علي أن أتيامن ثم أتياسر ثم أنعطف إلى اليسار ثانية إذا وجب أن أصل فرساي وقت العشاء.

ســرت متمهلًا أسـحق الأوراق الجافة بقدمي وأنشــق الهواء العليل المعطر ناسيا كل ما يتصل بالمكتب والعمل والرئيس، وفكرت

فقط في المستقبل المجهول الذي سيزاح لي ستره، والذي فيه كثير من الجمال المحتمل. وذكرتني بساطة الريف عهد الطفولة وجعلتني أشعر حقًا بأنني رجعت إلى الحياة طفلًا. فهناك نفس الزهور التي كنت أرى مثلها يانعة حول باب منزل أمي الصغير والحشرات التي في لون اللهب وهي تنساب متثاقلة على أنصال العشب الذي ينحني تحت ثقلها الضئيل.

أخذتني عيناي، وحملت بكل هذه الأشياء، ولما قمت كنت منعشًا تمامًا وواصلت رحلتي. امتدت أمامي طرق جليلة من نبات السرخس وقد خطط بصف من زهر الكاميليا الأبيض الطويل. وهنا تبينت في نهاية الطريق شخصين قادمين نحوي، رجلًا وامرأة، ودار بذهني أنني سمعت من ناداني فحنقت على هذا التطفل الذي عكر علي صفو وحدتي الهادئة. وكانت المرأة تلوح بمظلتها والرجل في قميصه ذي الأكمام حاملًا معطفه على ذراعه ومشيرًا لي.

استدرت وانتظرتهما وكانت المرأة تسير بخطوات سريعة قصيرة. أما الرجل فأفسح المجال لقدميه وكان يلوح عليهما الضجر والتعب.

تكلمت المرأة أولًا :

(سيدي... هل لك أن تتكرم بإخبارنا أين نحن؟ قال زوجي إنه يعرف كل فتر الريف المحيط ومع هذا فقد ضللنا الطريق!).

(سيدتي أنت قادمة من فرساي وفي طريقك إلى سان كلو)

والتفتت إلى زوجها بحقارة :

(ماذا! إننا قادمون من نفس المكان الذي نرغب العشاء فيه!!)

وهزت كتفيها معنفة ومزدرية الرجل الذي ارتكب هذا الخطأ.

كانت حسـناء في رونق شـبابها وربما كان هذا هو الذي حملني على إخبارهما عن رغبتي في العشـاء بفرسـاي. وأخذنا بأطراف الحديث... وو بخت زوجها الحائر وهو كأنما أخذته نوبة جنون يعوي عواء غريبًا في خفوت كأنما لا تسمعه آذان غير أذني.

(تي ي ي ت.... تي ي ي ي ي ت)

واستطردت زوجه تقول :

(أنت دائمًا مخطئ، فأنت الذي قلت إن (لاتورنيه) يسـكن في شـارع دي مارتز والواقع أنه لا يسـكن هناك، وأنت الذي قلت إن (سلست) ليست لصة مع أنها كذلك، وأنت و.

وأخذت تلوم زوجها على كل أفكاره الخائبة وأعماله وجهوده الضائعة في مدة حياته الزوجية.

وعبثًا حاول زوجها إسكاتها بقوله :

(و لكن يا عزيزتي... أمام هذا السـيد... ما الذي سـيتصـوره... ليس هذا بسار له).

وختم هذا بصـياحه البربري الوحشـي الذي بدا لي أنه عارض فجائي لحالة عصـيبة مضـطربة، وهنا تحولت الزوجة الصـبية إلي وغيرت سلوكها بسرعة وقالت :

(إذا كان السـيد لا يعارض فسـنرافقه وعلى هذا فلا خوف علينا من التيه في الغاب).

فـانحنيـت... وجـذبـت بـذراعي إليهـا وأخـذت تحثني عن آلاف الأشـيـاء، عن نفسـهـا، عن حياتها، عن أسـرتها، عن العمل، وزوجها يسير بجانبها ناظرًا من مرة لأخرى بلهف يمينًا وشمالًا صائحًا.

(تيـ يـ يـ يت)

فقلت له أخيرًا :

(ما الذي يجعلك تصيح هكذا؟)

فأجاب بقلق :

(فقدت كلبي الصـغير المسـكين وما أتم الحول، أخذته معي اليوم لأول مرة ليرى الريف وكاد أن يجن من الفرح، كان يتوثب وينبح ويجري إلى الأحراج، ربما يموت جوعًا إذا ضـل السـبيل، أواه، الصغير المسكين).

فعنفته زوجه (إنها غلطتك... أنت أبله.. أه.. إنك تحملني على الغضب).

غربـت الشـمس وأخـذ الضـبـاب المتكاثف يحجـب حوافي الريف، وتأرج الغاب بعبير الزهور الذابلة.. توقف الزوج يبحث في جيوب صديريته باهتمام.

(عزيزتي إني آسف.... نسيت...).

فرمقته وهي تتميز من الغيظ.

(ما الذي تعمله الآن؟).

(يبدو لي أنني نسيت محفظتي... وفيها نقودي).

فامتقع لونها من الغضب.

(لقد عيل صبري... آه.. أيها الغبي.. حتى النساء ترمي بمثل هذا المأفون... اذهب وابحث عنها حالًا، وحذارًا من العودة بدونها، أما أنا فذاهبة إلى فرساي في حماية هذا السيد فلا أرغب في المبيت في الغاب).

فأجاب بوداعة :

(حسنًا.. يا عزيزتي... وأين أراك؟).

فحدثته عن مطعم معين أنيق جدًا، ووعد بموافاتنا هناك، ثم غادرنا يبحث عن كلبه...! ومن آونة لأخرى كنا نسمع الصياح الحاد :

(تيـ يـ يـ يت) الذي أخذ يتضاءل كلما بعد.

وتكاثف الضباب فحجب أعالي الأشجار وانساب في خلال الفروع واستطعت بعد لأي أن أميز بناء جسم مرافقتي، ونحن نسمع من حين لحين صياح (لامنتابل) :

(تيـ يـ يـ يت).

وأسرعت الخطى سعيدًا جذلًا بهذه الرياضة الجميلة في الغسق مع امرأة مجهولة تستند على ذراعي وتميل نحوي. وبحثت عن أشياء أقولها عن عبارات سامية، أو نكات مستملحة.. على أني لم أوفق لكلمة واحدة. والحق أقول ما كنت في حاجة لشيء من هذا.

ووصلنا إلى طريق رحب تقع على يمينه مدينة كبيرة في واد خصيب وسالت مارًا عن اسمها فأخبرني أنها بوجيفال فدهشت.

(بوجيفال! أمتأكد أنت؟).

(حسن!... تصوري بأنني ولدت هنا).

وأخذت المرأة النحيلة تضحك لإضلالنا الطريق بقلب طروب، فعزمت على ركوب عربة إلى فرساي ولكنها رفضت.

(أه.. لا.. حقًا... إني لا أتعطش إلى ذلك ولا أتلهف عليه، وزوجي في استطاعته أن يراني في وقت ما، وأضف إلى هذا أني سأكون أمام مخاطرة سارة لم أرها من قبل).

ودخلنا مطعمًا على حافة النهر، واجترأت على طلب غرفة خاصة... والحق أنها... متعت نفسها.. استسلمت.. كنا في حالة نشوة لذيذة.. غنت وشربت الخمر، وفعلت أكثر من هذا... فعلت في الواقع كل ما تستطيع عمله...

الوالد

جان دوفالنوا صاحب لي لا أفتأ أزوره الفينة بعد الفينة. وهو يقيم في قصر له على ضفة جدول في بعض الغياض، وقد لاذ بهذا الكن بعد أن قصف وترف في باريس خمسة عشر عامًا سوية. وقد عرته بغتة ملالة من كل ما في هذه المدينة من مناعم ومآدب ورجال ونساء وملاعب، وجاء يعتزل في هذه الدار التي فيها ولد وفيها نشأ.

ونمضي إليه اثنين أو ثلاثة من الصحب نقضي معه أسابيع معدودات، ولقد كان سروره بنا إذ يلقانا بعد نأي، بالغًا شديدًا، وابتهاجه باسترجاع ما أفلت منه من حبور بعزلته إذ نتولى عنه جمًا وفيرًا.

ولقد وفدت عليه في الأسبوع الماضي فهش وبش. وكنا نقطع الساعات تارة جميعًا وتارة منفردين، والعادة أن يقرأ هو واشتغل أنا بالنهار، وحين تأخذ عين الشمس في الاغتماض نقبل على السمر إلى أنصاف الليل.

وكنا في يوم الثلاثاء الماضي، وكان يومًا حرورًا متلظيًا، قد جلسنا في جنح ليله نتأمل جريان الماء في الجدول تحت أقدامنا، وكنا نتساجل ما يتوارد علينا من أفكار شديدة الغموض عن النجوم الخائضة في الماء وكأنها بين أيدينا تمرح سبحًا. كنا نتناقل ما تتمخض به أذهاننا من خواطر كثر غموضها واشتد اختلاطها وأفحش إيجازها، ذلك أن عقولنا شديد قصورها، مستفحل

ضعفها. بالغ عجزها. أما أنا فقد كنت مشفقًا على الشمس المتوارية في الحجب لدى الطفل، كنا نفكر في هذه الكائنات المبثوثة في هذه العوالم، ومختلف أشكالها العجيبة التي يتقاصر دونها وهم الإنسان، وخواصها التي لا تدرك كنهها الفطن، وأعضائها الخفية المحجوبة. والحيوان والنبات وكافة الأجناس وسائر الجواهر وشتى المواد، مما لا تكاد ترتفع إليه أذهان الإنسان.

وبينما نحن كذلك إذا بصوت على بعد يصيح :

- سيدي، سيدي :

فقال جان :

هلم يا يا تيست

فلما اهتدى إلينا الخادم قال :

- الغجرية يا سيدي

فجعل صاحبي يضحك كمن به مس، وما عهدته يضحك كذلك إلا نادرًا، ثم قال :

إنا إذن في ١٩ يوليو؟

- نعم يا سيدي

- إذن قل لها تنتظر وأعد لها الطعام فإني عائد بعد عشر دقائق.

ولما انصرف الخادم أخذ صاحبي بذراعي وقال :

- فلنمش على مهل، إني قاص عليك قصة هذه المرأة.

منذ سبع سنين أي في السنة التي حللت بها هنا : خرجت في أصيل يوم أطوف في الغابة. وكان يومًا طلقًا صافيًا كيومنا هذا

وجعلت أسير متئدًا تحت أفنان الدوح أتأمل نجوم السماء من خلل أوراقها، مستجلبًا لرئتي بليل نسمات الليل وطيب زهر الغابة.

وكنت قريب عهد بهجري باريس. إذ تملكني سأم شديد وعافت نفسي كل ما رأت عيني وأخذت منه بنصيب من كل سخيف وزري وذميم مدة خمسة عشر عامًا.

وأمعنت في السير وتوغلت في مسالك هذه الغابة ومضيت في فج مها عميق يؤدي إلى قرية جروزي على مدى غلوة من هنا، وإذا بكلبي قد وقف فجأة ونبح، فظننت أنه رأى ذئبًا أو وحشًا ضاريًا فدلفت متسللًا كظيم الخطو ولكني سمعت بغتة صراخًا علا، صراخ إنسان يستغيث مختنقًا تتمزق له نياط القلوب من رحمة. فما شككت أنه رجل يغتاله مغتال في خميلة فعدوت لنجدته وبيميني هراوة غليظة ضربتها مردية.

دنوت من هذا الصراخ الذي كان ينجلي كلما قاربته ولكنه خفيض مع ذلك مكظوم، كأنه صادر من بيت، وربما من خص حطاب، وكان كلبي بوك يتقدمني على قيد خطوات تارة يعدو، وتارة يقف، ثم ينطلق انطلاق السهم هائجًا حنقًا مسترسل الهرير ولم نلبث أن برز لنا كلب آخر أسود عظيم الهيكل كأن عينيه جمرتان قد كشر عن أنياب عصل يلمع بين شدقيه بياضها.

فهممت أن أهوي عليه بهرواتي ولكن بوك سبقني إليه فتلاحما وتصارعا وتجاولا، ومضيت أنا قدمًا، وإذا بي أكاد أتعثر بجواد متطرح في الطريق، وإذ وقفت مبهوتًا أتأمل هذه الدابة لمحت عربة أمامي، بل بيتا طائفًا، أحد مساكن هؤلاء الباعة المتجولين.

ومن هاهنا كان مصدر هذا الصراخ الفظيع المتلاحق. ولما كان الباب من الناحية الأخرى، فقد درت بهذه العربة واندفعت أرقى الدرجات الثلاث الخشبية وأنا أهم بأن أصرع المعتدي بهراوتي.

ولكني شاهدت عجبًا، والتبس علي الأمر فلم أفقه لأول وهلة شيئًا : هذا رجل قد جثا على الأرض كأنه يصلي، وعلى الفراش الذي استوى في جوف هذه العربة شيء قد جثم لا سبيل إلى تمييزه : بشر نصف عار قد انطوى على نفسه وهو يتلوى كالثعبان لا أرى وجهه، يميد ويضطرب وكأن صراخه خوار ثور.

فإذا هي امرأة تعاني آلام الوضع

فما إن أدركت كنه الأمر وتبين لي ما غمض من حقيقة هذا الحادث الذي كان عنه هذا الصراخ حتى أذنتهما بوجودي، فجعل الرجل وهو يشبه أهالي مارسيليا يسألني ملحًا ذاهب اللب أن أغيثه وأغيثها وهو يواثقني بكلام لا آخر له على الوفاء والذكر لجميل، بما أقضي منه عجبًا. ولم أك قد رأيت ولادة قط، ولا أسعفت أنثى قط في مثل هذه الأحوال، وذكرت له ذلك في بساطة، وأنا أنظر ذاهلًا إلى هذه التي تصم الآذان جلجلة صراخها في هذا الفراش.

ثم سألت الرجل الواهن الحسير وقد استرددت جأشي : ما بالك لا تذهب إلى القرية القريبة؟ فقال إن جواده هوى في حفير فانكسرت ساقه فهو رازح لا يريم.

- فقلت له : يا هذا لا بأس عليك. الآن نحن اثنان. إنا سنتعاون في جر العربة بامرأتك إلى بيتي.

ولكنا لم يسعنا إلا الخروج إلى الكلبين. إذ علا هريرهما وما فصلناهما إلا بضرب بالهراوة شديد كاد يخمد أنفاسهما، ثم خطر لي أن أشدهما بين أقدامنا إلى العربة استعانة بهما، هذا يمنة وذاك يسرة وما انقضت عشر دقائق حتى كنا على تمام الأهبة. وأخذت العربة تسير الهوينا، فترج - باهتزاز عجلاتها فيما تخط في الأرض ممعنة من أخاديد - تلك المرأة المسكينة الممزقة الأحشاء ويالها من طريق! كنا نسير لاهثين لنا زفير مرتفع، وعرق ناضح، نزلق حينًا، وحينًا نقع، بينما الكلبان المسكينان يزفران بين أرجلنا كزفير النار.

وقضينا ثلاث ساعات حتى بلغنا القصر، وإذ دنونا من الباب انقطع الصراخ داخل العربة. وإذا الأم والمولود في أحسن حال، وأرقدنا الأم وطفلها في فراش وثير. ثم ركبت عربتي لأستحضر الطبيب بينما كان صاحبنا المارسيلي وقد اطمأنت نفسه، يلتهم الطعام في شراهة ويحتسي حتى لا يعي من سكر ابتهاجًا بهذه الولادة السعيدة وكانت بنتًا.

وأقام عندي هؤلاء النفر ثمانية أيام، والوالدة وهي السيدة ألمير لها بصر بالغيب عجيب، وقد بشرتني بحياة مديدة ومناعم عديدة.

وفي العام الذي بعده وفي مثل هذا اليوم لدى الغسق جاء الخادم الذي حضر من هنيهة يدعونا، وكنت في حجرة التدخين بعد طعام العشاء، يقول: (غجرية العام الماضي جاءت تشكر سيدي).

فأمرت بدخولها، وعرتني دهشة إذ رأيت بجانبها غلامًا بالغًا أشده، ممتلئًا شحمًا ولحمًا، أشقر اللون من أهالي الشمال، فسلم

علي ثم جعل يقول كزعيم لطائفته إنه علم ما كان من إكرامي للسيدة إلمير، وأراد ألا تمر هذه الذكرى دون أن يفدا للشكر والاعتراف بيدي عليهما.

وقد أكرمت مثواهما وأمرت بإحضار الطعام لهما في المطبخ وأوفرت قراهما ليلتهما، واحتملا في الغد.

وهكذا في كل عام في نفس اليوم تفد هذه المرأة مع مولودها ذاك، وهي طفلة رائعة الحسن، وفي كل مرة مع... رجل جديد. إلا واحدا منهم فقط هو من أهالي أوفرنيا وقد بالغ في شكري وأجزل لي الثناء، حضر معها حولين متتاليين، والصبية تدعوهم جميعًا (بابا) كما نقول (سيدي) عندنا.

وكنا بلغنا القصر فلمحنا أما السلم ثلاثة أشخاص في انتظارنا وخطا أطولهم نحونا بضع خطوات وحيانا أحسن تحية ثم قال :

- سيدي الكونت إنما حضرنا اليوم لنبدي لك آيات الشكر... أما هذا الرجل فكان بلجيكيًا.

ثم تكلمت بعده أصغر الثلاثة بتلك اللهجة المدربة المتكلفة في الأطفال إذ يلقون عليك تهنئة أو ثناء.

أما أنا فقد أبديت البساطة وانتحيت بالسيدة إلمير ناحية وبعد حديث قصير قلت لها :

- أهذا أبو طفلتك؟

- كلا يا سيدي

- أمات أبوها؟

- كلا يا سـيدي. ما نبرح يلقاني وألقاه أحيانًا. وهو من رجال العسس

- عجبًا! أليس هو إذا ذاك المارسـيلي الأول صـاحب يوم الولادة؟

- كلا يا سيدي، ما كان ذاك إلا وغدًا زنيمًا سلبني مدخر مالي

- ورجل الدرك والد ابنتك الحقيقي أيعرف ابنته؟

- نعم يا سـيدي، بل هو شـديد الحب لها، ولكنه لا يسـتطيع تعهدها، إذ له من امرأته أولاد غيرها.

عزلة

وكان ذلك عقب غداء فشا على أثره طرب قوي، قال لي صديق قديم :

- هل لك بأن تجوز ممشى (الشانزليزيه) سعيًا على الأقدام؟

انطلقنا بخطوات وئيدة، تظللنا أشجار في مطلع الإيراق، وقد هيمن السكون على تلك البقعة، ما عدا تمتمة مبهمة دائمة تصاعد من قلب (باريس)، ولقد تهب نغمات باردة تضرب وجوهنا، ومن فوقنا قناديل من نجوم تبسط على أديم السماء الأسود أزرارًا ذهبية!.

قال رفيقي :

- لست أدري لماذا أرى الليل - هنا - أجمل منه في مكان آخر؟

يخيل إلي أن أفكاري تتمدد في أرجائه، وأن في روحي هذه المسارب من النور الدافق التي تطمعني - خلال برهة واحدة - بأن اطلع على السر الإلهي للأشياء، ولكن سرعان ما توصد النافذة، فينتهي بإغلاقها كل شيء.

وكنا بين الذهلة والذهلة نلمح على الأرصفة شبحين متلاصقين يزلقان في الليل أو نمر بمقعد منعزل استوى عليه كائنان لا يراهما الرائي إلا نقطة سوداء. همس في أذني رفيقي : - إنهما لا يبعثان في فؤادي سأمًا - ولكن إشفاقًا كبيرًا، ومن كل أسرار الحياة لا يلوح لي إلا سر واحد يشغلني، وإن كل عناء في الحياة مصدره أننا

نحيا دائمًا منعزلين! وكل ما نبذل من جهودنا لا نريد به إلا الفرار من هذه العزلة. إن هؤلاء العشـــاق المنطرحين على المقاعد في الجو الطلق يفتشـــون مثلنا عما يخفف مضـــض انعزالهم - وما ذلك إلا عمر لحظة - ثم يظلون منعزلين ونحن أيضًا.

إنهم يحســـون هذه العزلة، أقل أو أكثر منا، وهذا كل شـــيء. منذ حين أقاسي العذاب لأنني أدركت واكتشفت العزلة المروعة التي أحيا فيها، وعلمت أن لا شيء يستطيع أن يقضي عليها مهما جربنا، ومهما عملنا، ومهما ذهبت إليه خفقات أفئدتنا، ونجاوى شـــفاهنا، وضمات أذرعنا، فنحن دائمًا نظل منعزلين.

إنني قدتك هذا المســـاء إلى هذه النزهة، فرارًا من لجوئي إلى بيتي، لأنني أتألم كثيرًا من العزلة التي تهيمن على المنزل، وما عســـى يجديني هذا؟ إنني أكلمك وأنت تســـمعني، ونحن وحدنا جنبًا إلى جنب، ولكننا منعزلان....

يقول الكتاب المقدس : ســـعداء هم مســـاكين الأرواح، إن عندهم وهم السعادة، إنهم لا يشعرون بشقائنا المنعزل، ولا يهتون مثلي في الحياة، لا يعرفون من اللمس إلا لمس المرافق، ولا يعلمون من الفرح إلا قناعتهم الأنانية بالفهم وبالنظر، وبالتنبؤ وبالتألم دون نهاية من إدراك عزلتنا الأبدية.

إنك لتراني مجنونًا! أليس كذلك؟

إنني بعد ما أحســـســـت عزلة كياني، خيل إلي أنني أهوى يومًا فيومًا في مهوى مظلم لم يقع طرفي على حافة له، ولم أدرك له نهاية، وربما كان بلا غاية. فأفلت إليه وحدي دون رفيق معي ولا حولي، ولا

ســـالكٍ طريقي المظلمة. هذا المهوى هو الحياة، وخلال ذلك كنت أسمع صخبًا عاليًا وصيحات وأصواتا فكنت أدنو من هذا الصخب المضـــطرب متســـللا، ولكني لم أعلم علم الحق من أين مأتاه، وما ألفيت إنسـانًا، وما عثرت على يد أخرى ترتفع في هذا الظلام المسـدل علي.

هنالك رجال مثلنا أحســوا هذا الألم الممض وتنبئوا به، منهم (موسى) الصائح :

(من جاء؛ ومن دعاني؟ لا أحد!
أنا وحدي! وهذه الساعة التي تدق
يا للعزلة! يا للشقاء!)

ولكن العزلـة - عنـده - مـا كانـت إلا شـــكًا طـارقًـا، ولم تكن حقيقة ثابتة كما هي عندي. أنه كان شـــاعرًا، يؤنس الحياة بأخيلته وأحلامـه. إنـه لم يكن وحـده أبـدًا. ولكني أراني وحـدي وهنـالـك (غوسـتاف فلوبير) أحد كبار أبناء الشـقاء في هذا الوجود، لأنه كان أحد عباقرته، كتب إلى صـديقة له هذه العبارة اليائسـة (نحن كلنا في صـحراء؛ لا يفهم أحدًا منا أحدًا) بلى! لا يفهم أحد منا أحدًا، فمهما فكروا، ومهما قـالوا وجربوا فـالأرض هل تعلم ما يجري على مسـارح هذه الكواكب المنتشـرة كذرة نارية في هذا الفضـاء نرى منها على البعد صـفاء بعضـها، والأكثر عددًا منها ضـائع في اللانهاية، وقد يؤلف القريب منها كلا واحدا كما هو الحال في ذرات الجسد.

وهكذا الإنسان لا يدري ما يجول في صدر رفيقه الإنسان وإن واحدنا لأكثر بعدًا عن الآخر من هذه الكواكب السابحة، وأكثر اعتزالًا لأن الفكر لا يسبر غوره.

هل تعلم شيئًا أبعث على الهول من هذا التماس الخاطف في الأكوان الذي لا نستطيع إدراكه. إننا نحب بعضنا بعضًا كأننا مقيدون مبسوطة أذرعنا دون أن نقدر على ضم. على أن حاجة ضرورية للاتحاد تؤلفنا، ولكن جهودنا لا تزال ضائعة، وثقتنا غير مجدية، وعناقنا ضعيف، وحناننا باطلًا، فإذا أردنا اتحادًا لم تعمل مطامعنا إلا على إقصاء واحدنا عن الثاني.

إنني ما شعرت أنني (و أحد) إلا حين استسلم لصديقي وافتح قلبي له. إذ أفهم ذلك الحاجز القائم بيني وبينه. هو هنالك، ذلك الإنسان، أرى عينيه تسطعان حولي ولكن نفسه - وراءها - لا أدركها. هو يسمعني، ولكن فيم يفكر؟ أجل! فيم يفكر؟ إنك لا تفهم هذا القلق، إنه ربما يقليني، أو يحقرني، أو يسخر مني، إنه يفكر فيما أقول، يناقشني، يحكم علي، يراني أبله أو أحمق. وأنّى لي أن أدرك ما يفكر فيه؟ وأني لي أن أفهم هل يحبني كما أحبه؟ وما يجول في هذه الجمجمة المستديرة!؟ وأي سر هذا الفكر المجهول في كائن : الفكر المتواري الحر الذي لا نقدر على معرفته ولا قيادته، ولا الاستيلاء عليه، أو الظفر به؟.

أنا، أردت بكل نفسي أن أسلم نفسي كما هي وأفتح أبواب نفسي جميعها. ولكني لم أقدر على هذا الإسلام كله، لأنني أصون في

أعماق نفسي (مكان ذاتي الخفية) حيث لا يظهر أحد ولا يقدر أحد أن يكتشفه أو يدخله، لأنه لا أحد يشبهني، ولأنه لا أحد يفهم أحدًا!.

أفهمتني أنت الآن؟ كلا! إنك لتحكم علي بالجنون، إنك تتأمل في، وتحترز مني! وتسأل نفسك: (ماذا به هذا المساء؟ ولكنك إذا قدر لك يومًا أن تدرك موضع الألم في فعد إلي لتقول لي: (قد فهمتك!) وحينذاك تجعلني سعيدًا - ولو عمر لحظة -.

هن النساء اللواتي جعلنني أحسن تقبل وحدتي، آه كم تذوقت من الألم في سبيلهن! لأنهن منحني، أكثر من الرجال، التوهم بأنني لست وحيدًا!.

عندما يحب الإنسان يحس أن عالمه قد اتسع، وأن سعادة - فوق السعادة الإنسانية - تغمره. هل تعلم سبب ذلك؟ وهل تعلم مصدر هذه السعادة؟ يعود مصدره إلى أن الإنسان أعتقد بأنه ليس وحيدًا. وأن العزلة أو الابتعاد عن الكيان الإنساني قد انتهى سلطانه، ويا للوهم!.

المرأة هي اشد قلقًا منا بهذه الحاجة الملحة للحب الثابتة التي تأكل قلبنا المنعزل، وهي الأكذوبة الكبرى من الحلم إنك لتعرف هذه السويعات الجميلة التي نقضيها مع هذا الكائن التي طالت غدائر شعره، وراقت ملامحه أو فتكت لحاظه، فأي هذيان يملك علينا أرواحنا؟ وأي وهم يغمرنا؟.

أنا وهي لم نكن إلا واحدا في هذه الساعة، ولكن هذه الساعة لن تحين، وبعد أسابيع انتظار وأمل وفرح خادع، أجد نفسي فجأة

أكثر انعزالًا ووحدة من أي عهد مضى! فبعد كل قبلة وبعد كل عناق أجد العزلة تتسع آمادها، ويا لها من عزلة مروعة مؤلمة!.

يقول الشاعر (سوللي برودوم)

ليس العطف والحنان إلا هيمانًا مقلقًا

كلها تجاريب باطلة يقوم بها الحب التاعس مجربا (الاتحاد المحال) بين (الأرواح والأجساد).

وثم وداعًا، فقد انتهى كل شيء، على أن هنالك جهدًا في معرفة المرأة التي كانت كل شيء لنا، وفي لحظة من الحياة، وما عرفنا ولن نعرف الفكرة الباطنة والسطحية من دون ريب! وفي الساعات ذاتها حيث يخيل إلينا أن الأكوان أصبحت في عهد اتحاد سري وامتزاج كامل للرغاب، تنزل إلى أعماق نفسها، وكلمة قد تكون تبدي خطأنا، وتطلعنا - كأنها البرق الوامض في الليل - على الهاوية التي تفصل بينها وبيننا!.

وهنالك ما هو خير وأحسن في الوجود؛ أن تقضي أمسية مع امرأة تحبها دون أن تتكلم، سعيدًا كل السعادة، مغتبطًا بمجرد قيامها إزاءك. حاذر أن تطلب أكثر من هذا، لأن امتزاج كائنين مستحيل.

أما أنا الآن فقد غلقت أبواب نفسي، لا أقول لأحد عما أعتقد، ولا أظهر ما أفكر، أنظر إلى الأشياء، وأنا عالم ما تحمله إلى العزلة المروعة - دون أن أعلن عنها، وما عسى تهمني الأفكار والمشاحنات والمسرات والاعتقادات؟ لا أستطيع أن أقاسم أحدًا فكرة، نفسي تتنصل من كل شيء، وفكرتي الباطنة تظل خافية على

الناس، وعندي جملة عامة لكي أجيب بها على الأسـئلة التي تلقي علي كل نهار. وعندي ابتسامة تقول :

نعم! حين لا أكلف نفسي مشقة الكلام

لبثنا في مشـينا حتى عرجنا في سـيرنا على قوس النصـر، ثم هبطنا سـاحة (....) وكان يعرض فكرته متهملًا وقد أضـاعت ذاكرتي الشيء الكثير مما عرضه.

وقفت فجأة باسطًا يده نحو المسلة العالية المنتصبة الشامخ رأسـها في النجوم المفنية القصـية عن موطنها الحاملة تاريخ وطنها المنقوش بإشارات غريبة، وقد هتف صاحبي :

- إننا كلنا مثل هذه الأرض!

ثم غادرني دون أن ينبس بكلمة

أهو مجنون أم عاقل؟ لسـت ادري : ولكن يخيل إلي طورًا أنه على بينة من أمره، وطورًا أنه فقد عقله.

الأب...

تعلقها لحظة سـنحت لعينيه. فقد كانت ذات جمال هادئ صارخ، يتسلل إلى الحواس في دهاء ولطف، حتى إذا تمكن واستوى، فعل فعله، ودار فيها على طبيعته حنينًا ورغبة ونداء. ثم كان لِزامًا عليهما أن يتراءيا كل صـباح، لأن عملهما كان يقتضـيهما أن يهبطا باريس كل يوم مع الهابطين.

لم يكن يعرفها، وما كان رآها، إنما كان يجد نفسـه في كل صباح جالسًا تجاه فتاة جميلة، سرعان ما أحبها، وسرعان ما ألقت أنوثتها في ذهنه إنها امرأة وديعة لينة، ضعيفة، فشرع يغزوها.

كان يحملق في وجهها، وخديها، ثدييها بشـراهة عجيبة. وكانت إذ تـدرك منـه ذلـك تحملق فيـه، فلا يردُّ عينـه عنهـا، فتضـطرب، ويصـعـد الـدم وفيرًا إلى وجنتيهـا، فتزداد جمـالًا وفتنـة، فيزداد هو شـوقًا ورغبة...

ولا يـدريـان : لا هو، ولا هي، هـل كان واحـد منهمـا يحرص أن يكون جار صـاحبه في مقعد المركبة كل يوم؟ أم هي مصـادفة سـاقها القدر وفّقت أن يلتقيا هكذا أسـبوعًا كاملًا؟... كان لا مفر بعده من أن تجري بينهما بضـع كلمات خفاف قصـار في ابتسـامة أخف وأقصـر، لعلهن كن تمتمة شـكر لقاء أن آثرها وأجلسـها في مكانه في يومٍ كانت العربة فيه ملأا بركابها...

وفي اليوم التالي تصافحا يدًا بيد، ثم تكلما، ثم تصادقا... ثم كانت له برغم ذلك شاغلًا يملأ خلايا مخه طول يومه وسواد ليلته، إلى أن يلقاها... وإنه ليرقب مشرق وجهها على فؤاده بشوق وحنين، وإنه ليفكر في نصف الساعة التي ينعم فيها بها، حتى إذا بلغا غايتهما، وآن لهما أن يفترقا، شعر بفراغ هائل يداخل نفسه؛ وتعاظمته تلك القسمة الحرام التي قسمت له من زمان حبيبته جزءًا واحدا من ثمانية وأربعين جزءًا...

ولما توثق ما بينهما اشتهى أن يكون وإياها رجلًا مع امرأة؛ ولعلها اشتهت مثلما اشتهى لأنها قالت له في صباح يوم سبت من أيام الربيع، وهما يتواعدان أن يلتقيا غدًا في مطعم فاخر :

- قبل أن نذهب أحب أن أقول لك كلمة، وأمامنا عشرون دقيقة نستطيع أن نقول فيها كلمات...

وتغافل هو عما أحس من اضطراب جسمها واهتزاز ذراعها في ذراعه وهي تلقي إليه قولها، قالت في صوت خافت :

- أحب أن تعلم أنك ستطوي نهارك مع فتاة شريفة لا تحب أن تذهب مع رجل حتى يتعهد باحترامها...

وتوهج خداها وحرّت أنفاسها وتعنّف اضطرابها، فلم تعد تملك أمر نفسها فسكتت، وسكت هو لا يدري ماذا يقول فقد كان في حسابه أنه سيمتع نفسه بكل ما يمكن أن يفعله رجل يحب فتاة. وإذ لم يحر جوابًا ثنت هي تقول :

- إنني لن أذهب معك حتى تتعهد باحترامي

ولما برحا المطعم الموعود سـارا معًا على ضـفة النهر يمتعان أعينهما بالماء الحالم في هُدَّاة الأصـيل وبالجو السـجسـج الدافئ. وكانت لمعة الضـوء تتكسـر على صـفحة الماء الحابي، والأسـماك تتواثب وتتلاعب ثم تنغمر في الماء. وأشـعت الشـمس تسـيل فتصـبغ الماء والحشـائش والأفق بلونٍ رهيب... كان كل ذلك يزيد من جمال النهر ويكسبه روعة وجلالا.

وتفاعلا في روعة هذا الجمال الضـافي فراحا يلعبان ويثبان. وراحت هي تشـتبك في ذراعه ثم تتركه لتدفعه من ظهره. ثم تجري منه ضـاحكة ثم تؤامنه لتنحني فتجمع له الزهر النامي على حافة النهر وتقدمه له أو تلقيه في الماء. وظلا هكذا - كطفلين غريرين - حتى جرت دمائهما. ثم سارا هادئين لحظة لأنها بدا لها أن تقول له :

- ماذا تضن في وقد جئت معك منفردة!

- إن هذا أمر عادي مألوف

- لا. ليس عاديًا ولا مألوف، ولكني مع ذلك لا أظن إنني أكره مثل هذا الطيش، ولي أم مريضـة ومتعبة كانت أولًا بوقتي هذا، ولم يكن يليق أن أتركها وألهو ولكن... أرجو أن لا تسيء بي الظن.

ولم يكن لديه لهذا الخلط الذي لم يفهمه سوى أن مال عليها فقبلها قبلة أخطأت خدها وأصابت أذنها. فنفرت منه كظبي مذعور وتغاضـبت عليه. ولم تطل... بل أقبلت عليه تذكره بوعده لتمهد أن يعودا - كما كانا - مرحين لاعبين.

وكان الهواء قد رق وصفًا. وسرا عطريّ الروحة والغدوة يحمل في طوايا هبته شذًا قويًا يدير الرأس حين يدور فيها عندما بدت لهما

من بعد حديقة لفاء يحبو تحتها ماء النهر، وتذِّهب ذراها أشعة الشمس الغاربة، كانت تبدو من بعد كسرادق مظلم أو ككهف عظيم. ولما قارباها أخذت هي تحدق فيها بعين بارقة مفتوحة، وقالت في صوت خافت كأنه يأتي من أعماق أعماقها.

- ما أجملها... ما أجملها!

ولما اقتحماها وسارا فيها بلغا فيها خباء بين دوحتين فارعتين لا تبلغه العين، ولا يبلغه الضوء، إلا قطعًا نثارًا كنقوش الثوب، وملأت رأسيهما فيه ريح عطرة مثيرة قوية! فجلسا حالمين تائهين... ثم تقاربا في بطئ وسكون، ثم تضاما، ثم عصفت بهما نار الرغبة فلم تملك إلا أن تحس فمه بشفتيها. فجعل يعتصرهما بجنون، ويضمها إلى صدره بشوق وقوة وعنف، وقد غابا ونسيا نفسيهما...!.

ولما أفاقت لم تكن تريد أن تصدق... ثم أخذت تصيح وتصرخ... ثم هدأت لتبكي... ثم لما فرغت لم ترد أن تسمع لكلماته وهو يفرغها في أذنيها ليخفف عنها ما بها من جزع وأسى، بل جعلت تهتف في صوت خافت ضعيف :

- رب ماذا فعلت... ماذا فعلت!

وساوره الخوف والفزع مما رأى من حمرة خديها وعمق عينيها وجعل يرتعد وهو يرجوها أن تبقى ليتفاهما، وليدبرا الأمر على قانون الواقع ولكنها تركته دون كلمة أو وداع...

ولما لقيها في اليوم التالي ألفاها ساهمة شاحبة ظاهرة الأسى، كأنها خالصة من أعقاب مرض طويل أضناها وذوب قواها. قالت له حين تصابحا في همس :

- أريد أن أتحدث إليك قليلًا...

ولما انفردا قالت له في ألم وجد :

- أنه ليحسن بنا أن نفترق، فإن من الخير ألا نلتقي بعد ذلك، وبعد الذي كان لا أحب أن أراك لأنني كنت ضعيفة ومجنونة، فليس هناك ما يبرر أن أعود لهذا الجنون وذلك الضعف مرة أخرى!.

فجعل يتوسل إليها أن تلحق به وهو يؤكد لها أنه سيصلح ما أفسده. وأنه سيتزوجها إن شاءت ومتى شاءت ولكن عبثًا ما حاول فقد رفضت أن تسمع له وتركته ومضت.

ولم يعد يراها. ومر أسبوع وأسبوع، ولم يكن يعرف مأواها، ولعله أيس منها أو لم يقطع في أمرها بأمر، لأنه ذهب مرة يفتح الباب لطارق فوجدها هي. وأثلج صدره أن شعر بها فيه، تملأه وتهدهده، ورأى ذراعيه قد التفتا عليها، وجعلتا تضغطانها في رفق وشوق...

وعاشا معًا ثلاثة شهور شعر بعدها بالملل منها، فتهابط حبه لها وشغفه بها، ونقصت رعايته إياها وعنايته بها... ثم جبن وتسافل حين ذكرت له إن جنينًا يتواثب في أحشائها فكأنما كان هذا النبأ عصًا ألهبته، لأنه فر من وجهها مسرعًا لا يلوي. واختفى... لا حذرها ولا أخبرها إلى أين... ولا هي ارتضت لنفسها أن تبحث عنه.

لقد طاوعت كبرياءها فلم ترد أن تفعل، ولم تجد في وسع عينيها سوى أمها... فتهاوت في صدرها حزينة باكية تشكو لها بثها، وترجو عندها الستر والصفح والسلوى...

وفي الجانب الآخر عاش الخاطئ المسكين عيشة مضطربة قلقة سمجة، لا معنى لها ولا غناء فيها... عاش وحيدًا منعزلا، لأن

عليه أن يعيش... كانت الدنيا في عينيه مظلمة قاتمة سخيفة لا خير فيها. ولو لم يكن لديه إلا عمله يرى فيه بضعة وجوه لمات كمدًا وملالًا... فتخامد شبابه وانطفأ نور حياته في حضيض خطيئته. وغدا على الدنيا شبحًا يود لو ينتهي.

وكان يقسو عليه ألمه أحيانًا فيضيق بوحدته فيخرج في آصال أيام الأحد ليسير ثقيلًا متباطئًا، وما هي إلا خطي معدودة حتى يجلس ملولًا ضيق الصدر، ليرى الأسر السعيدة مغتبطة هانئة بأطفالها التي تجري حولها بوجوه ضاحكة مستبشرة. وكان هذا المرأى في ذاته يزيد ألمه وحزنه، ويسلمه إلى شعور عنيف يستبد به فيشعر أن قلبه ينسحق تحت معول ضخم، فلا يملك لنفسه إلا أن يطرق ويصمت وفي ذات صباح وكان يسير شريدًا مضيعًا، لمح امرأة تتهادى بين طفلين يلعبان حولها، أما أحدهما فطفل لم يجاوز الرابعة، وأما الثاني فغلام تشرّف على العاشرة.

اهتز حين رآها وداخله نحوها شعور ما، ولما لم يكن مخطئًا جمد ولم يستطع حراكًا، فقد فَقَدَ هيمنته على نفسه، ولم يعد إلا عينًا تدور وراءها وتتابع حركاتها. وازداد يقينه حين شعر بحنين عنيف يثور في صدره نحو أكبر الطفلين عندما التفت مرة فوضحت ملامحه...

في تلك الليلة لم ينم، فقد سهَّده أمل أشرق ثم خبا. فبات فريسة تفكير مضنٍ طويل : تُرى هل هذا ابنه... وهل هي...؟ وإذا كان فماذا أستطيع أن أفعل...؟.

وزاد بلاؤه أن طُمِس على ذهنه فلم يدر ماذا يستطيع أن يفعل... ولكنه غَنِمَ أن عرف أنها تزوجت رجلًا من جيرتها وكان شهمًا فاضلًا غفر لها واعترف بابنها وعُنِي بهما...!.

وكان إشراق وجه ابنه في سماء حياته المظلمة ألمًا جديدًا فوق آلامه، إذ أشعره ذلَّ الوحدة وعذاب الحرمان، فاضطرب اضطرابًا شديدًا، وامتلكه اليأس والأسى، وأصبح لا يرجو إلا أن يضم ابنه إلى صدره ويقبله ليشبع منه شوق السنين، وليطفئ لوعة الحرمان التي شبت في نفسه فغطت آلامه جميعها.

وقام في ذهنه أن يعترض طريقها، فأسرع نحوها فأخذها من كتفها؛ فلما التفتت إليه صرختْ صرخة رعب مكتومة، وحنَتْ على ولديها فطوّقتهما وأسرعت تجري بهما.

ومر شهران يئس فيهما أن يراها أو يرى ولده. وحنق على نفسه أن حرمها رؤية ولده ولو عن بعد. فجعل يكتب لها... كتب لها نحو عشرين رسالة لم يتلقّ رد واحدة منها! فأحس مرارة الخيبة تمور في ألم الحرمان فترهقانه وتعذبانه عذابًا أليمًا.

ولما يئس أن يراها فكر وقدّر، ثم فكر وقدر، فلمعت له في ظلمة يأسه خاطرة هي أن يكتبَ لزوجها... ولما جاءه الرد أنه يسره أن يلقاه في مساء يوم معين لم يكن بأسعد حالًا مما لو كان أهمله كما أهملته هي من قبل. فقد كان دَقُّ قلبه - وهو يصعد الدرج - سريعًا مزعجًا. وكان ينتزع رجليه انتزاعًا ويراود نفسه - وهو صاعد - أن يرجع!.

وكانت ثيابُ الرجل السود ورهبته فيها وسحنته المتزنة الوقور التي طالعه بها... كان كل ذلك قد خلع قلبه وطير ما بقي له من قوة واتزان. وحين أشـــار له الرجل أن يجلس، جلس متداعيًا مذهوب العقل، ضائعًا...

قال الرجل في لهجة عميقة ورنة آسفة :

- إن زوجتي حدثتني عنك...

فرد يقول في صوت خفيض متقطع :

- إنني يا ســـيدي غير ســـعيد لأنني لا أســـتطيع أن أرى ولدي

وهب الرجل فنادى... فدخل غلام في نحو العاشرة مسرعًا إلى الرجل الذي يعيش معه على ظن أنه أبوه... ولكنه وقف فجأة حين انتبه إلى أن بالحجرة رجلًا غريبًا...

وقبله أبوه قبلة كلها حنان وعطف. وقال له مشيرًا :

- اذهب وقبل هذا الســيد الجالس هناك. وســار الطفل نحو (الســـيد الجالس هناك) وديعًا خجلًا، ضـــيق الخطى. وأحس هو - وطفله مقبل عليه - أن دُوَارًا شـــب في رأســـه حين نظر إلى عيني ابنه وهما تطالعانه وتنظران إليه.

وقام الرجل (صـاحب البيت) فدار على نفســه واتجه صـوب النـافـذة، حين وافى الولـد أبـاه، وحين فتح لـه هـذا ذراعيـه فـاحتواه فيهما، وحين أخذ يقبله بجنون في شعره وعينيه وخديه وفمه وذقنه وكل وجهه، وحين انزعج الطفل من هذه القبلات العنيفة وأراد أن يتحاشاها ويبعدها عنه، وهو يدير رأسه إلى كل ناحية ليتخلص منها فلم يستطع، لأن الذراعين اللتين أحاطتا به قد تصلبتا عليه.....

.... ثم تراخيا عنه، لأن رقة قلبه شاعت في كل جسمه، فَرَحِمه وتركه، ليمسح دموعًا انسابت من عينيه، ونهض صارخًا يقول :

- وداعًا...

وأســـرع فنزل الـدرج قـافزًا كـالهـارب، وحين احتواه الطريق انغمر في الظلام كاللص.

الدَّين...

خرجت لتبحث عن القوت فرجعت ومعها جائع!

زحف الظلام فلفَّ باريس كلها. وغشيتها موجة من البرد القارس. وجثمت على صدر المدينة اللاهية الضاحكة غاشية من همٍ ثقيل حبست الناس إلى دورهم، وحلَّقتهم حول مدافئهم. وقد خَلت من رُوادها المسالك والطرقات. وهجعت مدينة النور - على كُرْهها - تحت أطواء ليل بارد مظلم طويل.

ولكن (فاني) التي طوت نهارها طاوية لم تكن لتأبه لذلك البرد القاسي، فإن الجوع قد لوى أمعاءها وخمصَ بطنها، وأَشاع في نفسها الخوف من أن تتضور في غدها كما تضورت في يومها؛ فخرجت - ككل أُمسية - لترابط على رأس طريق تنتظر فيه من يمنحها الخبز الرخيص لقاءَ أن تهبه جسدها ساعة أو بعض ساعة.

وفي تلك الليلة القرة كان الرجال يمرون بها مرًا لا يحفلون بها، لأنها لم تكن تحسن دعوتهم، ولأن لذع البرد لن يدع في نفوسهم سوى أن يصلوا إلى مكان دفئ كنين، فلم تُلفتهم تلك الهسهسة المرتجفة التي كانت تقع من أذهانهم موقع الظِنّة والعجب من هذه الفتاة التي تهزأ بهم وتسخر منهم في هذا الليل المثلوج!.

كانت شابة جميلة تقف على قمة العشرين، تفور أنوثتها في كيانها فتنضح حسنًا في وجهها وامتلاء في جسدها، وشهوة تتألق في عينها الشرهة ونظرتها الآثمة...

تلك (فاني) التي سطع نجمها فبهر باريس من أقصاها، إلى أقصاها، وشغلها عن كل غانية سواها، تدور الليلة يهرأها البرد ويلويها الجوع فلا تجد من يشبعها أو يأويها. حتى إذا خَدرِت قدماها من طول ما وقفت، وسرت في قدميها وفخذيها رطوبة الأرض المصقوعة همت راجعة وهي تغمغم قائلة :

- لم يعد ثمت أمل فلأرجع إلى بيتي

وكأنما شق عليها أن تنتهي غمرتها هذه النهاية المحزنة المؤلمة، لأنها حين دارت بجسمها لتأخذ طريقها دارت عينها تفحص الظلام حولها عله يتفتق عن رجل... فلمحت شبحًا يسيرًا مضطربًا متثاقلًا يتلفف في معطف بال مهلهل... كان بين الخطوة والخطوة يتأنى ويتمهل كأنه يستوضح الطريق أو يدبر المصير.

وحين تبينته ظنته طلبتها التي إليها تهفو فرصدت سبيله، وطفقت تهمس له في صوت داعر مرتعش لفته حين ملأ سمعه... فاستدار لها وقصدها متوجسًا منها مسرعة إليه!!.

... لم يكن مخمورًا كما حسبت، ولا كانت خاطئة كما ظن... إنما كان جائعًا شريدًا... مهزولًا، ذرع المدينة الغارقة في الثلج يومين كاملين حتى عصبه الجوع وأزحفه السير والسرى.

قالت له في حنو وإشفاق، وهي تسنده في لفة ذراعها وتقبله في نهزة الظلمة والسبيل خالية :

- مسكين... مسكين! لا تحزن... تعال معي فهي حجرة على أي حال وفيها دفء وقرار...

... ووصلًا معًا... وحين دلفا إلى الحجرة، واستشعر دفئها صاح في جذل وسرور وهو يلقي بنفسه إلى الأرض إلقاءً :

- ما أهنأني بهذا المكان... إنه ولا شك أفضل من الشوارع. نعم إنه أفضل من الشوارع لقد أمضيت دهرًا في الشوارع وفتحت (فاني) خزانتها وعَيْثت فيها، وكانت تحوي كل ما تملك من ملابس وطعام وشراب! إن كانت الكسر التوافه التي ضربت فيها العفونة تسمى طعامًا... أو إن كان القليل من النبيذ الرخيص يصلح أن يكون شرابًا...

قدمت له كل ما عندها، بعد أن عجفت نفسها عنه، فشبع وروى جهد ما وسعها أن تشبعه وترويه... وحين أهجأه الطعام شرع يقص عليها قصصه وقد طامنت جوعها واطمأنا معًا... قال : (قضى جدي منذ زمن قصير ولم يكن لي سواء وكان مصورًا مغمورًا... وقبيل موته أوصى بي أحد معارفه هنا، وحملني إليه رسالة مكتوبة ناشده فيها أن يعني بأمري، ويعلمني حرفة التصوير وكنت احمل - حين قدمت باريس - نيِّفًا وثلاثين فرنكًا كانت كل ما أملك من متاع الدنيا...

(طفقت أبحث عن الرجل فما وقعت له على أثر. إذ كان نقل مسكنه إلى حيث لا يدري أحد من جيرته فلبثت ستة أشهر أنفق مما معي إنفاق الحريص الشحيح حتى نفذت ثروتي عن آخرها منذ سبع ليال! فهمت على وجهي متسولًا في الطرقات، وفي تلك الأيام التي يجمد فيها الدم وتجنُّ فيها الريح... آه يا سيدتي... عندما لقيتك لم أكن قد طمعت شيئًا منذ ثمان وأربعين ساعة!).

وكان التعب والدفء قد فعلًا فيه فعلهما فلم يقوَ أن ينهض ليخلع عنه أخلاقه. فنهضت تساعده وتنضوها عنه في رقة وحرص... ثم احتوته في صـــدرها في عطف وحنو، وأخذت تقبله وتدلِّه وقد شـــاعت فيها الرحمة وأنســـاها بؤســـه بؤســـها. ثم تم تركه لتخلع ملابسـها هي أيضًـا... ثم صـعدا إلى فراشـها وكنَّتْه في حضـنها كطفل عليل، وناما - ملء عيونهما - إلى ضحوة النهار.

..... واستدانت ثمن غذاء رخيص في مطعم حقير، وحين جاء الليل تأذَّنَتْهُ أن تغيب عنه بعض الوقت... وحين عادت أفرغت بين يديه أثني عشـر فرنكًا قائلة إنها كسـبتها وإنها أحسـن حظًا من الليالي السـالفات، وإنها تدين له بهذا الحظ الوفير، ثم قبلته وتركته كَرَّة أخرى إذ كانا - لا يزالان - أول الليل..... وأوغل الليل... ثم انتصـف... ثم تهوَّر ولم تعـد (فـاني) فقلق عليهـا. ولكن لم تـداخلْـه في خِفْيتهـا ريبة... وأسـفر الصـبح ولم تعد أيضًـا... ولما علا النهار غادر الحجرة. إذ كان عليه أن يعول نفســـه ويعودَ ثانيًا فيطرق شـــوارع باريس العديمة القلب، وإن كانت ستغنيه تلك الفرنكات القليلة التي تركتها له - تلك التي لم يعرف اسمها - عن التشرد بضعة أيام!.

أما هي فكان من تَعَسِـــها أن احتجزها رجل الشـــرطة، لأنها كانت تسـير عبْر شـارع محظور على مثلها أن تسـلكه أو تظهر فيه... ومن ثَمَّ أعـدوا لهـا - جزاءَ مـا اجترأت - مكانًـا في سـجن البغـايـا في (سانت لازار).

ودارت عجلة الزمان خمس عشـــرة دورة، تحولت الحال فيها غير الحال، وتبدَّل فيها كل شـــيء... ذاقت خلالها (فاني) من صـــابِ

الحياة وحلوها ويسرها وعسرها ما تذوقه كل طريدة مثلها... وهبت نفسها للائم والخطيئة... فعلًا التيار بها وهبط ومد جزر. حتى استقر المطاف بها أخيرًا فإذا هي - بعد جهد السنين - غانية باريس الأولى وزهرة مجتمعاتها وحفلاتها وكوكبها الذي إذا ظهر أخذ وبهر، وإذا غاب شغل وأسر...!.

كذلك، وفي وثبة واحدة بلغتِ (فاني) الأوج وارتفعت إلى ذروة مالًا وجمالًا وشهرة وبُعدَ صيت. وأثرتُ تلك الفتاة المعدمة الشريدة التي آوتها الطرق ليالي وأيامًا وربَّتها الحادثات، والتي عانت الجوع والعرى ألوانًا وأعوامًا؛ وتدفق في يديها الذهب، وأقبلت عليها الدنيا، حتى سار المثل بغناها وبذخها واندفعت في نزق وجنون تنتقم من يومها لأمسها، فأسرفت في اقتناء الجياد والمركبات واستعمال الخدم والنُّدُلِ، وجُنَّت بالترف البالغ والسرف الطائش حتى طاولت بقصورها قصور السادة والأمراء، وطار ذكرها فعبر فرنسا كلها وجاوزها، فتهاوت تحت قدميها أفئدة الرجال، واحتولها السادة، وتحلَّقها الخاصة، واحترق في وهَجِهَا الشباب النُّضرُ من كل صَوْب وفج، وذابت في لَذْعة السحر من عينيها الأخاذين الأموال الكريمة. والضياع الوَساعِ، واختفت في أبهاء قصورها وبُهْرَات ملاعبها ومغانيها ثروات السفهاء البُله من سادة الحكم ووزراء الحاكم وأمراء المال من كل بلد وقطر!.

وظَلَّت (فاني) فترة من الزمن ملكة الجمال الفاتن والبذخ العريض، ليس في باريس وحدها ولكن في دائرة مركزها باريس ومحيطها عَبْر المحيط... تمسكُ أفئدة الخاصة - بل خاصة الخاصة

- بخيوط جُمْعُها في يدها. فتؤوِي من تشاء وترْجي من تشاء، وتَتَحظى من تريد وقت ما تريد. وبلغ بها هَوسها أن تألهتْ فقسمت الحظوظ بين عُبَّادها وفَرَقَتْهُمْ، فمنهم شقي وسعيد!.

... وأَوفت الفتنة في هذه (المخلوقة) وبها على الغاية حتى ذل فيها الأعِزة الشمُّ من الحافين حَولها، وحتى هلك في سبيلها من حقَّت عليه كلمتها. فقضى من أجلها من قضى، وجُنَّ فيها من جُن...

... وكأنما بَرِمتْ باريس بهذه الداهية الوافدة التي شغلتها برهة من الزمن فعالجها القدر وهي في عقدة عِزَّها، إذ توالت عليها المصائب ودهمتها الحوادث بغتة ومن غير تمهل، فأخذت تنحدر سريعًا كما ارتفعت سريعًا... وفعلت تلك الحياة العابثة الصاخبة فِعلها في أعصابها وكيانها... فأصابتها لَوثة جعلت تخبط فيها على غير هدى... ثم ركبتها الديون... فاضطربت رأسًا لقدم، وأخذتها العزة فلم تَقْوَ أن ترى الدائنين يجترئون عليها فيقتحمون مقاصيرها. ومخادعيها - على عينيها - ليستوفوا أموالهم بعدل ما تحوى من كنوز ثمينة وطرائف عجيبة ونفائس غالية!!...

وأسلمها الخبل إلى الجنون، وتضاءلت شهرتها وانفضت من حولها حاشيتها. وتقلص ظلها الممدود وهو النجم الذي تضوَّأ فأفل - من وهج نوره - كل نجم سواه... واختِصرت الدنيا العريضة التي وسعتها، وصارت حجرة... حجرة بسيطة في مستشفى المجانين لا تليق أبدًا بـ(فاني) العظيمة!...

وقرأ الفنان العظيم (فرنسيس جويرلاند) خَبَرَ ما أصاب (فاني) غانية فرنسا، فلم يلفته النبأ بَدْءَ الأمر، ولكن الصورة

المنشـــورة أرجعت عقله - حين توضَّـحها - إلى الوراء بعيدًا بعيدًا... حتى عثر في طواياه على ذكرى سحيقة... وذكرى تلك الليلة..... وحين عرف أن (فاني) الحســـناء لم تكن ســـوى تلك الفتاة التي أطعمته وأدفأته وحنت عليه حنو الأم على وليدها والتي ذهبت عنه فلم يرها ولم يســـمع بها، والتي جَدَّ في البحث عنها فلم يجدها حتى أيس منها، والتي كانت تصـحو ذكراها في زوايا قلبه فيردِّد شـــكرها في أعماقه ويتمنى لو يراها... حين عرف كل ذلك آســـفتْه هذه النهاية المفجعة لهذه الغانية الطيبة القلب... ثم عجب لنفسـه كيف جهل أن (فاني) التي لهجت بسـيرتها كل شـفة وشـغلت بجمالها كل إنسـان لم تكن سوى فتاته التي تركت له أثني عشر فرنكًا ومضت...

قال يحدث نفسـه بعد أن رجع من غياهب الماضي الذي غَرِق فيه :

- إنـه لا يحســـن أن تنهي حيـاة (فـاني) هكـذا، وفـاض فؤاده نحوها بحنـان غزير. واعتزم أن يعمـل من أجلها عملًا ما، ومع أنـه حَمِدَ للقـدر أن هيـأ لـه أن يراها ليبثها شـــكره وامتنـانـه، وليرد لها جميلها الذي لا يسـتطيع أن ينسـاه، إلا أنه حزن وأسـى وود لو كانت لقياهما في ظروف أحسن من هذه.

ولم يكن الفنان النابه ثريًا إنما كان يحيا حياة وســـطًا قوامها ما كان يربحه من فنه كمصـور، فباع كل ما يملك ليسـتطيع أن يجد لها مكانًا خيرًا من الذي هي فيه وجوًا أرجى وأنقى. وعناية أتم وأكمل حيث تراعى وتعالج ويعني بحالتها النفســـية، وحيث تقوم على أمرها ممرضـة تحنو عليها وترعاها... وهناك تحسـنت صحتها تسـنًا ظاهرًا

شـجعه أن يحملها إلى بيته ليخدمها بنفسـه. وليدخل على قلبها لونًا من المسـرة والبهجة، سـيكون له - بإذن الله - أثر في تقدم صـحتها، ولكن الطبيب عارضه وأنكر عليه ونصحه قائلًا :

- سـتعود بها إلينا ثانيًا... أن لهذا المرض نوبات تعاودها حينًا بعد حين. وقد قضـي عليها إحدى هذه النوبات فلم يرضـخ لنصـح الطبيب، وقال له :

- إنه لابد أن تعيش معي، إنها أشبه بأمي...

وفي منزله اعتنى بها وخدمها بإخلاص، وسـهر عليها في حنو وصـبر. وكانت الصـدمة قد كهلتها فتخاذلت وابيض شـعرها، ولم تسـتطع أن تعي حقيقة أمرها، ولا أن تعرف شـيئًا عن الرجل الذي يأويها ويقوم على شـأنها، ولم يشـأ هو أن يذكرها بنفسـه، بيل ذهب إلى أبعد مدى في نيل وإنكار الذات، إذ تركها تعتقد أنها في رعاية شـاب ثري فُتن بها وأحبها لنفسـها حبًا حقًا خالصًـا موقنًا أن هذا الحلم السـعيد الذي تعيش فيه مطمئنة وادعة، والذي قدَّمَ لها خيوطه الحريرية فنسجته هذا النسج البديع اللائم سيسرع بها نحو العافية...

... ولكنها عُقبى نوبة قاسية من نوبات دائها أسندت رأسها إلى صدره هانئة سعيدة وأسلمت نفسها تحت عينه وبين ذراعيه وحين أراح على فراشـها جثمانها السـاخن ذكر ليلة أن طعم ودفئ وبات هانئًا سعيدًا ملء حضنها وبين ذراعيها وغمغم يقول :

- هل دفعت الدين يا فاني ؟!...

الصدأ...

لم يكن له في حياته سوى (غِيِة) واحدة، غية نهمة، لا تعرف الشبع : (الصيد!)

كان يصطاد كل يوم من الصباح إلى المساء في لهفة وشوق، وكان يصطاد في الشتاء والخريف وفي الربيع والصيف، وكان يصطاد في الغدران حين كانت الأنظمة تحظر الصيد في الغابات والإحراج، وكان يصطاد بجميع أنواع الصيد : بالعدو، وبالكلب المتحفز والكلب الراكض، والكمين، والمرآة والفتاش...

ولم يكن يتحدث عن شيء غير الصيد، ولم يكن يحلم بشيء غير الصيد!... ولم يكن لينقطع عن التردد : يا لشقاء من لا يحب الصيد!...

ومع أنه تجاوز العقد الخامس من حياته، فإنه صحته لا تزال جيدة، بحيث لا يظن أنه تخطى عتبة الشباب، بالرغم من الصلع الذي فتك بشعر رأسه؛ وهو إلى ذلك شديد البأس قوي البنية ضخم الجسم.

وكان يحلق ما تحت الشارب ليكشف جيدًا عن شفتيه، ويجعل دائرة الفم حرة ليسهل عليه النفخ في البوق.

ولم يكن أحد في المنطقة يدعوه بغير اسمه الخاص : (السيد هيكتور)، مع أن اسمه البارون هيكتور غونتران دي كورتلين.

وكان يقطن في وسط الإحراج، في مزرعة صغيرة انتقلت إليه بالإرث؛ ومع أنه كان يعرف جميع الطبقة الأرستقراطية في المقاطعة، ويتقابل مع جميع أفرادها الذكور في أماكن الصيد، فإنه لم يكن يتردد بصورة فعلية على أكثر من أسرة واحدة هي أسرة (كورفيل) التي تقطن بجواره وتخلص له الود، والتي عقدت أواصر القرابة بين أسرته وبينها منذ أجيال عديدة.

وكان حبيبًا إلى هذه الأسرة عزيزًا لديها، مكرمًا محترمًا؛ وكان كثيرًا ما يقول لأفرادها :

- لو لم أكن صيادًا لما وددت الابتعاد عنكم قط! وكان السيد دي كورفيل صديقه ورفيقه منذ عهد الحداثة، وكان مزارعًا شريفًا يعيش عيشة هادئة مع زوجه وابنته وصهره السيد دي دانتو الذي لم يكن له عمل، بحجة أنه منقطع لأبحاث تاريخية خطيرة.

وكثيرًا ما كان البارون دي كورتلين يتناول عشاءه على مائدة أصدقائه ليحدثهم عن الصيد خاصة، وكان يروي لهم قصصًا مطولة عن الكلاب والفتاش، وكان يتحدث عن هذه الأشياء كما لو كان يتحدث عن شخصيات بارزة له بها صلات وثيقة، فكان يكشف عن نياتها ومقاصدها، ويشرح حركاتها وإشاراتها :

عندما رأى فيدور - اسم كلبه - أن العصفور هو الذي يضطره إلى أن يعدو سريعًا هكذا، قال في نفسه : انتظر أيها اللعين، أنا لن نلبث أن نضحك وأن نضحك كثيرًا. ثم أشار إليَّ برأسه أن أذهب وأتوارى في حقل النَفَل، وأنطلق يبحث ويبحث ملتويًا تارة ومنحرفًا تارة أخرى في شيء غير يسير من الجلبة وهو يتسلل بين

الأعشـاب ليوصـل العصـفور المطارد إلى زاوية لا يسـتطيع الإفلات منها. وقد تم كل شيء كما توقعه، ولم يلبث العصـفور أن سـقط في أقصـى الحقل، إذ لم يكن في إمكانه أن يذهب إلى أبعد من ذلك من غير أن يرى. فقال له فيدور : ها أنت وقعت بين يدي... ثم أكب على رجليه متخفيًا والتفت ينظر إلى، فما كدت أشـير إليه حتى سـمعت (برررررر) فطار العصـفور فرفعت البندقية إلى كتفي وأطلقت منها النار : (بان) وإذا بالعصـفور يسـقط، فحمله فيدور إلى وهو يحرك ذنبـه كأنـه يريـد أن يقول : أرأيـت كيف نجحـت الحيلـة يـا سـيـد هيكتور؟.

وكان كورفيل ودارنتو والسـيدتان يضـحكون ضـحكًا شـديدًا من هذه القصـص الغريبة التي يرويها البارون بكل ما أوتي من فن وبراعة، فكان يحرك كتفيه ويشـير بجميع أعضـاء جسـمه، حتى إذا وصل إلى موت العصـفور انفجر يضحك ضحكًا عريضًا وهو يسـأل هذا السـؤال الذي يتخذه خاتمة لقصـته : إنها لجميلة هذه القصـة. أليس كذلك؟.

ولا يكاد الحديث ينتقل إلى موضـوع آخر حتى ينصـرف عنه سـمعه، ويشـرع يدمدم بعض أغاني الصـيد، كما كان يفعل حين يسـود الصـمت بين جملتين، فإن الهدوء لا يكاد يقطع ضـجة الحديث حتى تنطلق منه على حين غرة : طن... طن... ويظل البارون يرددها وهو ينفخ خديه كأنه ينفخ في بوق.

وهو لم يتعلق بالحياة إلا لأجل الصـيد، وكان الهرم قد بدأ يدب إليه شيئًا فشيئًا. وذات يوم أصيب بداء المفاصل ولزم الفراش

شهرين متواصلين، فكاد يقضي كآبة وضجرًا. ولما لم يكن لديه خادم تتولى شئون بيته عهد إلى إحدى العجائز بأمر أعداد الطعام...

ولم يكن في استطاعته أن يحصل على كمادات حارة، ولا أن يظفر بما يفتقر المرضى إليه من عناية، فتخذ من قائد كلابه ممرضًا له، وصار هذا الأخير يضجر بقدر ما يضجر سيده على الأقل، فصار ينام ليلًا ونهارًا على الكراسي بينما البارون يشتم ويجدف محنقًا مغتاظًا في سريره.

وكانت السيدة كورفيل وابنتها تعودانه أحيانًا، فكانت الساعة التي تقضيانها بقربه أحي الساعات إليه، ينعم بالهدوء والراحة، إذ تغليان له ما يحتاج إليه من مشروبات حارة وتتعهدان الموقد وتقدمان له فطوره على حافة سريره؛ فكان يدمدم حين انصرافهما : كان عليكما أن تقطنا هنا؛ فتغرق السيدتان في الضحك وتوصدان الباب وراءهما.

ولما تحسنت صحته وعاد يصطاد في الغدران ذهب ذات مساء لتناول العشاء على مائدة أصدقائه، ولكنه لم يكن كعادته مرحًا نشطًا، إذ كان يخشى الانتكاس وعودة الآلام قبل افتتاح موسم الصيد؛ فلما نهض يريد الانصراف هرعت السيدتان إليه تلفان حول عنقه وشاحًا حريريًا، فترك نفسه للمرة الأولى في حياته بين أيديهما؛ ثم أخذ يتمتم بلهجة يائسة :

- إذا عادت الآلام إليَّ قضى عليّ لا محالة!

وعندما انصرف قالت السيدة دارنتو لأمها :

- يجب تزويج البارون!

فسرَّ الجميع لهذه الفكرة وعجبوا كيف أنهم لم يفكروا في ذلك إلى الآن، وطفقوا يبحثون طيلة السهرة بين الأرامل اللواتي يعرفوهن، وانتهى بهم الأمر إلى أن وقع اختيارهم على سيدة في الأربعين من عمرها ما تزال جميلة موسرة، حسنة الطباع جيدة الصحة تدعى (برت فيلرس).

فدعوها لتمضية شهر في القصر، ولما كانت تضجر وحدها في بيتها لبَّت دعوتهم، وكانت كثيرة الحركة والمرح، وراقها السيد كورتلين لأول نظرة، وأصبحت تسر بوجوده كما تسر بلعبة تنبض فيها الحياة، وصارت تقضي الساعات الطويلة تسأله في خبث عن عواطف الأرانب وحيل الثعالب. فكان يندفع برزانة في تمييز وجهات نظر مختلف الحيوانات ناسبًا إليها خططًا دقيقة كما ينسب مثلها إلى معارفه من الرجال وقد استحسن الالتفات الذي كانت تعيره إياه، وأراد أن يبرهن على تقديره لها فدعاها لمرافقته إلى الصيد، وكانت هذه الدعوة أمرًا لم يقدم عليه إلى الآن مع أية سيدة أخرى. وقد بدت لها هذه الدعوة مضحكة إلى درجة لم تر مانعًا من قبولها.

وتعاون الجميع على إلباسها لباس الصيد. فصار كل واحد يقدم لها شيئًا، ثم ظهرت وقد ارتدت ثيابها على طريقة سكان (الأمازون) في رجليها حذاءان ضخمان، تنفرجان عن سروال من سراويل الرجال، فوق قميص قصير تغطيه سترة من القطيفة تضيق عند النحر، وعلى رأسها قبعة من قبعات الخدم الذين يقودون الكلاب.

وكان يبدو على البارون أنه شـــديد التأثر كأنما هو ســـيطلق أول طلقة من بندقيته، وشرع يشرح لها بدقة اتجاه الهواء ومختلف أنواع وقفات الكلاب، وطرق اجتذاب الحيوانات والطيور لصـيدها. ثم دفع بها إلى أحد الحقول وراح يســـير في إثرها خطوة خطوة كأنه مرضع تسير وراء رضيعها عندما يبدأ يمشي لأول مرة.

وصادف (فيدور) طائرًا فأكب على رجليه ووقف.

ثم رفع إحـدى رجليـه، وكان البـارون وراء تلميـذتـه يرتجف كريشة في مهب الرياح يتمتم : انتهى... حجـ... لات...

ولم يكد يتم كلمته الأخيرة حتى دوي طلق شـــديد، وارتفع من الأرض برررر... فـارتفع على الأثر ســـرب من الطيور في الهواء وهي تضرب بأجنحتها ضربًا عنيفًا.

ومن شـديد التأثر أغمضـت السـيدة فيلرس عينيها وأطلقت طلقتين، وتقهقرت من أثر رجة البندقية، فلما اســـتعادت رباطة جـأشـــهـا أبصـــرت البـارون يرقص حولهـا كالمجنون وفيـدور يعود بحجلتين بين فكيه.

منذ ذلك اليوم بدأ السيد كورتلين يعشقها!

وأنشأ يقول عنها وهو يرفع بصره : يالها من امرأة!...

ومنذ ذلك اليوم صـــار يأتي كل مســـاء ليتحدث عن الصـيد. وذات مرة، بينما كان الســـيد دي كورفيل يودعه والبارون مندفع في امتداح صديقته الجديدة سأله :

لماذا لا تتزوجها؟

فجمد البارون كالمأخوذ وقال :

- أنا؟... أنا؟... أتزوجها!... ولكن... فعلًا...

وصمت ثم هز يد صديقته بسرعة وتمتم :

- إلى اللقاء يا صديقي

واختفى في ظلام الليل وراح يبتعد بخطوات واسعة...

ولم يعد البارون طيلة أيام ثلاثة، ولما عاد كان الشحوب قد صبغ وجهه بصفرة داكنة لشدة ما عاناه من التفكير الممض. وكان هذه المرة أكثر رزانة من قبل، فتوجه إلى السيد كورفيل وأخذه على طرف ثم قال له :

- لقد خطر لك وجيه، فأرجوك أن تعمل على تهيئتها لقبولي زوجًا لها... يا لله... لكأن هذه المرأة خلقت من أجلي، إذ نستطيع أن نذهب للصيد معًا دائمًا.

ولما كان السيد دي كورفيل متأكدًا من أنها لا ترفض، أجاب :

- أطلب يدها حالًا يا عزيزي... أتريد أن أقوم بهذه المهمة؟

ولكن البارون اضطرب فجأة وصار يتلعثم :

- كلا!... كلا! ينبغي قبل ذلك أن أقوم برحلة قصيرة... برحلة قصيرة إلى باريس، وسأجيبك حال رجوعي الجواب النهائي...

وامتنع عن بيان أسباب ذلك. وفي اليوم التالي سافر.... مضى أسبوع... أسبوعان... ثلاثة... والسيد كورتلين لم يعد، فاستغربت ذلك أسرة كورفيل وقلقت عليه، ولم يعد أفرادها يدرون ماذا يقولون للسيدة فيلرس التي أطلعوها على رغبة البارون، وصاروا يرسلون كل يوم إلى داره من يتسقط أخباره، ولكن لم يكن بين خدمه من تلقى شيئًا منه.

وذات مساء، بينما كانت السيدة فيلرس تغني وهي تعزف على البيان اقتربت الخادم بحذر كبير من السيد كورفيل، وهمست في أذنه بصوت خافت جدًا : إن بالباب رجلًا يريد مقابلته.

وكان هذا الرجل البارون وهو ما يزال في لباس السفر، وقد بدا عليه كثير من الشحوب والهزال والهرم، وما كاد يقع بصره على صديقه حتى أسرع إليه وأمسك بيديه، وقال له بصوت ضعيف متعب :

- وصلت في هذه اللحظة يا عزيزي ومع ذلك فقد أسرعت إليك لأقول لك...

ثم صمت برهة، وفي شيء من الارتباك والتردد استأنف :

- أريد أن أقول لك... حالًا... إن القضية... التي تعرفها لا يمكن... أن تتم...

فنظر إليه السيد كورفيل دهشًا :

- كيف...؟ ولماذا لا يمكن أن تتم؟

- أوه!... أرجوك ألا ترهقني بالأسئلة، إذ يشق على كثيرًا أن تضطرني لبيان السبب، ولكن كن واثقًا كل الثقة أنني لا أفعل إلا ما يفعله كل رجل شريف.... إني لا أستطيع... بل ليس لي الحق في أن أتزوج هذه السيدة... أفهمت؟... وسأنتظر مغادرتها داركم لأعود إليكم... لأن مشاهدتها تمضني كثيرًا... فإلى اللقاء... وانصرف هاربًا.

فاجتمعت الأسرة كلها وأخذت تتشاور وتتناقش وتفترض الافتراضات المختلفة، وانتهى بها الأمر إلى أنه لابد أن يكون في حياة البارون سر خطير، فقد يكون له أولاد طبيعيون، وقد تكون له

علاقات غرامية قديمة... وأدركت أسرة كورفيل أن الحالة على جانب عظيم من الرصانة، ومنعًا لتعقيدات أخرى تسلحت بلباقة فائقة لاطلاع السيدة فيلرس على الواقع... فعادت هذه السيدة أرمل كما قدمت...

ومضى على ذلك ثلاثة أشهر. وفي ذات مساء أفرط السيد دي كورتليه في تناول العشاء، وصار يترنح وهو يدخن غليونه مع السيد دي كورفيل، كم كانت دهشة هذا الأخير عظيمة حينما فاجأه البارون قائلًا :

- آه لو كنت تعلم كم أفكر في صديقتك، إذن لأشفقت علي!

والسيد دي كورفيل الذي استاء من سلوك البارون في هذه القضية أجاب بصراحة :

- كان عليك يا عزيزي، ما دام في حياتك الماضية أسرار ألا تقدم على ما أقدمت عليه، إذ كان في إمكانك بكل تأكيد أن تفكر من قبل في السبب الذي سيضطرك للرجوع من عزمك.

فبدت على البارون علامات الخجل، وقال بعد أن توقف عن التدخين :

- كان ذلك ممكنًا وغير ممكن في وقت واحد... ولكني لم أكن أصدق إمكان حدوث ما حدث.

فقاطعه لسيد دي كورفيل بفارغ الصبر :

- كان عليك أن تفكر في إمكان حدوث كل شيء!

فألقى السيد كورتلين نظرة على الظلام الذي يكتنفهما، وبعد أن تأكد من أنه ليس حولهما من يسمعهما قال بصوت منخفض :

- ألاحظ أنك مستاء من تصرفي، وسأفضي إليك بكل شيء لتمن عليّ بالعذر... منذ عشرين سنة وأنا لا أحيا يا صديقي إلا للصيد... والصيد وحده دون كل شيء آخر... أنا كما تعلم لا أحب شيئًا غير الصيد، ولا أهتم بشيء آخر سواه... ولذلك خطر لي قبل أن أوقع عقد الزواج مع هذه السيدة أن.. بل حصل في ضميري تردد... إذ منذ الزمن الذي انقطعت فيه عن... عن الحب... لم أعرف إذا كنت لا أزال أقوى على... على... أفهمت؟؟... تصور أنه مضى عليّ أكثر من ست عشر سنة لم... لم... أفهمت؟ وليس من السهل في هذه المقاطعة أن... أفاهم أنت؟... ثم إنه كان لدي شيء آخر أعمله... كنت أفضل على ذلك أن أطلق طلقة من بندقيتي.. وبكلمة مختصرة حين عزمت على أن أتعهد إزاء الكاهن وإزاء المأمور الرسمي على أن أقوم بواجب الزوجية خشيت أن أكون... والرجل الشريف لا ينقض عهوده ولا يخل بتعهداته... وكان علي أن أقطع لهذه المرأة عهدًا مقدسًا بأن... وأخيرًا، ولكي أكون واثقاً من نفسي قررت أن أسافر إلى باريس وأن أقضي فيها ثمانية أيام، ولكن الأيام الثمانية انقضت ولم أستطع أن أعرف شيئًا مطلقًا، ولم يكن ذلك ناشئًا عن قلة ما قمت به من تجارب، إذ ترددت على أحسن ما في باريس من جميع الأنواع وجميع الأجناس، وأؤكد لك أن أولئك عملهن كل ما باستطاعتهن... ولكن ماذا تريد... كن جميعًا ينسحبن مغمغمات... متمتمات... وإذ ذاك قررت أن أنتظر خمسة عشر يومًا... فثلاثة أسابيع رجاء أن... وقد أفرطت في تناول الأطعمة المفلفلة، الأمر الذي أجهد معدتي إجهادًا عظيمًا...

ورغم كل ذلك لم أستطع شيئًا مطلقًا!... وفي هذه الحال وإزاء فشـــل جميع المحاولات لم يكن لي بد من الانسـحاب... وهذا ما فعلته!...

وكان السـيد دي كورفيل أثناء ذلك يدور على نفســه ويبذل جهدًا عظيمًا ليحول دون انفجاره بالضـحك، فلما فرغ البارون من روايته هزَّ يديه برصانة قائلًا :

إني لأشفق عليك حقًا

ورافقه إلى منتصف طريق منزله...

ولما خلا السيد كورفيل بزوجه، أطلعها على كل شيء وهو يكاد يختنق من شـدة الضـحك، ولكن السـيدة دي كورفيل لم تضـحك قط وإنما كانت تنصـت إلى زوجها بانتباه، حتى إذا فرغ من حديثه ابتدرته برزانة :

إن البارون أبله يا عزيزي... فإذا كان لم يسـتطيع شـيئًا فلأنه كان خائفًا... وسأكتب حالًا إلى برت أن تعود.

فأنشـأ السـيد دي كورفيل يحتج بفشـل جميع المحاولات البارون ولكن زوجته أسكتته بقولها :

- يجب أن تعلم أن الرجل إذا كان يحب زوجته واتته القدرة دائمًا!

فلم يحر السـيد دي كورفيل جوابًا إذ اعتراه هو نفسـه شـيء من الخجل...

قصيدة غرام...

غادر القطار مدينة جنوا متجها نحو مرسيليا، ومتقفيًا تعرجات الشاطئ الصخري الطويلة، وأخذ يسلك سبيله - بخفة وسرعة ونشاط، كثعبان أسود مخيف - بين اليم والجبل، زاحفًا فوق الشواطئ ذات الرمال الصفر التي تدغدغها الأمواج الصغيرة بخيوط دقيقة لجينية، ثم يدخل - دون تمهل - فوهة النفق الأسود، كما تدخل البهائم في أجحارها، أو الطيور الغَردة في أوكارها.

وكان في العربة الأخيرة من القطار، شاب في ريعان صباه، وامرأة أُوتيت من السمن حظًا وفيرًا. جلسا متقابلين وجهًا لوجه، دون أن ينطقا بحرف، أو ينبسا ببنت شفة. وكان كلاهما يختلس من صاحبه النظر، بين الفينة والفينة. أما المرأة فكان لها من العمر نحو خمس وعشرين ربيعًا، وكانت جالسة قرب النافذة تمتع ناظريها بمناظر الطبيعة المُزَيّة وهي إلى ذلك امرأة قروية صلبة العود، قوية البنية، من مقاطعة بييمون الإيطالية، ذات عينين سوداوين، وصدر ناهد جسيم، ووجنتين مكتنزتين باللحم والشحم، وقد ألقت تحت مقعدها الخشبي عدة حُزم ورِزم، واحتفظت فيما بين ركبتيها بسلة.

أما هو... فقد كان على النحو العشرين من عمره، وكان نحيلًا مهزولًا مسقَّمًا بصبغة سمراء قاتمة، وهي من علامات الرجال الذين يعملون في الأرض، خلال فصل الصيف، وفي حر الهاجرة وكان إلى

جانبه منديل حوى كل ما ملكت يمينه من (ثروة!) ونشب : حذاء وقميص، وسروال وصدار. وقد أخفى عدا ذلك تحت المقعد أشياء أخرى : مِجرفة ومعولًا، ربط بعضها إلى بعض بحبل. لقد كان ذاهبًا إلى فرنسا ليبحث فيها عن عمل يعتاش من ورائه.

أخذت الشمس تتسلق القبة الزرقاء، بخطوات مبتدئة رزينة، وأخذت تقذف من برجها العاجي البعيد وابلًا من أشعتها النارية المستمرة على الشاطئ الهادئ الوديع.

كان ذلك في أواخر شهر أيار، وأريج الزهر العطري يعبق في الجو، ويدخل العربات، التي ظلت نوافذها مفتحة، وكان شجر البرتقال والليمون في إبان إزهاره، وأريج زهره الناضر يعبق في الجو ويتطاير مع النسيم برقة وعذوبة وقوة، فيفعم الأنوف، ويملأ الخياشم، ويمتزج برائحة الورد الفواحة العطرة التي كانت تنبت على طول الطريق بكثرة مفرطة كما ينبت العشب أو الكلأ في البساتين وأمام الخرائب المتهدمة، وفي الحقول والمزارع أيضًا.

لقد كانت هذه الورود والأزاهير في المكان الملائم لها على هذا الشاطئ الوديع، وكانت تملأ جو البلدة بشذاها الفواح، وأريجها التضوع، حتى أنها تجعل النسيم حلو طيبًا كقطعة من حلوى! وليس ذلك ما تصنعه فحسب بل كانت تجعل النسيم شيئًا ألذ من الخمر، ولكنه مسكر كالخمر!.

أما القطار فكان يسير الهوينى، كما لو أنه يبغي عامدًا أن يطيل مشيته في هذه الحديقة الحالمة؛ وكان يقف بين الآونة والأخرى في المحطات الصغيرة أمام بعض المنازل البيض، ثم

يستأنف مسيره الهادئ الواني ثانية بعد أن يصفَّر طويلًا، لم يكن أحد يركب القطار من تلك المحطات، ولم يكن يُرى أحد أيضًا؛ حتى إن المرء ليحسب أن الخليقة ناعسة بأسرها، وأن أحدًا لا يجد القوة والنشاط لتغيير موضعه في ذلك الصباح اللاهب من فصل الربيع.

وكانت المرأة البدينة تسبل جفنيها بين الآونة والأخرى ثم تفتحها على حين غرة، عندما تشعر بأن السلة التي وضعتها بين قدميها على وشك السقوط، فتمسكها بحركة سريعة نشيطة، وتمد رأسها إلى النافذة، وتمتع ناظريها بمشاهد الكون المرئية، ثم تعود إلى إغماض جفنيها من جديد، وكانت بعض قطرات من العرق تلتمع فوق جبهتها، ثم تتنفس بجهد وعناءٍ، كما لو كانت تعاني ضغطًا شديدًا.

أما الفتى القروي فقد أحنى رأسه، وأستسلم لنوم عميق لذيذ وعندما كان القطار يغادر محطة صغيرة، استيقظت المرأة على حين غرة ثم أخرجت من سلتها رغيفًا من الخبز وبيضًا مسلوقًا وقارورة من الخمر وأجاصًا جيدًا مورَّد الخد وشرعت تأكل.

وأستيقظ الشاب فجأة أيضًا على صوت حركاتها الأخيرات وأخذ يرنو إليها ويطيل النظر إلى لقمة تَطعَمها وتذهب بها من بين ركبتيها إلى فمها. ومكث كذلك : مشبك الذراعين، محملق العينين، بارز العارضتين، مغلق الشفتين.

وكانت المرأة تَطْعَم غداءها رغبة ملحة ونهَم شديد، وتحسو مع كل لقمة جرعة من صهبائها كي يسوغ طعامها ويسهل عليها

ابتلاعه. وكانت تمتنع هنيهة عن طعامها بين الفينة والفينة لتستجم أولًا وترسل نَفَسًا طويلًا ثانيًا.

لقد أتت على كل ما لديها من طعام وشراب، فلم تُبقي شيئًا من الخبز أو البيض أو الأجاص أو الخمر. وما أن انتهت القروية البدينة من غدائها حتى أغمض الفتى جفنيه. ولما شعرت المرأة بالشبع، وامتلاء المعدة، نزعت أزرار ثوبها من عراها، كي تصيب بعض الراحة بعد هذا الشبع المفرط. ونظر إليها الفتى من جديد، ولكنها لم تضطرب من نظراته ولم تقلق، بل ثابرت على فك أزرارها، وكان ضغط نهديها المتوثبين الشديد، يبعد القماش بعضه عن بعض، ويظهر من الفرجة - التي أخذت تتسع - شيئًا من قميصها القطني الأبيض، وقليلًا من بشرتها، ولما وجدت القروية البدنية. ولما وجدت القروية البدينة نفسها أقر عينًا، وأهدأ بالًا، وأكثر راحة وسرورًا، رفعت رأسها للفتى، وقالت له تحدثه بالإيطالية :

- لقد بلغت شدة الحر حدًا تعسر معه التنفس وضاق

فأجابها الشاب، باللغة نفسها، واللهجة ذاتها :

- إن الطقس حسن، ملائم للسفر والسياحة كل الملائمة

والتفتت إليه فسألته :

- أأنت من مدينة بيمون؟

- بل من آستى

- أما أنا فمن كازال

لقد كانا من بلدتين متجاورتين، فآلف ذلك بين قلبيهما، وجمع بين روحيهما، فأخذا يتجاذبان أطراف الأحاديث. تحدثنا

طويلًا... وطويلًا جدًا، عن أمور وأشـياء مبتذلة، لا قيمة لها وشـأن يذكر؛ أشـياء تعيد العامة ذكرها، وتكررها في كل ظرف أو مناسـبة. وهي في الحق أقصى ما يصل إليه تفكير هذه الطبقة الضيق. تحدثنا عن البلـدة، وعن أخبـارهـا وظرائفهـا. لقـد كان لـديهمـا معلومـات مشـتركة غزيرة، يعرفها كلاهما بالتفاصيل والدقائق. وأخذا يذكران الأشخاص، ويعددان الأسـماء التي يعرفان أصحابها. وكانت أواصـر الصـداقة والمودة تزداد توثقًا بينهما كلما ذكرا شخصًـا جديدًا رأياه، أو صـحبـاه، أو عرفـاه. وكانـت الكلمـات تنطلق من ثغريهمـا بقوة وحماس، وسـرعة ونشـاط، مع نهاياتها الموسـيقية الرنانة، ونغماتها الإيطالية الحلوة. ثم أخذ كلاهما يعرف صاحبه إلى نفسه :

أما المرأة فقد كانت متزوجة ولها من الأولاد ثلاثة تركتهم إلى أختها لترعاهم، وتقوم على خدمتهم، لأنها أخذت تشـغل منصـب مرضع وفير الربح، لدى سيدة فرنسية في مرسيليا.

وأما الفتى الشـاب فقد كان يبحث عن شـغل، وقد قيل له : إنه سـيجد - دون ريب - عملًا في مرسـيليا لأنهم يكثرون من البناء والعمار هناك.

وما أن بلغا هذا الحد من الحديث حتى اعتصـما بالسـكوت وأخذت الحرارة تزداد والنهار يَرْمض، وذكاء يشـتد سـعيرها كلما غذَّت الخطا في تسلق القبة الزرقاء، وكانت أشـعة الشـمس اللاهبة تسـقط على عربات القطار فتزيد في شـدة الحر، وتضـاعف أواره المتسـعر، وأخذت غمامة من الغبار الكثيف تتطاير خلف القطار، وتـدخـل العربـات. وكان أريج زهر البرتقـال والورود يزداد تضـوعًـا

وانتشارًا، فيملأ الخياشيم ويفعم الأنوف واستولت على المسافرْين الفتَّيْين من جديد رغبة ملحة في الرقاد، فاستسلما طائعين لسلطان الكرى القاهر.

وعدا بعد حين، فنفضا عن عيونهما بقايا النوم، في وقت يوشك أن يكون واحدا. وتضيقت الشمس أخيرًا، وأخذت تدنو من البحر، وهي تنير صفحة الماء الأزرق بأشعتها الأرجوانية اللألاءة، فيزداد بريقه ويشتد تألقه والتماعه. وبدأ الهواء الطريُّ الرطب، أخف وطأة، وأقل ضغطًا.

وأخذت المرضع تلهث وكان صدارها مفتوحًا، وخداها مسترخيين، وعيناها كامدتين... ثم قالت بصوت ينم عن الإعياء البالغ، وألاين الشديد :

- منذ نهار أمس لم أُدن ثدي من طفل، وهأنا ذا بسبب ذلك مضطربة الفكر، مشتتة القلب، موزعة الفؤاد، كما لو كنت مقدمة على إغماء شديد.

ولم يحر الشاب جوابًا، لأنه لم يدر ما يقول، ولا بماذا يجيب واستمرت المرضع في حديثها فقالت :

عندما تملك المرأة لبنًا بالقدر الذي أملك، من الواجب عليها أن ترضع ثلاث مرات في النهار، فإن لم تفعل أصيبت بضيق عظيم، وغم شديد، إنني أشعر بعبء ثقيل يرزح فوق صدري، ويكاد يحبس عني الأنفاس، ويحطم مني الضلوع. من الشقاء والتعاسة أن تملك المرأة لبنًا بهذه الغزارة والكثرة.

فأجابها الفتى بنغمة الموافق الآسف :

- حقًا إنه من الشقاء يا سيدتي... إن هذا اللبن يقض مضجعك ويزعجك دون ريب...

وفي الحق كانت تبدو على محياها إمارات المرض، ويظهر في عينيها بريق التعب والإعياء. ثم جمجمت في صوت خفيض :

- يكفي أن يضغط المرء ثديي قليلًا كي يتفجر منه اللبن، كما لو كان ماء ينبجس من نبع، حقًا إن هذا منظر مروع، حتى أن المرء لا يكاد يصدقه لمجرد السماع، وفي (كازال) يتقاطر الناس عليّ كي يروا ثديّ.

- أحقًا ذلك؟

- أجل، إن هذا حق، لا غبار عليه، ولا لبس فيه، وسأريكهما، غير إن هذا لا يفيدني في شيء، لأني لن أستطيع أن أفرغ شيئًا من محتوياتهما على هذه الصورة.

قالت ذلك وسكتت من جديد

ووصل القطار بعد حين من الوقت، إلى إحدى المحطات، فوقف عن المسير. وكان في المحطة - خلف الحاجز القائم بين القطار والجمهور - امرأة هزيلة الجسم، رثة اللبوس، تحمل بين ذراعيها طفل يبكي.

ووقع نظر المرضع على المرأة؛ فقالت بصوت تمثل فيه اللطف والإشفاق والرحمة :

- هذه امرأة يمكنني أن أخفف عنها ما تعاني من ضيق، كما أن الطفل بإمكانه أن يخفف عني هذه الأثقال التي ينوء بها صدري. اسمع يا صديقي لست غنية - لأني أترك منزلي وذوي وابني الأصغر،

كي أعمل كمرضع، بعيدة عن الوطن والأهل - ولكني على استعداد لدفع خمسة فرنكات في سبيل الحصول على هذا الطفل وإرضاعه مدة عشر دقائق؛ إن هذا دون ريب بعيد الهدوء والسرور إلى نفسينا. يخيل إلي أني سأبعث من جديد حين أفعل ذلك، وإن الحياة ستسري في عروقي.

قالت ذلك، ولجأت إلى أحضان الصمت تعتصم به من جديد وأخذت تمسح بيدها اللاهبة -حينًا بعد حين - جبهتها فيسيل العرق منها ويندى.

- ثم قالت بصوت موجع حزين :

- لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك... لم أعد أستطيع... يخيل إليَّ أني أوشك أن أموت.

وبحركة لا شعورية أطلقت الأزرار ثوبها العنان فتفتح كله!

وبدأ ثديها الأيمن للعيان، فكان ضخمًا كبيرًا ينتهي بحَلَمة سمراء... شديدة السمرة. وقالت المرضع المسكينة شاكية متألمة :

- آه يا إلهي! ماذا أصنع؟ ماذا أفعل؟ لم أعد أستطيع!... وكان القطار قد عاد لاستئناف المسير بين الأزاهير الفواحة التي تنشر شذاها العبق الذي يشتد تضوعه في الأمسيات الدافئة. وفي بعض الأوقات كان يخيل إلى المرء أن زورق صيد وقف هادئًا فوق صفحة الماء الأزرق الساجي بشراعه الأبيض الساكن، وكانت صورته تنعكس في الأمواج، كما لو أن زورقًا آخر كان في المكان نفسه ولكن باتجاه معاكس، أي رأسه إلى أسفل...

ورفع الفتى القروي رأسه إلى المرضع وقال مضطربًا مغمغمًا :

- ولكن يا سيدتي... يمكنني أن... أن أريحك مما تعانين!...

فنظرت إليه المرضـــع بطرف مريض كليل؛ وأجابته بصـــوت خفيض ذليل :

- أجل... إن أردت يا سـيدي. إنك تسـدي إلي يدًا لا أنسـاها. لم أعد أستطيع الاحتمال أكثر من ذلك! لم أعد أستطيع...

وجثا الفتى على ركبتيه أمامها، وانحنت المرضـع نحوه مقدمة إلى فمه، بحركة من حركات المرضـــعات المألوفة لديهن، حَلَمَة ثديها الدكناء. وخلال الحركة التي قامت بها المرضـــع، والتي أمســـكت بها ثديها بيديها، كي تدنيه من الرجل الشـــاب، ظهر على الحلمة نقطة من اللبن، فأمتصـها هذا بسـرعة ورغبة ونهَم، وهو يقبض بشـفتيه على الثدي الثقيل المنتفخ، كما لو كان يقبض على ثمر شـــهي! أو فاكهة طيبة لذيذة. وأخذ الرجل يرضع لبن هذا الثدي بشره ورغبة، ونظام ودقة.

وطوق الشاب بذراعيه خصر المرأة، وأخذ يضغطها كي يدنيها منه أكثر، وكان يتناول لبنه بجرعات متباطئة متزنة ويميل برقبته يمنة ويسرة، كما يفعل الأطفال الرضع على التمام!.

وفاجأته المرأة بعد حين بقولها :

- يكفي هـذا المقـدار من هـذا الثـدي، خـذ الآخر الآن وتنـاول الثدي الآخر بإذعـان وطاعـة وخضـــوع. ووضـــعت المرأة يديها على الشـاب، وأخذت ترسـل أنفاسـها، بهدوء نفس، وانشـراح صدر، وهي تنشـــق عبير الورود والأزهـار الممتزج بنســـمات الهواء الرقيقـة التي كانت حركات القطار تقذف بها إلى العربات. وقالت على حين غرة :

- أعتقد أنه يكفي هذا المقدار الذي ارتضعته

فلم يحر الشاب جوابًا، وأستمر يحسو من هذا النبع الذي لا ينضب، مسبلًا جفنيه، كي يشعر بلذة أكبر، وسعادة أعظم.

ولكنها أبعدته برفق وهي تقول :

- كفى... كفى... أشعر بتحسن شديد. إن صنيعك يا سيدي قد أعاد روحي إلى الجسد، وبعثني بعثًا جديدًا.

وانتصب الفتى واقفًا، وهو يمسح شفتيه بظاهر كفه. فقالت له المرأة حينذاك، وهي تدخل في ثوبها، ثدييها الكبيرين اللذين ينفخان صدرها :

- حقًا لقد أسديت إلي يا سيدي يدًا لن أنساها، أنني أشكر لك هذه المنة، وأحفظ لك هذا الفضل.

فأجابها الشاب بغنة فيها امتنان وشكر وعرفان للجميل :

- ولكن عفوك يا سيدتي وغفرانك!... أنا الذي يجب علي أن أشكرك من صميم الفؤاد، وسويداء القلب. لقد انقضي علي يومان، يا سيدتي، لم أطعم خلالها شيئًا...

المجنونة

كان السيد ماتيو داندولان والسيد روبرت دي بونيير يتجاذبان الأحاديث عندما وجه داندولان نظر صديقه إلى طيور برية قائلًا : تذكرني هذه الطيور يا صديقي بحادث مؤلم من حوادث الحرب... أنت تعرف أملاكي في ضاحية (كورمي) التي أقيم فيها منذ احتلها البروسيون، وكانت جارتي (جادي) قد اعتراها نوع من الجنون بسبب حوادث مفجعة تتابعت عليها فأثرت فيها تأثيرًا عنيفًا، فقد فقدت المسكينة في شهر واحد أباها وزوجها وأبنها الصغير، وكان حديث الولادة، وهكذا عندما يزور الموت منزلا أول مرة، يعود إليه ثانية كأنه يعرف الطريق... صرعها الحزن فلزمت الشابة البائسة فراشها وهي تهذي ستة أسابيع كاملة وتوالت عليها أزمات حادة ظلت بعدها خامدة عديمة الحركة، لا تكاد تتناول شيئًا من الطعام إلا بالجهد الشديد، لا يتحرك فيها إلا عيناها، وفي كل مرة حاولوا تغير موضعها كانت تصرخن بشدة كأنما يراد قتلها، فتركت نائمة كما شاءت وتوفرت على خدمتها سيدة عجوز طيبة القلب كانت تقدم لهما الماء من وقت إلى آخر مع قطعة من اللحم البارد تلوكها بين أسنانها... ما الذي كان يدور بخلدها المشتت؟ أكانت تحلم بالذين ماتوا؟ لم يعرف ذلك أبدًا، لأنها لم تتكلم أبدًا، ولأن فكرها المضمحل، ظل عديم الحركة كالماء الراكد. ومرت خمسة عشر عامًا وهي على تلك الحال؛ مغلقة النفس، خامدة

الحركة... جاءت الحرب، وفي الأيام الأولى من ديسمبر، تغلغل البروسيون في كورمي.

وكان الجو باردا والثلج يتساقط، إني أذكر هذا اليوم كأنه الأمس القريب، وكنت ممددًا على كرسي مستطيل بجوار نافذتي مريضًا بداء المفاصل، أسمع وقع أقدامهم الثقيلة وخطواتهم الرتيبة، وأراهم من النافذة صفوفا لا نهاية لها يبدون في حركاتهم المنتظمة كأنهم دمي تتحرك بخيوط مشدودة، وقد أمر القائد بتوزيع الرجال على سكان القرية فكان نصيبي منهم سبعة عشر رجلًا ونصيب جارتي البائسة اثنا عشر رجلًا، بينهم القائد وهو رجل عسكري قديم، حاد الطبع، غليظ الخلق. قيل له أثناء إقامته بالمنزل إن ربة الدار سيدة مريضة لم تفارق فراشها منذ خمسة عشر عامًا متأثرة بحزن شديد أصابها ولكنه لم يقتنع بهذا، من غير شك، فقد توهم أن الذي منعها من استقبالهم إنما هو كبرياؤها واشمئزازها أن ترى البروسيين أو تحادثهم، فطلب مقابلتها وأدخل إلى غرفتها، فما إن رآها حتى خاطبها بصوت جاف خشن وبلهجة ركيكة فيها كثير من التحريف... أرجوك يا سيدتي أن تنهضي من فراشك وأن تنزلي لكي يراك الجميع... ولكن المرأة المسكينة أدارت نحوه عيونا مبهمة فارغة ولم تجب فأعاد بلهجته الغريبة مرة ثانية.. إذا لم تنهضي بإرادتك فسنجد وسيلة لإرغامك على نزهة فريدة.. ولكن المسكينة لم تأت بأي إشارة، كانت دائمًا عديمة الحركة كأنها لا تراه، فتملكه الغضب، وظن أن السكوت منها علامة احتقار بالغ

له، فأضـــاف مهددًا - إذا لم تنزلي يا ســـيدتي غدا... ثم أدار وجهه وانصرف.

وفي اليوم التالي، أرادت خادمتها العجوز الطيبة أن تلبســـها ملابســـها قبل أن يحضـــر الضـــابط ولكن المجنونة صـــرخت بأعلى صـوتها في هياج شـديد، ولم تجد أي محاولة معها. وفي هذه اللحظة صـــعد الضـــابط مســـرعًا ليرى تنفيذ أوامره، فخرت الخادم على أقدامه مســـتعطفة صـــارخة، إنها لا تريد يا ســـيدي، أنها لا تريد، اصفح عنها، أنها بائسة تعسة.

ظل الجندي القديم، مشـــبكا ذراعيه كاظما غيظه، وفجأة انطلقت منه ضـحكة عالية، وأعطى بالألمانية أمرًا إلى رجاله، ورأى الرجالة يحملون المريضـــة بفراشـــها كما يحملون جريحًا في الميدان، ورأى في المؤخرة رجل يحمل حزمة ملابس نسائية.

المجنونة ســـاكنة هادئة لا تقاوم، ولا تبالي بالعواقب، كأنها نائمة نومتها الهادئة في منزلها العتيق. فرك الضـــابط يديه ســـرورًا قائلًا : ســـنرى جيدًا إذا كنت تســـتطيعين أن تلبســـي وحدك، وأن تقومي بنزهة صـغيرة.. الموكب يسـير مبتعدًا متجهًا إلى غابة ايموفي... وقد مضت ساعتان عاد الجند بعدهم منفردين... ولم تعد المجنونة ثانية... ماذا صـنعوا بها؟ وإلى أي مكان حملوها؟ لم يعرف أحد ذلك مطلقًا. الثلج يتساقط ليلا ونهارًا، وبدا الوادي في نعومة المخمل، أما الغابة فقد كفنها الجليد بثوب من الزبد المثلج، والذئاب تعوي حتى أبواب المنازل، وذكرى هذه المرأة المفقودة لا يفارقني.

قمت بجولات متعددة قريباً من مناطق البورسيين مؤملا الحصول على معلومات عنها ولكني لم أفز بطائل، فظننت أنهم ربما قتلوها رميًا بالرصاص.

عاد الربيع، وابتعد الجيش عن القرية ومنزل جارتي المسكينة ظل مغلقًا تنبت الحشائش في أبهائه، والخادم العجوز في أثناء الشتاء، ولم يعد أحد يشغل نفسه بهذه الحادثة، ولكني - أنا نفسي كنت أحلم بها بلا انقطاع.

ماذا صنعت هذه المرأة؟ أهربت مخترقة الغابة؟ أم عثر عليها بعض المارة فأدخلها مستشفى قبل أن يستطيعوا الحصول على معلومات عنها؟.

لم أجد ما يخفف حدة الشك في نفسي، ولكن الزمن خفف هذا الألم شيئًا فشيئًا. وجاء الخريف، وتتابعت أسراب الطيور البرية، واسترحت من مرضى قليلًا فاندفعت نحو الغابة للصيد، وأصبت خمسًا أو ستًا من ذوات المنقار الطويل، وكنت أبحث عن واحدة وقعت في حفرة صغيرة وسط فروع الأشجار، واضطررت إلى النزول في الحفرة لالتقاطها، ولكني سقطت على رأس ميتة، وفي الحال ترددت في صدري ذكرى المرأة المجنونة كأنها لكمة قوية، لقد كنت متأكدًا أني سأقابل هذه البائسة يومًا ما، وفجأة فهمت، وفرضت كل شيء، لقد حملها البروسيون إلى هذه الغابة الباردة وأهملوها، وتركت المسكينة نفسها الخاوية تموت تحت وطأة البرد، وزغب الثلج المساقط، لا تحرك يدًا ولا رجلًا، ثم جاءت الذئاب

الجائعة فافترستها، والطيور بنت أعشاشها من صوف فراشها الممزق.

حفظت هذا الحطام الحزين، وأقمت له النذور ودعوت الله ألا يرى أولادي الحرب أبدًا.

اليد المقطوعة

التف الجمع حول المسيو برمتير مدير الأمن العام الذي أمكنه أن يحل بذكائه ونباهته رموز جريمة سان كلود التي حيرت أهل باريس مدة عام كامل، وأن يكشف الستار عنها بما عرف عنه من مهارة البحث، ودقة التحري والاستقصاء.

وكان المسيو ميتر جالسًا يدخن غليونه في هدوء بجوار المدفأة التي كانت تتأجج فيها النار، وقد استلقى بظهره العريض الممتلئ على مقعد كبير مريح.

وغادر بعض السيدات الموجودات وسط هذا الجمع مقاعدهن واقتربن منه ليتمكن من الإصغاء إليه وكن هو يسرد عليهن حوادث هذه الجريمة الرهيبة، ويروي لهن الغوامض والأسرار التي اكتنفها في ذلك الوقت من كل ناحية.

فلما انتهى من سردها التفتت إ ليه إحدى السيدات وقالت :

- إن هذه الجريمة تعتبر في نظري، بل في نظر الكثيرين أيضًا، من الجرائم الشاذة الخارقة لنواميس الطبيعة...

فأجابها المسيو متير وهو ينفث من فمه دخان غليونه في الهواء :

- إنها ليست يا سيدتي من النوع الشاذ الخارق لنواميس الطبيعة كما تظنين، وكل ما يمكنني أن أقوله عنها إنها ارتكبت بمهارة فائقة، ونفذت بطريقة متناهية في البراعة والدقة. وكان

الغموض يكتنف هذه الجريمة من كل جانب حتى إنني لم أتمكن من حلها إلا بعد كثير من المشقة وطول البحث والتفكير...

وبعد أن سكت هنيهة تابع حديثه فقال :

- وقد مرت بي منذ بضع سنوات قضية يمكنني أن أقول عنها إنها شاذة خارقة لسنن الطبيعة، عنها بحق إنها شاذة خارقة لسنن الطبيعة، وهذه القضية هي الوحيدة التي لم أتمكن إلى الآن من حلها، ولم أوفق في العثور على أثر يساعدني على إجلاء غوامضها.

وقد اضطرت في النهاية إلى أن أنفض يدي منها بعد أن فشلت في الوصول إلى فك رموزها، وحل معمياتها الكثيرة.

وكان لهذه البداية المشوقة التي استهل بها المسيو برمثير قصته أثرها في نفوس سامعيه، فلم يلبث أن طلب منه النساء والرجال الذين كانوا يصغون إليه بشغف زائد وانتباه عظيم أن يسرد عليهم تفاصيل هذه القضية العربية فارتسمت على شفتي المسيو برمتير ابتسامة خفيفة باهتة ثم اعتدل في جلسته وقال.

كنت في الوقت الذي حدثت فيه وقائع هذه القضية الغامضة مفتشًا سريًا بمدينة أجاكسيو، وهي كما تعلمون مدينة صغيرة تقع على حافة خليج تحيط به الجبال العالية من كل جانب.. وكانت مهمتي الرئيسية هناك تدور حول كشف الجرائم التي يرتكبها أصحابها بدافع من الانتقام وحده. ففي ذات يوم علمت أن إنجليزيًا غريبًا عن تلك البلاد نزل في هذه المدينة واختار لسكناه دارة (فيلا) جميلة تقع في نهاية الطرف البعيد الممتد من هذا الخليج. وقد أحضرها الإنجليزي معه خادمًا فرنسيًا أثناء مروره بمدينة مرسيليا.

وقد دارت الإشاعات الكثيرة حول هذا الإنجليزي الذي كان يعيش في هذه الدارة بمفرده، والذي لم يكن يغادرها إلا عندما يخرج للقنص والصيد فحسب! ولاحظ عليه سكان المدينة أنه لم يكن يخاطب أحدًا من أهلها، ولا يسير في شارع من شوارعها إلا نادرًا! وكان يتمرن ساعة أو ساعتين في صباح كل يوم على إطلاق النار من مسدسه الذي لم يكن يفارق جيبه الخلفي مطلقًا! وأشاع عنه بعض الناس أنه قدم إلى هذه المدينة بعد أن فر من بلاده لأسباب سياسية، والبعض الآخر أشاع عنه أنه ارتكب جريمة شنيعة فر بسببها إلى هذه البلاد هاربًا من وجه العدالة! وكانت طبيعة عملي تحتم على إذ ذاك أن ألم بشيء من حياة هذا الرجل الغامض، الغريب الأطوار، بيد أني لم أنجح في ذلك في بداية الأمر. كان الاسم الذي عرف به هذا الإنجليزي بين أهل هذه المدينة هو السير جون رويل. وبالرغم من أنني كنت أقتفي أثره وألازمه ملازمة الظل في كل خطواته دون أن أشعره بمراقبتي له، فأنني لم ألحظ عليه ما يريبه أو يشين سمعته بشيء.

ومع كل ذلك فان هذه الإشاعات والأراجيف التي كان تقولها الناس عنه بالحق أو بالباطل لم تقف عند حد، بل لقد زادت في الواقع انتشارًا وذيوعا إلى درجة دفعتني إلى محاولة الاتصال بهذا الرجل مهما كلفتني ذلك من جهد أو كبدني من مشقة وعناء. وكانت أول خطوة خطوتها لتحقيق غرضي أنني بدأت أصطاد بانتظام، وفي مواعيده معينة، في بقعة كبيرة مكشوفة بالقرب من مسكنه. وفي ذات يوم اصطدت طائرًا سقط لحسن حظي في حديقة دارته

الواسعة المترامية الأطراف، فأسرع كلبي الذي كنت أصطحبه معي دائمًا عند خروجي للقنص والصيد وأحضر الطائر المصاب بين أنيابه وهو يلهث من شدة التعب. وقد انتهزت حينئذ هذه الفرصة التي أتاحتها لي الظروف للتعرف بالسير جون رويل الذي كان جالسًا وقتئذ في حديقة منزله، فاجتزت المسافة التي كانت تفصلني عنه بخطوات سريعة واسعة، ثم قدمت إليه هذا الطائر - وكان من الطيور الغريبة النادرة المثال - على سبيل الهدية وأنا أعتذر إليه في نفس الوقت من تهجمي على حرمة مسكنه. فشكرني السير جون رويل بحرارة وإخلاص لم أكن أتوقعهما منه وتقبل مني هديتي البسيطة وهو يتمتم بعبارات الشكر والامتنان.

وقبل مضي شهر على هذا الحادث كنت قد تبادلت الحديث معه نحو خمس مرات أو ست، ولكنه كان حديثًا عاديًا مألوفًا لا يقدم ولا يؤخر. وفي ذات مساء كنت أمر بجوار منزله فشاهدته جالسًا في الشرفة يدخن غليونه بهدوء وقد أمسك في يده صحيفة يومية كان يطالع فيها بشغف واهتمام. فلما وقع بصره علي حييته برفع قبعتي، فرد تحيتي باسمًا ثم دعاني إلى الجلوس معه فقبلت دعوته عن طيب خاطر.

وقد انتهزت حينئذ هذه الفرصة التي كنت أترقبها بفروغ صبر فسألته حين استقر بنا المقام عن تاريخ حياته الذي لا أعرف عنه حتى تلك اللحظة شيئًا! فعلمت منه حينئذ أنه سافر إلى أمريكا وأفريقيا والهند وكثير من الأقطار الأخرى. وبعد أن مرت بيننا لحظة سكوت قصيرة قال لي وهو يبتسم : (لقد صادفت أثناء تجوالي في

تلك البلدان كثيرًا من المخاطر والأهوال التي كادت تودي بحياتي في كثير من الأوقات لولا لطف الله ورعايته..) وهنا أطلعني على كثير من التفصيلات العجيبة الخاصة بصيد فرس البحر، والفهود، والفيلة، والغوريلا وغيرها. فقلت له وأنا أعجب بغزارة علمه، وسعة اطلاعه : (إن هذه الحيوانات وحشية ومخيفة للغاية).

فأجابني محدثي وهو يبتسم بهدوء : (نعم هذه الحيوانات وحشية ومخيفة كما تقول، ولكن هنالك بين البشر من هم أكثر وحشية وأشد شراسة وفتكا منها!) وتطرق الحديث بنا بعد ذلك إلى التكلم عن أنواع بنادق الصيد المختلفة. ثم دعاني بعد أن فرغنا من هذا الحديث إلى مشاهدة مجموعة البنادق والأسلحة التي كان يحتفظ بها في إحدى الغرف الخلفية للمنزل. واسترمي نظري في هذه الغرفة التي أدخلني فيها شيء غريب معلق على الحائط، وكان هذا الشيء موضوعًا داخل جراب من القطيفة السميكة الحمراء. فلما اقتربت من هذا الشيء لأتبينه عن قرب وجدته يدًا بشرية كبيرة الحجم! وكانت هذه اليد المقطوعة جافة سوداء ذات أظافر طويلة مصفرة اللون، وعليها آثار دماء متجمدة سوداء قديمة العهد. وكان يلوح لي على هذه اليد أنها قطعت بمهارة فائقة عند اتصال أعلى الذراع بالكتف بآلة صلبة حادة.

ومما استرعى انتباهي أكثر من أي شيء آخر أنني رأيت جون معصم هذه اليد سلسلة حديدية متينة مشدودة إلى حلقة مثبتة في الحائط بدقة عجيبة، بحيث لا يقوى على انتزاعها من مكانها أقوى الرجال عضلا وأشدهم بأسًا!.

فلما راني السير جون رويل أحدق بدهشة وذهول في تلك اليد البشرية البشعة المنظر تلاشت الابتسامة التي كانت مرتسمة على شفتيه منذ لحظة وقال : (إن هذه اليد التي تراها معلقة على الحائط أمامك هي يد ألد عدو لي على ظهر البسيطة، وهو رجل زنجي من أهالي أمريكا الجنوبية، وقد قطعت يده هذه بفأس كبيرة حادة النصل بعد أن قتلته شر قتلة، ثم نزعت عنها جلدها الخارجي وجففتها في الشمس مدة أسبوع كامل واحتفظت بها بعد ذلك داخل هذا الجراب الذي تراها موضوعة فيه) وكانت أصابع هذه اليد اللعينة طويلة ملتصقا بعضها ببعض بقطعة كبيرة من القماش المتين. وقلت للسير جون رويل وأنا أشيح بوجهي عن هذه اليد التي كان يدل قطعها على منتهى الوحشية والقسوة : (أظن أن عدوك كان قويًا كبير الجسم؟) فأجاب الإنجليزي ببرود وجمود : (نعم لقد كان ضخمًا قويًا في الواقع، ولكنني كنت في ذلك الوقت أقوى وأشد بأسًا منه، وقد ربطت يده في تلك السلسلة الحديدية المتينة حتى لا تحاول الإفلات منها!) وظننت حينئذ أنه قال العبارة الأخيرة على سبيل الدعابة والتفكه فقلت : (و لكن هذه اليد لا يمكنها الإفلات بطبيعة الحال، ولا سيما بعد أن فصلت عن جسم صاحبها الذي قتلته شر قتلة كما قلت؟) فأجاب السير جون رويل وهو عابس الوجه، مقطب الجبين : (لقد أخطأت القول يا صاحبي، فقد حاولت هذه اليد الإفلات فعلًا عدة مرات، ولهذا لم أجد بدًا من ربطها في هذه السلسلة القوية!) فنظرت إليه نظرة غريبة متشككة وظننت أن به مسًا من الجنون، ولكن جمود وجهه وصرامة هيئته

كانا يدلان على أنه جاد في قوله، صـــادق في زعمه. ولما ســـألته عن ســبب قتله لهذا الرجل انقلب سـحنته واكفهر وجهه ثم هز رأســه متأســفًا وقال : (هذا يا صــاحبي ســري الخاص الذي أحتفظ به لنفســي ولا يمكنني أن أبوح بـه لأي مخلوق...) وتبين لي وقتئـذ أن السير جون رويل كان لا يزال يعيش في رعب دائم، وهلع مستمر من هذه اليد البشرية المقطوعة الكئيبة المنظر.

وبعد أن فرغت من التفرج على معروضـات الغرفة اسـتأذنت منه في الانصـراف فأذن لي بعد أن أخذ مني وعدًا بزيارته كلما سـمح لي وقتي بذلك. وقد بررت بوعدي إياه فترددت على منزله عدة مرات ثم انقطعت فجأة عن زيارته لأسباب هامة شغلتني عنه. ولاحظت في هذا الوقت أن الأراجيف التي كان يروجها الناس عن الســير جون رويل بدأت تخف حدتها، وتقل وطأتها شــيئًا فشــيئًا حتى تلاشــت نهائيًا في آخر الأمر. وفي صــباح ذات يوم أيقظني خادمي وأخبرني أن الســير جون رويل وجد مقتولا في منزله حوالي الســاعة الســابعة صــباحًا؛ وهي الســاعة التي اعتاد خادمه الفرنســي أن يوقظه من نومه. ولم تمض نصف ساعة على أثر سماعي هذا النبأ السيئ حتى كنت في منزل القتيل ومعي اثنان من مفتشــي البوليس. وهنالك وجدت خادم الســير جون رويل واقفًا على باب المنزل في انتظاري. وكان يبكي بحرقة وحرارة على وجهه آثار الحزن العميق والألم الدفين. وجال بفكري أولًا أنه مرتكب هذه الجريمة دون غيره. ولكني لم ألبث أن نفيت عني هذا الخاطر بعد أن اتضح لي فيما بعد براءته مما نسب إليه. ولما فحصت جثة السير جون رويل التي كانت ملقاة

على ظهرها وسط غرفة نومه وجدت سترته ممزقة شر ممزق، وكان أحد أكمامها منزوعًا من مكانه بشدة، فاستنتجت من ذلك أنه قد حدثت مشادة عنيفة بينه وبين القاتل. واتضح لي أيضًا بعد أن كشف على جثته أنه مات مخنوقًا لأن لون بشرته كان يميل إلى الزرقة الداكنة الضاربة إلى السواد. وكان يلوح على وجهه الجامد الصارم التقاطع آثار رعب هائل وفزع شديد. وقد لاحظت أن أسنانه كانت مطبقة بشدة على شيء غريب لم أتبينه في بادئ الأمر. وكان في أسفل عنقه خمس ثقوب صغيرة بارزة بحجم أصابع اليد.

وطبيعي أن هذه الثقوب قد نشأت من غرز أصابع يد قوية شديدة الصلابة. ولما وصل الطبيب الشرعي الذي قدم على أثرنا مباشرة، وفحص بصمات الأصابع الموجودة على عنق القتيل التفت نحوي وقال : (لقد نشأت هذه الثقوب التي تراها واضحة في أسفل العنق من تأثير ضغط يد بشرية قوية وهي في الغالب يد هيكل بشري أكثر منها يد إنسان حي!) فسرت في جسدي رعدة قوية عندما سمعت منه ذلك، وانتقل تفكيري بسرعة إلى تلك اليد المشئومة التي رأيتها في الغرفة الخلفية لمنزل السير جون رويل.

ولم تمض على ذلك برهة حتى كنت داخل هذه الغرفة، فلم أجد هذه اليد في مكانها من الحائطّ فدهشت لذلك دهشة عظيمة وتحيرت في تفسير هذا الأمر الغريب الذي لم يسبق أن صادفت مثله في حياتي الحافلة بالمهالك والمجازفات! ومما زاد في دهشتي وحيرتي أنني وجدت السلسلة التي كانت هذه اليد مشدودة إليها، مفككة الأجزاء، مقطعة الأوصال، وملقاة على الأرض بلا عناية!...

ولما عدت أدراجي إلى الغرفة الموجودة بها جثة السير جون رويل، انحنيت فوق جسمه الممدود على الأرض ثم فتحت فمه بأقصى قوتي وانتزعت الشيء الغريب الذي كان مطبقًا عليه بين أسنانه فوجدته لعظم دهشتي أحد أصابع اليد المقطوعة المختفية! ولم يؤد البحث الذي قمت به في ذلك الوقت في سبيل العثور على تلك اليد إلى نتيجة، ذهبت جهودي ومتاعبي أدراج الرياح! وعلمت من خادم القتيل عند استجوابي له، أن جميع أبواب ونوافذ المنزل كانت محكمة الإغلاق في الليلة التي ارتكبت فيها هذه الجريمة، ولم يسمع الخادم نباح الكلاب التي كان يطلقها السير جون رويل في حديقة المنزل كل ليلة مما يدل على أن أحدًا غريبًا لم يدخل المنزل من الخارج! كما أنه صرح لي ضمن أقواله التي أدلى بها إلى أن سيده كان يبدو قلقًا مشتت الفكر في الشهر السابق لوفاته، وأنه تسلم في أخريات أيامه رسائل كثيرة كان لا يلبث أن يلقي بها طعمة للنيران بمجرد قراءته لها! وقال أيضًا إنه كثيرًا ما رآه ممسكًا في يده بهراوة ثقيلة؛ وقد تجلى في عينيه الرهيبتين بريق الشراسة والغضب، ثم يهوي بها بشدة وعنف على تلك اليد المقطوعة التي كانت معلقة على الحائط، والتي اختفت من مكانها فجأة في ليلة مصرعه! وزاد الخادم على ما تقدم فقال : (لقد آوي سيده إلى فراشه متأخرًا في تلك الليلة المشئومة على غير عادته، وأوصد عليه باب غرفته من الداخل. وقد اعتاد أن يضع مسدسه الكبير وسادته بعد أن يحشوه بالرصاص، ولكنه نسي ما أن يضعه في تلك الليلة في مكانه المعهود..).

وسكت الخادم هنيهة ليسترد أنفاسه اللاهثة ثم تابع حديثه لي فقال : (و كثيرًا ما كنت أسمعه يخاطب نفسه أثناء نومه بصوت عال مسموع كما لو كأن يشاجر إنسانًا موجودًا معه بالغرفة! ولكن لم أسمع له صوتًا في تلك الليل التي قتل فيها، ولم أكتشف مصرعه إلا عند دخولي غرفته في الصباح بعد أن دفعت الباب بكل قوتي حين لم أسمع من الداخل ردًا على نداءاتي المتكررة. ولا يمكنني أن أتهم أحدًا، أو أشتبه في أحد، لأنني لا أعرف له أعداء على الإطلاق، فضلًا عن أنه كان قليل الاختلاط بالناس).

ولما فرغ الخادم من الإدلاء بأقواله غادرت منزل القتيل ثم ذهبت إلى حاكم المدينة وأطلعته على كل التفاصيل التي عرفتها عن هذه القضية الغامضة. وعلى الرغم من التحريات الدقيقة التي قام بها مفتشو البوليس في المدينة - وأنا معهم - فانهم لم يتمكنوا من الوصول إلى معرفة القاتل الذي لم يترك وراءه أثرًا على الإطلاق ولم يعثروا طوال مدة بحثهم أي أثر - ولو بسيطا - يستدل به عليه! ومن غريب ما حدث بعد ذلك أن أحد رجال الشرطة السريين أحضر إلي في الشهر التالي لوقوع هذه الجريمة تلك اليد المقطوعة التي اختفت في ليلة مصرع السير جون رويل، وأخبرني أنه عثر عليها بطريقة المصادفة على مقربة من قبر القتيل نفسه؟ فلما اختبرت هذه اليد وفحصتها بعناية ودقة بالغتين، وجدت أحد أصابعها ناقصًا! فتذكرت على الفور ذلك الإصبع الذي كان السير جون رويل مطبقًا بين أسنانه. وبمطابقة هذا الإصبع الذي احتفظت به معي بعد وقوع الجريمة بباقي أصابع اليد، وجدته بطابقها تمام المطابقة!.

وبعد أن سكت المسيو برميتر سكتة قصيرة حول وجهه نحو مستمعيه ليرى تأثير قصته في نفوسهم ثم استطرد في حديثه فقال :

- هذه هي تفاصيل القضية الغريبة، وهي مع الأسف الشديد كل ما أعرفه عنها حتى يومنا هذا.

وهنا سألته إحدى السيدات وهي تجفف بمنديلها قطرات العرق الذي أخذ يتجمع فوق جبينها فقالت :

- ولكن حل هذه الجريمة لم يزل غامضًا لنا يا سيدي إلى الآن؟ فابتسم المسيو برمثير ابتسامة مغتصبة وأجابها بقوله :

- إن الذي أمكنني أن استنتجه من خلال الحوادث والملابسات التي مرت بهذه القضية الغامضة، وهو أن صاحب هذه اليد المقطوعة لم يمت كما توهم السير جون رويل. والظاهر أنه تتبعه في كل رحلة من رحلاته، واقتفي أثره في كل مكان ذهب إليه، حتى استقر به المقام مدينة أجاكسيو. وهنالك أمكنه أن يقتله في منزله بيده الأخرى الصحيحة شر قتلة بعد أن نشبت بينهما تلك المعركة العنيفة التي أدت إلى مصرع السير جون رويل في النهاية. ويلوح لي أن المجرم انتزع اليد المقطوعة من مكانها بعد أن فرغ من ارتكاب جريمته، وغرز أصابعه في عنق القتيل تشفيًا وانتقامًا منه ثم أخذها معه وفر هاربًا. فلما دفن السير جون رويل ذهب هذا المجرم الجريء إلى مقبرته ووضع هذه اليد بجوارها، ليوهم الناس أنها هي التي قتلته من ناحية، وليضلل رجال البوليس من ناحية أخرى! فإذا كان استنتاجي هذا صحيحًا فلا شك أن القاتل قد نجح في تحقيق فكرته الشيطانية كل النجاح، ووفق في الانتقام من السير

جون رويل كل التوفيق. وأما الطريقة التي دخل بها المجرم إلى منزل عدوه ثم خرج منه على الرغم من أن النوافذ والأبواب كانت موصدة كما ذكر الخادم في روايته، فهذا ما لم أجد له حلا ولم أتوصـــل إلى معرفته للآن!.

في الريف...

هناك في منحدر التل الواقع بقرب مجرى النهر، وفي كوخين حقيرين متجاورين، كان يقطن فلاحان يشتغلان بكد وعناء ليخرجا من الأرض المجدبة ما يقوم بأودهما وأود عيلتيهما الفقيرتين...

وكان يقيم في كل كوخ منهما أربعة أولاد تتراوح أعارهما بين الست سنوات والخمسة عشر سنة، وكثيرًا ما كان هؤلاء الأولاد الثمانية يتجمعون بمقربة من الكوخين ويظلون في لهو دائم ومرح مستمر من الصباح إلى الغروب.

وكان كلا الفلاحين متزوجان، وكلاهما ينجب الأولاد بنسبة واحدة وفي وقت واحد تقريبًا! وكانت كل أم من الأسرتين تميز أولادها بصعوبة من بين أولاد الأم الأخرى، ولا سيما حينما كانوا يلعبون جميعًا أمامهما!.

وكان الأبوان يخلطان في كثير من الأحيان بين أولادهما وبين أولاد الأب الآخر! وكم كان فكها إذا أراد أحدهما أن يدعوا ولدًا من أولاده أن يردد على الأقل اسم ولدين أو ثلاثة قبل أن تنطق شفتاه باسم الولد الذي يريده!.

وكانت عيلة توفاسن تسكن في الكوخ الأول ولها ثلاثة أولاد وبنت، في حين أن عيلة فالنس التي كانت تقطن في الكوخ الآخر لها ثلاثة بنات وولد.

ففي ظهر يوم من أيام شهر أغسطس الحارة، وقفت مركبة صغيرة أنيقة أمام هذين الكوخين، وقالت السيدة الصغيرة التي كانت تقود المركبة لزوجها الشاب الجالس بجوارها حينما وقع بصرها على الأولاد الثمانية الذين كانوا يلعبون وقتئذ أمام الكوخين :

- أنظر يا هنري إلى هؤلاء الأطفال السعداء.

ثم أشارت بيدها إلى طفل منهم كان يتمرغ مع آخر على الأرض وقالت :

- ما أظرف هذا وهو يتقلب على الأرض بفرح وسرور ويمرغ نفسه في التراب مع زميله الآخر!!.

فلم يجب زوجها على ملاحظتها بشيء على حين استطردت السيدة قائلة :

- كم أود أن أقبل هؤلاء الأطفال جميعًا!!

ثم تنهدت تنهدة عميقة حارة صادرة من قلب يائس مكلوم وتابعت حديثها إليه فقالت :

- كم اشتهي يا هنري أن يكون لدينا ولد من هؤلاء الأولاد ولا سيما هذا الولد الواقف هناك بمفرده، وأظنه أصغرهم سنًا.

قالت ذلك ثم قفزت من المركبة بخفة ونشاط وهرعت نحو الأطفال وأمسكت بالولد الذي أشارت إليه ورفعته بين ذراعيها وأخذت تقبل خديه القذرين وشعره المجعد المعفر بالتراب، ويديه الصغيرتين اللتين كان يحاول أن يخلص نفسه بهما من بين يديها

اللتين كانتا تمسكان به بحنان بالغ ورفق عظيم، ثم تركته وعادت إلى المركبة منصرفة إلى حال سبيلها.

وفي الأسبوع التالي عادت هذه السيدة مرة أخرى وجلست تشاطر الأطفال ألعابهم كما لو كانت واحدة منهم! وقد أحضرت لهم معها في المركبة في هذه المرة كمية كبيرة من الكعك والفطائر والحلوى، وأخذت تقدمها إليهم وتوزعها عليهم بنفسها، بينما كان زوجها، واسمه هنري دوبرييه، ينتظرها في المركبة على مضض، وينظر إلى ما يجري حوله بشيء من الدهشة والغرابة.

وصارت تلك السيدة الرحيمة الطيبة القلب تتردد على الكوخين من وقت لأخر، وكانت تحشو حقيبتها وجيوبها في كل مرة بالحلوى التي كان يتقبلها الأطفال منها بكل لذة وسرور.

وبمرور الأيام تعرفت مدام دوبرييه إلى كل من العائلتين المتجاورتين، وعرضت عليهما صداقتها التي كانت لها أحسن وقع وأجمل أثر في نفوسهما الحزينة البائسة.

وفي صباح يوم نزل المسيو هنري دوبرييه من المركبة واصطحب زوجته معه ثم دخلا كوخ ال توفاسن دون أن يخاطبا في هذه المرة أحدًا من الأطفال الذين كانوا قد تعلقوا بهما وأحبوهما حبًا جمًا.

وكان توفاسن وزوجته موجودين في الكوخ في ذلك الوقت فدهشا لدخول مدام دوبرييه وزوجها الفجائي، وقدما أليهما مقعدين نظيفين، وانتظرا بفارغ صبر ما ستقوله لهما هذه السيدة التي بدأت حديثها وقتئذ بصوت خافت ولهجة مترددة :

- لقد أتينا لزيارتكما اليوم، لأننا نريد أن نتبنى ولدكما الأصغر شارلوت. فذهل توفاسن وزوجته لقولها وعقدت الدهشة لسانيهما فلم ينبسا ببنت شفة. ولكن مدام دوبرييه لم تكترث لدهشتهما البالغة وتابعت حديثها فقالت :

- ليس لدينا أطفال ولهذا نود أن نتبنى ابنكما، فهل تقبلان ذلك؟

وهنا بدأت مدام توفاسن تفهم ما تعنيه مدام دوبرييه بهذا الكلام فقالت لها بلهجة لا تخلو من الاستنكار :

- هل معنى ذلك أنكما تريدان أن تأخذا ولدنا شارلوت منا؟

فتدخل المسيو هنري دوبرييه عند ذلك في الحديث وقال :

- إن زوجتي لم تبين لكما غرضنا تمامًا، فكل ما في الأمر أننا نرغب في أن نتبنى طفلكما الصغير، وليس معنا ذلك أننا سنحول بينه وبين زيارتكما، بل أننا سنترك له مطلق الحرية في التردد عليكما في أي وقت، وإذا سلك معنا مسلك حسنًا - وهو ما ننتظره منه في المستقبل - فسنجعله وريثنًا الوحيد، وحتى إذا أنجبنا أطفالًا في المستقبل فسنشركه مع أبنائنا في الميراث. وإذا لم تثمر فيه تربيتنا وتعليمنا، فأننا لن ندعه وشأنه كما يفعل بعض الناس، بل سنعطيه حينما يبلغ أشده عشرين ألفًا من الفرنكات وسنودع هذه المبالغ باسمه في أحد المصارف الكبيرة على أن يسحبه إذا بلغ سن الرشد ضمانًا لحسن تصرفه فيه، وزيادة على ما تقدم فإننا سنمدكما بمنحه شهريه قدرها مائة من الفرنكات مدى الحياة.

ولكن أبت عقيلة مدام توفاسن البسيطة الساذجة إلا أن تفهم هذا القول على غير حقيقته، وتؤوله تأويلا آخر، واستبد بها الحنق والغضب عندئذ فقالت :

- أتريدان منا أن نبيعكما ولدنا شارلوت في نظير جاهكما العريض، وثروتكما الطائلة؟ هذا محال... محال!!.

وكان يبدوا على محيا توفاسن - زوجها - علامات التردد والتفكير العميق دون أن ينبس طول هذه المدة ببنت شفة، ولكن كان يلوح عليه أنه موافق على اعتراض زوجته بدليل أنه كان يهز رأسه من وقت إلى آخر موافقة منه وتأييدًا لقولها!!.

وبدأ اليأس يتطرق حينئذ إلى نفس مدام دوبرييه فحولت وجهها شطر زوجها وقالت له بصوت مكتئب حزين :

- هنري! إنهما يمانعان في أن نأخذ ولدهما شارلوت معنا!

وحاول المسيو هنري دوبرييه أن يقنع الزوجين العنيدين لآخر مرة فقال : فكرا جيدًا في مستقبل ولدكما وهنائه قبل أن ترفضا هذا الطلب نهائيًا...

فهزت مدام توفاسن كتفيها بسخرية واستخفاف وقاطعته بقولها : لقد فكرنا يا سيدي في كل هذا من قبل، والآن أرجو منكما أن تكفا عن الكلام في هذا الموضوع ولا تحاولا إثارته مرة أخرى. وبينما المسيو هنري دوبرييه وزوجته يهمان بالخروج إذ فتح باب الكوخ في تلك اللحظة ودخل منه ولد صغير يشبه شارلوت إلى حد كبير حتى أن من يراهما لأول وهلة يظن أنهما توأمان! فلما وقع بصر مدام دوبرييه عليه سألت زوجة توفاسن قائلة : هل هذا الولد

الصغير ابنكما أيضًا؟؟ فأجاب توفاسن باقتضاب وهو يحك بيده لحيته البيضاء الكثيفة الشعر : كلا أنه جان فالنس، ابن جارنا الآخر الذي يقطن في الكوخ المجاور، ويمكنكما أن تحاولا أخذه منه إذا استطعتما ذلك!!.

فرد عليه المسيو هنري دوبرييه بحزم وإصرار وقال : سنحاول ذلك بكل تأكيد! فأبتسم توفاسن ابتسامة عريضة ما كرة وقال له وهو يهم بالوقوف لتوديعه : إذن أرجو لكما النجاح والتوفيق في مهمتكما!! ولما دخلت مدام دوبرييه وزوجها الكوخ المجاور، وعرضا على فالنس وزوجته اقتراحهما السابق، رفض الزوجان هذا الاقتراح في بادئ الأمر، ولكن مدام دوبرييه وزوجها مازالا بهما حتى أقنعاهما بوجاهة فكرتهما، وصواب رأيهما، ولا سيما حينما ذكرا لهما المبلغ الذي سيمنحانه في كل شهر!! وبعد فترة قصيرة وجهت مدام فالنس حديثها لزوجها فقالت ما رأيك في هذا العرض السخي يا زوجي العزيز؟ فأجابها زوجها وهو يفتل بيده الخشنة شاربيه الكثيفين : إنني لا أمانع في ذلك يا عزيزتي، وليس عندي أي اعتراض مطلقًا. وتكلمت مدام دوبرييه حينئذ عن مستقبل الطفل، وسعادته، وعن النقود الكثيرة التي سوف يمد بها عائلته في المستقبل. فلما أتمت كلامها سألها فالنس وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة الرضا والارتياح، وشاعت الغبطة والسرور في قسمات وجهه الكثير التجاعيد : وهل سنأخذ المائة فرنك على يد أحد المحامين؟ فأجابه المسيو هنري دوبرييه وهو يهز رأسه موافقًا : بلا شك... بلا شك!!.

وأرادت مدام فالنس أن تنتهز الفرصة فتزيد هذا المبلغ قليلًا فقالت لمدام دوبرييه وهي تنظر من طرف خفي إلى زوجها نظرة ماكرة ذات معنى :

- أظن أن المائة فرنك ليست بالمبلغ الكافي في نظير انتزاع ولدنا منا لأنه سيصبح بعد بضع سنوات قادرًا على العمل والكسب، ولذا يستحسن أن يكون هذا المبلغ مائة وعشرين فرنكا في الشهر!! فوافقت مدام دوبرييه على ذلك بعد قليل من التردد دون أن يخفى عليها جشع مدام فالنس وشدة طمعها!!.

ولكي تثبت للزوجين الفقيرين مدى غناها وجودها، فقد أخرجت من حقيبة يدها مائة وعشرين فرنكا وأعطتها لمدام فالنس التي تناولتها منها بمزيد من الغبطة والسرور، في حين جلس زوجها هنري يكتب شروط الاتفاق بتؤدة وإمعان، فلما انتهى منه استدعى عمدة القرية واحد الشهود فوقعا معه على العقد الذي أصبح قانونيًا من كل الوجوه...

وخرجت مدام دوبرييه من الكوخ فرحة مسرورة لنجاح مسعاها، وتوفيقها في مهمتها، في حين كان الطفل الذي حملته بين ذراعيها يبكي بحرقة وحرارة لفراق والديه وتخليهما عنه، ويحاول أن يخلص نفسه من بين ذراعيها ولكن بلا فائدة...

وشاهد توماس وزوجته رحيل الطفل جان بوجهين كالحين. والظاهر أنهما قد لاما نفسيهما على رفضهما التنازل عن ولدهما شارلوت، وندما - بعد فوات الوقت - على ضياع هذا الكنز الثمين منهما!!.

ولم يسمع أحد من أهل القرية شيئًا عن جان فالنس لمدة طويلة من الزمن. وكان أبواه يذهبان في أول كل شهر إلى مكتب المحامي فيتسلمان منه المائة والعشرين فرنكا ثم يعودان إلى كوخهما آمنين مطمئنين...

وساءت العلاقات حينئذ بين عائلة فالنس وبين عائلة توفاسن التي كانت تعيرها وتحط من شأنها أمام أفراد القرية لأنها فرطت في ولدها جان وباعته لمدام دوبريه وزوجها بيع السلع! وكانت مدام توفاسن تمسك بولدها شارلوت من وقت لآخر وترفعه بين ذراعيها ثم تخاطبه بقولها :

- إنني لم أبعك ولن أبيعك يا ولدي العزيز بالرغم من أنني لست غنية كما تعلم ويعلم جميع الناس...

وكانت لا تفتأ تردد هذه العبارات التهكمية وأمثالها في كل يوم بلهجة ساخرة وبصوت عال مسموع كان يصل في كثير من الأحيان إلى مسامع فالنس وزوجته! وبلغ الغرور بمدام توفاسن إلى حد إنها كانت تزعم نفسها أعظم شأنًا من أهل قريتها جميعًا، وأرفع منزلة منهم وأعلاهم مقامًا، لا لشيء إلا لأنها لم تبع ولدها شارلوت! ولم يغب هذا الغرور عن أهل القرية أنفسهم ولم يفتهم أن يلاحظوا عليها ما كانت تدعيه من العظمة المصطنعة والخيلاء الكاذب، ولكنهم كانوا مع ذلك لا يفتئون يرددون أمامها أنها سلكت مسلك الأمهات الطيبات القلب!! ولما بلغ شارلوت الثامنة عشرة من عمره كان يتباهى على أقرانه، ويعتقد - كوالديه - أنه أعلى منهم مرتبة وأسمى مكانه لأن أمه المحبة لم تبعه كما باعت مدام فالنس ولدها

جان!! وبينما كانت عائلة فالنس ترتع في بحبوحة العز والرفاهة، كانت عائلة توفاسن لا تزال على ما هي عليه من الفقر المدقع والفاقة البالغة! وكان يسار أسرة فالنس وغناها هما السر في هذا البغض، والباعث على تلك الكراهية التي كانت تبديها عائلة توفاسن نحوها في كل وقت وفي أي مناسبة!! وبعد مضي مدة انخرط الابن الأكبر لمدام توفاسن في سلك الجندية، بينما توفي ولدها الآخر إثر مرض خطير ألم به ولم يمهله إلا بضعة أيام. أما شارلوت فقد ظل في القرية ليساعد والده الذي كان قد بلغ من الكبر عتيًا، وليعين أمه العجوز وأخته الوحيدة على العيش ومكافحة صعاب الحياة. وكان شارلوت قد بلغ الحادية والعشرين من عمره حين وقفت في صباح يوم مركبة صغيرة جميلة أمام الكوخ المجاور، ونزل منها شاب قوي وسيم الطلعة، أنيق الثياب، ثم دخل الكوخ بقدمين ثابتتين، وخطوات متزنة واسعة... وكانت مدام فالنس تغسل ثيابها في ذلك الوقت، بينما كان زوجها الذي بلغ من العمر أرذله يستدفئ بنيران المدفئة. وقبل أن يفيق الولدان من دهشتهما تقدم الشاب - ولم يكن إلا ابنهما جان فالنس نفسه - نحوهما وقال لهما وهو يمد كلتا يديه لمصافحتهما : أسعدتما صباحًا يا والديّ العزيزين...

فهب الأب من مكانه دهشًا مذهولًا، وعقدت المفاجأة السارة لسانه عن النطق، بينما ألقت الأم بقطعة الصابون في الوعاء الذي كانت تغسل فيه ثيابها لفرط اضطرابها ودهشتها وهرعت نحو ابنها الذي لم يكن قد زارها منذ أن اصطحبته مدام دوبرييه معها، وقالت له بصوت مضطرب مرتعش النبرات وهي تتأمله بزهو

وإعجاب من قمة رأســـه إلى أخمص قدميه : هل أنت حقًا ولدنا جان؟؟ فضمها الشاب إلى صدره بحنان ورفق وقال لها وهو يضحك ملء شـدقيه : نعم إنني ولدكما جان! وقد جئت اليوم لزيارتكما بعد أن أصـبحت أحد المحامين الذين يشـار إليهم بالبنان وسـأمكث في ضـيافتكما بضـعة أيام. فقال له الأب بصـوت يرتجف من فرط الانفعال وشـدة الفرح والسـرور : على الرحب والسـعة يا بني العزيز. وبعد أن اسـترد أنفاسـه اللاهثة اسـتطرد في حديثه فقال : كم أنا سـعيد بلقائك يا والدي، ولا سـيما بعد أن أصـبحت رجلًا كامل الرجولة... ولما أفاق الأب والأم من دهشـتهما صـمما على أن يقدما ولدهما جان إلى أهل القرية جميعًا. فعرفاه أولًا بعمدتهما وقسيسها وناظر مدرسـتها. ثم عرفاه أخيرًا بباقي أفراد أهل القرية الذين اسـتقبلوه بحفاوة بالغة وسـرور عظيم. وشـاهد توفاسـن كل هذا بعين دامعة تفيض بالألم والهم والعذاب، ونفس حزينة تملاها الحسرة والندم على ما فات! وقد تغيرت نظرته إلى الحياة بعد ما رأى جان فالنس في ملبسـه الأنيق وثيابه الغالية وشـبابه الحيوي الفياض، بينما هو لا يزال في فقره المدقع وأسماله الرثة البالية.

وفي المسـاء حينما اجتمع شـارلوت بوالديه حول المائدة، قال لهما بصـوت باك حزين تخنقه العبرات : أظنكما رأيتما جان فالنس في هذا الصـباح وشـاهدتما ما هو عليه الآن من وسـامة الشـكل وفخامة الثياب؟ فأجابته أمه باكتئاب دون أن يفوتها تغير ابنها الفجائي غير المنتظر : نعم يا بني! لقد شـاهدنا كل ذلك! ولكننا لم نشـأ أن نبيعك إلى مدام دوبرييه وزوجها كما فعلت مدام فالنس

وزوجها بابنهما جان! لأننا رأينا أن في ذلك عارًا عليك وإثمًا في حقك كما هو عار علينا وإثم في حقنا أيضًا... ولم يفه والده أثناء ذلك بكلمة واحدة، بينما استمر الابن في حديثه الساخط المؤلم فقال :

- إنها لغباوة منكما حقًا أن تدعا جان فالنس يذهب مع مدام دوبرييه وزوجها بدلا مني! وإنه لمن سوء حظي أيضًا أنكما لم تضحيا بي بسبب حنانكما وغروركما وأنانيتكما... وهنا تدخل الأب في الحديث فقال موجهًا كلامه لأبنه : هل تلومنا الآن يا ولدي لأننا لم نشأ أن نفرط فيك كما فرطت مدام فالنس وزوجها في ولدهما جان؟ ولكن شارلوت لم يأبه لدفاع والديه بل هز كتفيه ساخرًا واستمر في ثورته فقال : نعم إنني ألومكما لأنكما فوتما علي هذه الفرصة التي قلّ أن يجود الدهر بمثلها. وإن الآباء والأمهات أمثالكما كثيرًا ما يجنون على أولادهم بجهلهم، ويحطمون مستقبلهم بمثل هذا الحنان الضار، والحب المرذول، والأنانية الممقوتة. فقالت له أمه وقد حز في نفسها حديث ولدها المؤلم وثورته الصاخبة : هل هذا جزاء حبنا لك واحتفاظنا بك؟ فأجاب شارلوت وهو يكاد يبكي من شدة الحنق والغيظ وقد اعتمد ذقنه براحة يده : كم أتمنى الآن لو لم اكن قد ولدت حتى لا أظل في هذه الحالة المؤلمة التي أنا عليها الآن. وبعد لحظة سكوت قصيرة تابع حديثه إليهما فقال بلهجة أشد وأعنف من الأولى : إنني عندما رأيت جان فالنس في صباح هذا اليوم وهو ينزل من مركبته الأنيقة الفاخرة جرت دماء الحقد والغضب حارة في عروقي وقلت مخاطبا نفسي : (لو قبلت عائلتي ما عرضته عليها مدام دوبرييه وزوجها من قبل، لكنت الآن في مركزه وظل هو

في مركزي). قال ذلك ثم نهض من مقعده فجأة وقال لهما وشـــرر الغضـــب يتطاير من عينيه الدامعتين، والحنق الكامن في أعماق نفســـه الثائرة يلوح على أســـارير وجهه الحزين المكتئب : إنني لن اغتفر لكما هذه الغلطة ما حييت، وقد استقر رأيي الآن على مغادرة هذه القرية إلى الأبد، والنزوح إلى قرية بعيدة نائية لا يعرفني فيها أحد ولا أعرف بها أحدًا، لأكسب فيها عيشي بعيدًا عنكما وعن أهل هذه القرية جميعًا. قال ذلك ثم فتح باب الكوخ بســـرعة وهرع إلى الخارج بعد أن صفق الباب وراءه بشدة وعنف حتى لا يتمكن والداه من اللحاق به وإثنائه عن عزمه، ثم سار في الطريق مسرعًا على غير هدى واختفى في ظلام الليل الحالك السواد.

مجنون!...

مات الرجل الفذ الذي اهتزت له مجالس القضاء الفرنسية قاطبة، وانحنت لموته رؤوس الحقوقيين وأعضاء مجالس الشورى انحناء احترام وخضوع لوجه الهزيل الذي كانت تضيئه نظراته الحادة.

كان عدو اللصوص والقتلة لأنه الوحيد الذي يقرا أفكارهم الرهيبة ويكتشف أسرار الجرائم التي ارتكبوها، فبنظرة واحدة إلى إحداهم يعرف أسراره المدفونة.

مات الرجل في الثانية والثمانين من العمر، فشيعت نعشه حسرات شعب كامل؛ وسار وراءه جنود الحكومة لابسين البناطيل الحمر؛ يتقدمهم أعاظم رجالات فرنسا ويندبه أصحاب الربطات البيضاء بدموع صادقة.

وقد وجدوا بعد موته في غرفته الخاصة التي تحوي أوراق كبار المجرمين مذكرات بعنوان (لماذا).

٢٠ حزيران سنة ١٨٥١ :

انتهت جلسة اليوم بعد حكمي على بلوندل بالإعدام.

لم قتل هذا الرجل أولاده الخمسة؟ ولم تظهر علائم اللذة على هؤلاء إذا قضوا على غيرهم؟.

نعم! نعم! يجب أن يكون القتل لذة، ولعلها تكون اعظم اللذات جميعها! أليس للموت شبه عظيم بالحياة؟.

الحياة والموت!!

كلمتان تتألف منهما قصة المجتمع، نعم المجتمع كله؛ أي كل ما هو كامل؟ إذا لماذا يولع الإنسان بالقتل؟.

٢٥ حزيران :

فكر في مخلوق حي، يسير وينظر ويضحك... مخلوق؟!

ما هو المخلوق؟

هو كائن يحيا بحركة نظامية، وبفكر ثاقب يدير تلك الحركة الكامنة فيه، ولا يشغل هذا الكائن فراغا لان رجليه اللتين يسير بهما لا تتعديان وجه الأرض. إذن فهو حبة حياة متحركة لا ادري مم تكونت! تبدو بسيطة كأحقر الأشياء وأتفهها كان لا قيمة لها مطلقًا.

٢٦ حزيران :

لم يعد القتل جريمة؟ نعم لماذا؟

فقانون الطبيعة لا يعاقب القاتل، والقتل كما أرى فريضة على كل كائن : فانه يقتل طلبا لعيش رغيد؛ يقتل لأنه عرف لذة القتل؛ فالحيوان يقتل في كل لحظة من وجوده - والرجل لا ينقطع عن القتل، بل يقتل ليتغذى، ويرى في القتل ضرورة، لذلك رأى في الصيد لذة - وقد لا يشعر الطفل بالنشوة إلا إذا خنق صغار الحشرات وصغار العصافير التي تصل إليها يده؛ وكل هذا لا يطفئ شهوة القتل الملتهبة فيه.

لم يكفه الحيوان فعدا على رفيقه الإنسان. وقديما كانت القرابين البشرية تقدم للآلهة، فاستعيض عنها حديثًا بالجرائم التي جعلت القتل جريمة يكافحها القانون بالإعدام أو بالسجن!.

والحقيقة أننا لا بد أن نؤدي واجبنا نحو هذه الغريزة الطبيعية التي ينتج عنها الموت الوشيك. وكثيرا ما تخفف غلواؤنا عندما نرى أمم الأرض تتطاحن، ونسمع بشعوب تذبح أخرى، وتكون هناك مجازر دموية تهيم بها الجيوش؛ فترى أهالي المدن الثملين بخمرة النصر مع نسائهم وأولادهم يطالعون بانتباه على ضوء المصباح أخبار مجازرهم الفظيعة.

هل فكر أحد بان شعوب الأرض تكره تلك المذابح التي نسميها الحروب. أبدًا! إذا فلم نثني عليهم بشتى أنواع الثناء، ونلبسهم الجوخ الثمين محلى بالذهب الوهاج، ونقلدهم أوسمة يحلون بها صدورهم، ثم نغدق عليهم ألقابا عظيمة فستصبح (مودة) النساء لهم مسخرة مع إرادة الشعوب عامة، أليس ذلك لأنهم مسخرون لقتل الإنسان؟ إذن فالقتل نظام أودعته الطبيعة صدر الإنسان ليصيب السعادة الدائمة والشرف الرفيع!.

القتل هو القانون، والطبيعة تحب الشباب الخالد، فتحث أبناء الحياة على ترك الحياة، وكلما أهلكت رطلا أحيت آخر مثله.

٢تموز :

الكائن؟! ما هو الكائن؟

هو كل شيء، وهو لا شيء؛ فهو انعكاس الكون. وتصغير العالم، هو تاريخ، وشكله مرآة لأعماله، فكل مخلوق محيط في هذا العالم!.

ارحل وابحث عن الأجيال ترى الكائن لا شيء. اصعد في زورق وابعد عن الشاطئ المزدحم بالمخلوقات فلا ترى شيئًا بعد برهة،

ومن هنا نستدل على حقارة الإنسان. اقطع أوربا بالقطار السريع وتطلع من بابه الصغير ترى رجالا لا يحصون مجهولين، يحرثون الحقول... ويتراكضون في الشوارع، وفلاحين بلهاء لا يعرفون سوى فلح الأرض مع نسائهم السمجات اللاتي لا يتقنّ سوى طبخ الحساء لرجالهن وأولادهن.

اذهب إلى الهند، إلى الصين، تجد الحال هي الحال : أناس يولدون ويشقون ثم يموتون دون أن يتركوا أثر نملة.

زر بلاد الزنوج الآوين إلى بيوت من الطوب؛ زر بلاد العرب البيض القابعين تحت خيامهم القاتمة المتموجة مع الرياح تر حقيقة المخلوق المنعزل الذي نعتناه بلا شيء.

والعقلاء من البدو والحضر ينظرون إلى الموت نظرهم إلى المر الذي لا بد منه، فلا يكترثون له. والجريمة كذلك في نظر البدو الذين نشأوا وتأصلت في نفوسهم منذ نشأتهم فكرة الأخذ بالثأر كأنها شيء طبيعي. أما أهل الحضر فلا يتأثرون بهذه الجرائم وإن كانت أفكارهم لا تتعدى حدود اعتبارها أمرًا طبيعيا لازما لإطفاء شهوة القتل، والقتل تنتقل عدواه من بيت لآخر ومن مقاطعة لأخرى.

تأمل في أشخاص العالم المجهولين!

المجهولين؟

وصلنا أساس البحث!؟

قلنا إن القتل جريمة لان القانون أحصى عدد المخلوقات

وسجلها وأطلق عليها أسماء عديدة، ثم قدّسها رجال الدين فإذا هي في حمى القانون يدفع عنها عدوان القتلة السفاكين؛ والمولود الذي لا يسجل لا يعترف القانون بوجوده.

الطبيعة تحب الموت، ولا تعاقب القتلة؛ وهي نفسها تدافع عن الإنسان الذي جعله القانون سلعة في يده يفعل به ما يشاء، لأنه خول لنفسه الحق فيه، فتراه بعد مئات الألوف للحرب منتظرا أن يسقط أسمائهم من سجلاته. ولكننا نحن الضعفاء لا يمكننا تبديل أي اسم ولو من سكان الأقضية، بل الواجب علينا أيضًا احترام حياة الكائن، مع احترام سلطة الحكومة المدنية التي تملك الهياكل البلدية.

قف وادع الله يا ابن الطبيعة!

٣تموز :

في القتل غرابة ولذة مقرونتان بالسرور؛ فإذا كان المخلوق الحي العامل تحت سلطتك وتمكنت من عمل جرح صغير واحد في جسده ووقفت ترى المادة اللزجة الحمراء تسيل أمام عينيك ثم يفقد ذلك الجسم الحياة، فلا ترى بعد أذن كتلة لحم لين، بارد عديم الحركة التفكير.

١٥آب :

لقد قضيت حياتي بالمحاكم، أعدم، وأميت، بكلام رقيق يخرج من فمي، وتنفذه المقصلة في الذين أماتوا بحد السكين، أنا! أنا! ماذا يكون مصيري إذا أصبحت أحد هؤلاء القتلة!؟ من يدري؟.

١٥آب :

من يدري؟ لا أحد!

أيفكر امرؤ باني قاتل ولا سيما إذا انتقيت كائنا لا فائدة تعود علي من حذفه؟

١٧آب :

الشهوة، الشهوة، نعم، تملكتني شهوة القتل كالدودة حابية في جسمي وفي عقلي، إني متعطش إلى رؤية الدم وبجانبه الموت، حيث تسمع أذناي صوتًا فظيعا يناديني، ويذكرني بآخر صرخة تخرج من المحتضر. لعل في القتل لذة، وخصوصا إذا كانت الضحية كائنا مطلق الحرية وأسعها يملك قلبه الهادئ الرزين بنفسه.

٢٢آب :

لا يمكنني الصبر، قتلت حيوانا إطاعة لتلك النزعة الحمقاء التي تغالبني.

لخادمي (جان) عصفور في قفص ثمين ومعلق بنافذة الدار، وقد أرسلت خادمي ذات يوم لقضاء حاجة، وبعد أن ذهب أخذت العصفور الصغير في يدي فشعرت بجسمه الحار، وبنبضات قلبه المتفاوتة، ثم صعدت إلى غرفتي، وأخذت اضغط عليه شيئًا فشيئا إلى أن أحسست بدقات فؤاده السريعة. لقد كان المنظر وحشيا مع فظاعته. كدت اخنقه. ولكن لا فائدة لأني لن أرى دمه يسيل، فأخذت المقص وجعلت رقبته ثلاث قطع؛ ففغر المسكين فاه، وأراد التخلص بكل ما أوتي من قوة، ولكن أني له ذلك ويداي كالحديد تطوقان عنقه؟ لقد كان عملي يسترعي الدقة والانتباه، فكنت أعمل بتؤدة!!.

الدم!... الدم!... ما أجمله!!

أحمر قان، صـاف! لقد أردت أن أخضـب به لسـاني، وفعلا كان ذلك! أن هذه الكمية القليلة لا تبعث النشـوة، لكنها لذيذة! ضاق نطاق الوقت للتمتع بهذا المنظر؛ فقد حان حضور خادمي.

آه! لو كان بدل هذا العصفور ثور لكان أبهى وألذ.

يا له من شـقي! لأني أصبحت كالقتلة : غسلت المقص بيدي، وحملت الجثة الهامدة إلى مثوى أعددته لها في الحديقة، ودفنتها تحت شجرة (فريز).

لا يمكن لأحد معرفة هذا المكان، وسـآكل كل يوم حبة من هذه الشجرة الحمراء.

بكى خادمي عصـفوره كثيرًا بعد عودته، وظن انه طار من قفصه أيمكنه اتهامي!؟ لا... لا...!!.

٢٥ آب :

الأمر بسـيط : ذهبت للنزهة مرة في غابة (فيرن) لا أفكر في شـيء مطلقًا، وإذا ولد صـغير يأكل خبزا عليه قليل من الزبدة على قارعة الطريق. وقف ليراني مارا بجانبه، وعندما اقتربت منه حياني قائلًا :

- نهارك سعيد، يا سيدي الرئيس.

وهناك... طرأت علي فكرة (قتله) فرددت عليه :

- أنت وحدك هنا يا ولدي؟

- نعم يا سيدي الرئيس.

- ألا يصحبك أحد من أقاربك أو أصدقاؤك في هذه الغابة العظيمة المقفرة؟

- أبدًا يا سيدي الرئيس.

لقد عصفت في رأسي شهوة القتل وأثرت في نفسي كما تفعل الخمرة براس شاربها.

اقتربت منه ببط خوفا من أن يفر كما كان يخيّل ألي. ضغطت على عنقه بعنف، فنظر ألي بعينين تحاكيان البحر عمقا والسماء صفاء و. لم اشعر طول عمري بمثل هذا الإحساس الغريب الذي سيطر عليّ. لقد أمسكت يديه الصغيرتين بساعدي القويتين المفتولتين، بينما كان جسمه يتطاير في الهواء كما تتطاير ريشة الطير على سفود. ثم همت حركته ووقفت أنفاسه. وهنالك أحسست بتواثب دقات قلبي العنيفة؛ مسكين ذلك الصغير، لقد رميت جثته في حفرة وغطيتها ببعض الحشائش ثم عدت.

تناولت غدائي هادئ الأعصاب كأني لم آت شيء! لقد شعرت بخفة نفسي التي عادت فجددت شبابها الأول، وقضيت سهرة الليلة عند مدير الناحية. انهم وجدوني سريع النكتة، خفيف الروح في تلك الليلة، ولكني لم أر الدم، لذلك لم أك مطمئنا تمام الاطمئنان.

٣٠آب :

عثروا على الجثة، والسعي جار لمعرفة القاتل؛ أنا مطمئن فلم يرفع الستار عن المجرم.

أول أيلول :

أوقف قاضي التحقيق رجلين من عابري السبيل كانا يجوبان تلك الناحية، وقد أخلي سبيلهما لان الأدلة غير كافية أدانتهما.

١٢ايلول :

بكى أهل الطفل أمامي متضرعين!! ألا ما أعذب قولهم!

٦تشرين أول :

إن شـــهوة القتل تمتلكني وهي متأصـــلة في عروقي، تجري مع دمي، وهذا ما يدفعني إلى القتل كابن العشرين عندما يتيمه الحب.

٢٠تشرين أول :

جريمة أخرى :

ذهبت بعد الغداء ناحية النهر أتريض، وهناك رأيت صـــيادا نـائمـا تحـت شـــجرة حور، وكان الوقـت ظهرا. تطلعـت حولي فـإذا بمعول في أرض مجاورة مزروعة بطاطس، فأخذت المعول، ثم عدت أدراجي إلى الصياد، فرفعته بين يدي كالهراوة وضربته ضربة واحدة بحد ذلك المعول قطعت رأســـه. تدفق الدم الوردي الخداع بغزارة، وانحدر إلى ماء النهر الجاري!.

عـدت أدراجي بخطوات مريبـة، آه، لـو شـــاهـدوني لعرفوا في قاتلًا وحشيا مريعا.

٢٥تشرين أول :

أحدث مقتل الصياد ضجة عظيمة بين الآهلين وفي الدوائر؛ واتهم في ذلك ابن أخي المقتول لأنه كان يصطاد معه.

٢٦تشرين أول :

رأى قاضي التحقيق أن ابن الأخ مجرم وكل من في البلدة يعتقد ذلك، مسكين ذلك الحمل!!؟.

٢٧تشرين أول :

دافع الصبي عن نفسه دفاعا ضعيفا، لقد حلف أيمانا مغلظة بان عمه قتل أثناء غيابه، وهو في البلد يشتري خبزا وجبنا.

ولكن من يصدقه؟

١٥تشرين الثاني :

بالموت! بالموت! بالموت!

حكمت على الطفل البريء! وقد احسن المدعي العام فكان ينطق كالملاك، وذكر الأسباب التي دعت إلى إدانة الطفل، وهو انه وريث عمه الوحيد.

لقد رأست جميع جلسات محاكمته وسأذهب لأرى مصرعه.

١٨آذار سنة ١٨٥٢ :

انتهى كل شيء هذا الصباح. مات الطفل بسرور وبشجاعة مما زاد في ابتهاجي! ما أروع رأسه المتطاير، وما ألذ دمه المتدفق كالسيل! نعم كالسيل! آه لو مكنوني من الاستحمام فيه والاستلقاء عليه حيث اشعر بسريانه في شعري وعلى وجهي، وأقوم بعدها بالأحمر القاني.

ما أفظع الحقيقة لو عرفوها!

والآن أستطيع أن انتظر وان اسهر الليالي لا يثير دهشتي أحد، ولا يعكر صفوي معكر...

لم تنته المذكرات بعد. وهي تحوي عدة صـفحات أخرى بدون جريمة جديدة. واقر الأطباء الذين كلفوا بدرس المذكرات بان هذا الضــرب من المرض العقلي هو اقل أثرا لما نفكر في عصــرنا المادي الذي زاد فيه السقوط الأخلاقي والجنون العصبي.

الصعلوك...

لقد عرف في حياته أيامًا خيرًا من هذه، على رغم ما به من عاهة وبؤس. كان قد فقد ساقيه وهو في الخامسة عشرة من عمره حينما صدمته عربة في شارع فارفي الكبير. ومنذ ذلك الحين وهو يطلب الصدقة ماضيًا في الطرقات متنقلًا بين المزارع متكئا على عكازيه اللذين جعلا كتفيه يرتفعان إلى ما فوق أذنيه، فكانت هامته تبدو كأنها غائصة بين مرتفعين.

وإذ كان طفلًا لقيطًا قد عثر عليه راع يبيت في نفق، أمسية يوم الموتى فسماه معمده بهذا السبب نيقولا توسان. ثم كانت تربيته مما يجود به أهل الخير فنشأ بعيدًا عن كل ثقافة مجردًا عن أية معرفة، قد جري له هذا الحادث عقب شربه بعض أقداح من الزبيب قدمها إليها خباز القرية، وكان أضحوكة بين الناس ثم غدا ذلك الحين شريدًا، فأنه لم يكن يحسن عملًا من الأعمال إلا أن يمد يده.

كانت البارونة أثاري فيما مضى قد تركت له إلى جانب حظيرة الدجاج بالمزرعة الملاصقة للدار كوخًا حقيرًا مليئًا بالقش ينام فيه. وكان هو واثقًا في أشد الأيام مجاعة أنه واجد دائمًا كسرة من الخبز وكوبًا من شراب التفاح في المطبخ. وكثيرًا ما كان يتلقى بعض الدريهمات من السيدة العجوز تلقيها عليه من أعلى الدرج أو من نوافذ حجرتها. أما الآن فقد ماتت هذه السيدة.

لم يكن يظفر بشيء في القرى. فلقد عرفه الناس جيد المعرفة وقد برموا به وعيوا بأمره منذ أربعين سنة وهم يرونه يتنقل ببدنه البشع وأثوابه المرقعة على أقدامه الخشبية بين الخرائب والأنقاض، ومع هذا فهو لم يكن يريد أن يبرح المكان. لأنه لم يكن يعرف على الأرض شيئًا غير هذه الزاوية من البلد، هذه القرى الثلاث أو الأربع التي قضى فيها حياته التسعة. لقد وضع حدودًا للأمكنة التي قد أعتاد ألا يعدوها ألبته.

كان يجهل ما إذا كان العالم يمتد إلى ما وراء الأشجار التي تحيط ببصره، ولم يكن يسائل نفسه في هذا الشأن. وحينما كان الفلاحون يضيقون بملاقاته على أطراف حقولهم وحافات إنفاقهم كانوا يصيحون به : لما لا تذهب إلى القرى الأخرى بدلًا من تنقلك هنا على الدوام؟ لم يكن يحير جوابًا، بل يبتعد عنهم وهو يشعر بنوع من الخوف المبهم من المجهول، خوف البائس الذي يخشى أمورًا كثيرة لا يتبينها، كالوجوه الجديدة، أو اللعنات، أو النظرات المرتابة التي يرميه بها أناس لا يعرفونه، أو الشرطة الذين يمرون بالطريق اثنين اثنين، والذين كانت رؤيته إياهم تحمله بالغريزة على الإمعان في الشجيرات الوحشية أو الاختفاء وراء كومة من الحطب.

حينما كان يلحظهم من بعيد، ويرى بريق ثيابهم تحت أشعة الشمس، كان يجد للتو خفة غريبة خفة الوحش الذي ينشد الملاذ ويطلب النجاة. فينسلت من بيع عكازيه ويسقط على الأرض كالخرقة، ثم يتدحرج كالكرة ولا يلبث أن يتصاغر ويتضاءل كمنظر أرنب في حجرها وقد اختلطت أسماله القائمة بالأرض.

ومع هذا لم يسبق أن كان له معهم شأن من الشؤون. ولكنه كان يحمل هذا الشعور في دمه كما لو كان قد ورث هذا الخوف والمكر عن أبويه اللذين لم يعرفهما البتة.

لم يكن له بيت يؤويه، فلا سقف يغطيه ولا كوخ يضمه ولا ملجأ يحميه. كان في الصيف ينام في أي مكان. وفي الشتاء كان ينفذ إلى مخازن الغلال أو في زرائب الماشية بمهارة ملحوظة، كان يبادر دائمًا إلى الفرار قبل أن يحس وجوده أحد. وكان يعرف الثقوب التي يمكن بواسطتها النفاذ إلى المنازل والأبنية. ولما كان طول استخدام عكازيه قد أكسب ذراعيه قوة غير عادية، فقد كان يصعد متسلقًا إلى سطوح الأهراء معتمدًا على قوة راحتيه وحدهما حين يظل أحيانًا أربعة أو خمسة أيام دون حركة حينما يكون قد جمع مؤونة كافية.

كان يحيا كوحش الغابة وسط الناس دون أن يعرف أحدًا أو يحب أحدًا. ولم يكن يترك في نفوس الفلاحين إلا نوعًا من الازدراء الخالي من الاكتراث، والبغض الذي يمازجه الأغضاء وقد لقب كلوش لأنه كان وهو يترجح بين قدميه الخشبيتين أشبه بالناقوس وهو يترجح بين محوريه.

وقد مضى عليه يومان لم يطعم فيهما شيئًا ولم يمنحه أحد شيئًا، فقد ضاق به الناس جميعًا وأرادوا أن يفارقهم ويذهب عنهم.

وكان الفلاحات يصحن به على أبوابهن حينما يرونه مقبلًا من بعد : ألا تريد أن تذهب عنا أيها الوغد، ألم أعطك قطعة خبز منذ ثلاثة أيام.

فكان يدور على وتديه، ثم يمضي إلى البيت المجاور حيث يستقبل كما استقبل في الأول.

وتصايح النساء من باب لآخر :

ليس من سبيل مع هذا إلى كفاية هذا المتبطل الكسول من الطعام طوال السنة.

ومع هذا فإن المتبطل الكسول كان في حاجة إلى الطعام كل يوم.

كان قد طاف في شوارع سانتهلير وفارفي وبييت دون أن يربح سنتيمًا أو يحصل على كسرة من الخبز، ولم يبق له من أمل إلا في تورنولا؛ ولكن كان عليه أن يقطع إليها فرسخين على الشارع الكبير، وقد كان به من الإعياء ما لا يستطيع معه السير، إذا كان خاوي البطن كما كان خاوي الجيب.

ومع هذا فقد استأنف السير.

كان الوقت في ديسمبر. وكانت ريح باردة تهب فوق الحقول وتصفر من خلال الأغصان اليابسة. وكانت السحب تتلاحق وسط السماء القاتمة الغائمة مغذة في السير إلى حيث لا يعلم لها غاية، والمعوه يسعى ببطيء ناقلًا عكازيه الواحد بعد الآخر في جهد وإعياء متعمدًا على ساقه الملتوية التي بقيت له والتي تنتهي بقدم بشعة المنظر قد لفت ببعض الخرق البالية.

ومن حين لآخر كان يجلس على حافة النفق ويستريح بضع دقائق. وقد ألقي الجوع في نفسه الكثيفة المظلمة شعورًا بالغم

والحرج. ولم يكن يحمل إلا فكرة واحدة : وهي الأكل، وكلنه لم يكن يعرف الوسيلة إلى هذا.

وشعر بالألم والإعياء بعد مسير ثلاث ساعات على الطريق الطويل ولما بصر بأشجار القرية من بعد جد في السير.

وأجابه أول فلاح التقى به وسأله كلوش الصدقة.

ها أنت لا تزال على حالك القديم، أليس من سبيل إذن إلى التخلص منك؟

فابتعد كلوش وجعل يمر بالمنازل وينتقل من باب إلى آخر فيرده الناس ردًا جافيًا ويصرفونه دون أن يعطوه شيئًا، فيواصل مع هذا تجواله في صبر وإصرار، فلا يحصل فلسًا واحدا.

ثم قصد إلى المزارع وجعل يعبر الطرق المبللة بالمطر، وقد أخذ منه التعب ونالت منه المشقة حتى ما يستطيع أن يرفع عكازيه ولكنه طورد في كل مكان فقد كان هذا يومًا من هذه الأيام التي يشتد فيها البرد وتشيع فيها الكآبة فتنقبض لها القلوب وتضيق فيها الصدور وتظلم لها النفوس ولا تنبسط فيها اليد لإعطاء أو معونة.

فبعد أن طاف بكل المنازل التي يعرفها قصد إلى حظيرة السيد (شيكيه) فاستلقى هناك في زاوية نفق عند طوال الحظيرة، وفك وثاقه كما كان يقال تعبيرًا عن الكيفية التي كان يترك بها نفسه ويسقط بين عكازيه بأن يدفعهما من بين ذراعيه. ومكث وقتًا طويلًا لا يتحرك، وقد اشتد به الجوع وطغي عليه الألم، ولكنه كان من البلادة والسذاجة بحيث لا يستطيع إدراك ما هو فيه من بؤس وسوء حال.

كان ينتظر شيئًا مجهولًا، فلقد اعترته تلك الحالة التي نجدها كثير في أنفسنا وهي حالة الانتظار الغامض لشيء مجهول. كان ينتظر في هذا الركن من الحظيرة تحت هذا الجو القارس تلك المعونة التي يتوقعها المرء دائمًا من السماء أو من الناس دون أن يسأل نفسه كيف ولماذا وعلى يد من ستبلغه، ومر به عدد من الدجاج الأسود يبحث عن غذائه في الأرض التي تطعم جميع الكائنات، وبي اللحظة والأخرى كانت الطير تميل بمنقارها فتلقط من الأرض حبة أو تصيب بعض الحشرات الدقيقة، ثم تواصل بحثها البطيء الوئيد.

وكان كلوش ينظر إليها دون أن يفكر في شيء. ثم عرض له (و أحرى أن يقال إنه أحس من أن يقال إنه فكر أو قدر) أن إحدى هذه الدجاجات يطيب أكلها إذا هي أصلحت وأنضجت على النار.

وما اختلج في نفسه قط إنه مقدم على سرقة ثم تناول حجرًا كان على مقربة منه. ولما كان بارع اليد فقد أصاب للتو أقرب دجاجة منه. فسقطت على جانبها وهي ترفرف بجناحيها، وفرت بقية الدجاج متحاملة على مخالبها الدقيقة، وعاد كلوش فركب عكازيه ثم سار إلى حيث يأخذ القنيص بحركات أشبه بحركات الدجاج.

وما إن اقترب من الجسم الصغير الأسود وقد انتشرت على رقبته بعض النقط الحمراء، حتى تلقى في ظهره دفعة رهيبة أطارته عن عكازيه وأرسلته على الأرض إلى مسافة عشرة أقدام. وانقض السيد شيكه على السارق وقد اشتد به الغيظ وزاد به الغضب فأوسعه ضربًا. فكان وهو يضربه كالمطروق أو كمن به مس، كان

يضربه كما يضرب كل فلاح من سرقه أو سلبه شيئًا، فانهال ركلًا ولكمًا على المعوه الذي لم يستطع عن نفسه دفاعًا.

وجاء أهل المزرعة بدورهم فاشتركوا مع السيد في ضرب المتسول بما لديهم من الآلات، حتى تعبوا من ضربه، ثم حملوه إلى حظيرة الحطب فأودعوه فيها ريثما يرسلون في طلب الشرطة.

ومكث طريحًا على الأرض وقد سالت دماؤه وأهلكه الجوع وأشرف على الموت حتى جاء المساء ثم تبعه الليل وأعقبه الفجر دون أن يطعم شيئًا. وأقبل اثنان من الشرطة عند الظهيرة ففتحا بشيء من الحذر إذا كانا يتوقعان مقاومة. فقد زعم السيد شيكه أن الصعلوك قد هاجمه وإنه لم يدفع عن نفسه إلا بجهد جهيد.

وصاح به الشرطي أن قف.

ولكن كلوش لم يقو على الحركة. وقد حاول أن يتحامل على عكازه فلم يستطع؛ فظن الشرطة أنه يتصنع العجز ويلجأ إلى الحيلة وينوي شرًا، فأمسك به الرجلان المسلحان بعنف وشدة وحملاه بالقوة على عكازيه.

وأذهله الخوف، هذا الخوف الفطري في نفسه من الحمائل الصفراء، خوف الطريدة من الصائد. أو خوف الجرذ من القط. فبذل جهدًا خارقًا حتى استطاع الوقوف.

وأمره الشرطي بالسير، فسار على مشهد من عمال المزرعة وهم يرمقونه جميعًا بنظراتهم فكان النساء يشرن إليه مهددات، والرجال يتضاحكون ويسبونه ويحمدونه الله أن وقاهم شره وأراحهم منه.

ومضى كلوش بين حارسيه ولا يزال به رمق من حياة وفضل من قوة كان لابد منهما لكي يواصل السير إلى المساء، واستغلق عليه الأمر واشتد به الانزعاج بحيث لم يستطع أن يفهم شيئًا مما نزل به. وكان المارة يقفون في الطريق لمشاهدته ويتحدث الفلاحون عن لصوصيته؛ وبلغوا قصبة المقاطعة نحو الليل، ولم يكن قد سبق لكلوش أن بلغ قط إلى هذا المكان، فلم يكن يتصور ما وقع له ولا يفكر فيما عسى أن يحل به. وقد أصابه الوجود واستولت عليه الدهشة لهذه الحوادث المباغتة وهذه الوجوه والمنازل التي لم يكن له بها عهد.

ولم ينطق بكلمة واحدة، وما كان لديه ما يقوله إذ لم يكن يفهم شيئًا، وقد مضى عليه سنوات لم يتحدث فيها إلى أحد حتى فقد على التقريب سهولة النطق ومرونة اللسان، وكانت أفكاره من الغموض والاختلاط بحيث لا يمكن الإبانة عنها بالألفاظ وأودع في سجن القرية. ولم يفرض الشرطيان أنه قد يكون في حاجة إلى الطعام، ثم ترك إلى اليوم التالي.

ولكن حين جيء لاستجوابه في الصباح المبكر وجد على الأرض طريحًا وقد أسلم الروح، فيا للمفاجأة!.

فينوس برانيزا

لم يكن أحد في (برانيزا) كلها يجهل ذلك التلمودي. ولم يكن مرد تلك الشهرة الواسعة إلى حكمته وخوفه الله فحسب. بل كان لجمال امرأته نصيب كبير في تلك الشهرة إذ كانوا يلقبونها (فينوس برانيزا) وقد نالت هذا اللقب عن جدارة واستحقاق، فهي فضلًا عن جمالها الباهر زوجة بحاثة في التلمود.

وزوجات الفلاسفة اليهود غالبا ما يكن دميمات أو ذوات عاهات جسدية. وكتاب التلمود يشرح تلك الظاهرة ويفسرها بما يأتي : (إن عقود الزواج تعقد في السماء، وحين ولادة مولود جديد يعلن صوت سماوي أسم زوجة ذلك المولود - أي زوجة المستقبل؛ وكما أن الأب الطيب يدع أدوات منزله الثمينة ولا يستعمل إلا الأدوات القديمة مع أولاده، فهكذا ينعم الله على الرجال التلمود بنساء لم يأبه لهن الرجال الآخرون!.

ولعل الله أراد أن يبدل من هذه القاعدة ويخفف من وطأتها، ليثبتها، فاختار لصاحبنا التلمودي (فينوسا) فيها من الجمال ما يزيد في فخر العروس ويرفع من قيمة تمثال قائم على قاعدة في متحف.... كانت طويلة القامة، ممشوقة القد، جذابة الملامح، يقوم على كتفيها راس بديع رائع، وتتدلى على ظهرها ضفيرتان نجلاوان... ويداها.. كأنهما قطعتان من العاج!.

وكأنما خلقت لتكون ذات سلطان لها رعاياها وعبيدها يسجدون عند قدميها، أو لتشغل ريشة فنان أو لتحرك قلم شاعر!.

لكنها عاشت عيشة زهرة جميلة نادرة في بيت خانق حار.

زد على ذلك أنها كانت تجلس معظم نهارها ملتحفة فروها الثمين تراقب الشارع من نافذتها.

لم يكن هنالك أبناء.... وكان زوجها الفيلسوف يجلس مصليا أو مطالعا من الصباح المبكر حتى منتصف الليل ولم تكن معبودته سوى (الجمال المقنع) كما يسميها كتاب التلمود.

ولم تكن تعبا بشؤون المنزل هي غنية، وكان النظام سائدا مستتبا كنظام الساعة التي تديرها مرة كل أسبوع. لم يزرها أحد ولم تخرج لزيارة أحد... وكانت تجلس تفكر وكأنها تحلم. وكثيرا ما كانت تتثاءب!.

وهبة على المدينة ذات يوم عاصفة هوجاء وقصف الرعد وكأنه يلهب المدينة بسياط. أوي اليهود إلى منازلهم وفتحوا النوافذ ليستقبلوا مسيحهم الموعود!.

وكانت فينوس اليهودية جالسة على كرسيها المريح لابسة فروها ترتجف، وفجأة صوبت عينيها المتوهجتين نحو زوجها الجالس أمام كتابه وهو يتأرجح!.

سألته قائلة : أخبرني متى يأتي المسيح أبن داود؟

فأجابها : سيأتي عندما يصبح اليهود كلهم صالحين أو طالحين، هذا ما يقوله التلمود.

- وهل تصدق أن اليهود يمكنهم أن يكونوا صالحين؟

- وكيف يمكنني أن أصدق هذا؟

- إذن سيأتي المسيح عندما يصبح اليهود كلهم طالحين. وهز الفيلسوف كتفيه وتابع القراءة في كتاب التلمود، ذلك الكتاب الذي لم يخرج من قراءته رجل صحيح العقل خلا رجلًا واحدا!.

وظلت المرأة الجميلة تنظر إلى قطرات المطر المنهمر بعينين حالمتين وهي تعبث بثوبها الأسود بأسنانها البيضاء.

وفي أحد الأيام غادر الفيلسوف اليهودي بيته إلى مدينة مجاورة، إذ كان عليه أن يفصل في مسالة دينية. ونظرًا لعلمه الواسع فقد حلت المشكلة بأسرع مما كان يتوقع.. وعاد مع صديق له أقل منه علمًا! عاد في نفس اليوم بدلا من أن يعود في اليوم التالي كما كان مقررًا.

ترك العربة عند بيت صديقه وتوجه إلى بيته سيرا على الأقدام. لك يفاجأ حين شاهد نوافذ منزله مضاءة أو عندما رأى خادما لضابط يدخن غليونه ببساطة أمام منزله. تقدم إلى الخادم وسأله بأدب، وبشيء من الفضول : ماذا تصنع هنا؟ أقوم بالحراسة لئلا يأتي زوج اليهودية الحسناء على غير انتظار.

- حقا! حسنا! أنتبه وراقب جيدا.

قال هذا وتظاهر بالذهاب، لكنه ولج البيت من مدخل خلفي. دخل الغرفة الأولى ورأى مائدة معدة لشخصين، ولاحظ أن صاحبيها تركاها قبل لحظات، وكانت زوجته تجلس كعادتها متدثرة بفروها وكانت وجنتاها محمرتين مريبتين ولم تكن عيناها متعبتين ناعستين بل كانتا تحملقان بزوجها وفيهما ترتسم علائم السخرية والرضا

وفجأة عثرت قدم الفيلسوف بشيء على الأرض أحدث صوتًا غريبا فانتفض وكان الذي عثر به مهمازا.

- من كان معك؟

وهزت اليهودية كتفيها لم تجب

- أأخبرك؟ كان عندك قائد فرقة الخيالة

- لم لا يكون معي؟

- أخرجت يا امرأة عن صوابك؟

- ما زلت مالكة لكل صوابي، وارتسمت ابتسامة على شفتيها الساخرتين وقالت. ولكني أليس على أن أقوم بدوري كيما يأتي المسيح فيخلصنا نحن اليهود المساكين.

إنه ضوء القمر

كانت مدام جولي روبير تنتظر أختها مدام هنرييت ليتور التي عادت من سويسرا منذ خمسة أسابيع، بعد أن سمحت لزوجها بالبقاء وحده في كالفادوس لإنجاز بعض الأعمال التي تطلب وجوده، وأتت لتقضي بعض أيام مع أختها في باريس للترويح عن نفسها، وفي الصالون الهادئ، جلست مدام روبير تقرأ وهي شارة الذهن، ترفع عينيها بين وقت وأخر كلما سمعت صوتًا. وأخيرًا سمعت دقا على الباب، فظهرت أختها حالا وكانت تلبس معطف السفر، وفجأة وقبل التحية تعانقتا بشدة ثم بدا الحديث عن الصحة والعائلة وأشياء أخرى تجيدها النساء...

كان الوقت مساء. فأضاءت مدام روبير المصباح، ولما رأت وجه أختها رغبت في عناقها مرة ثانية، فاقتربت منها، ولشد ما كانت دهشتها عندما رأت ضفيرتي أختها الطويلتين قد ابيضتا، بينما كان القسم الآخر من شعرها اسود لامعا وظهر شعرها الأبيض كالفضة تحوطه هالة من السواد.

كانت مدام هنرييت شابة لم تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها، فما هو السر في ابيضاض شعرها! إنها لم تره هكذا إلا بعد عودة أختها من سويسرا.

نظرت مدام روبير إلى أختها بدهشة والدمع يترقرق فيما فيها لأنها اعتقدت بأن حادثًا مخيفا ألم بأختها فسألتها بابتسامة حزينة :

- ماذا حصل لك يا هنريت؟

- لا شيء يا شقيقتي... أكنت تنظرين إلى شعري الأبيض؟

ولكن مدام روبير قبضت على ذراعيها بشدة وكررت عليها السؤال :

أخبريني ماذا حصل لك... أخبريني بالحقيقة وإياك والكذب : ومكثتا برهة تنظر إحداهما إلى الأخرى وقد امتقع وجه هنريت وكان دمعتان تبللان وجنتيها فسألتها أختها بلطف :

ألا تودين إخباري بما ألم بك؟

وفي صوت خافت قالت بعد أن أخفت جبهتها بين ذراعي شقيقتها :

لي... لي حبيب!

وهناك الكنبة جلست الأختان في أحد أركان الغرفة تتحادثان وقد وضعت الأخت الصغرى ذراعها على عنق أختها الكبرى بدلال وأخذت تنصت إلى حديثها :

إنك تعرفين زوجي وتعرفين كم احبه! فهو رقيق الشعور طيب، باسم الثغر، لطيف ومستقيم إلا أن به عيبا واحدا وهو انه لا يستطيع أن يطري محاسن المرآة! ولست ادري لماذا؟ آه كم كنت أتمنى أن يضمني بين ذراعيه بشدة، ويقبلني قبلات حارة تمتزج بها أنفاسنا! وكم تمنيت أن يكون ضعيفا بين يدي فيحتاج إلى رقتي وعطفي ودموعي! قد يظهر أن ما قلته لك تافه ولكننا نحن النساء جبلنا على هذا فما العمل! ومع ذلك لم أفكر لحظة في خيانته حتى على شاطئ بحيرة لوكيرن!.

هناك على شاطئ البحيرة، كان القمر يرسل أشعته الفضية على الكون فيملأ بهجة وحبورا، وشعرت حينئذ بشيء لست اعرف كيف أفسره! ففي الشهر الذي قضيناه نتنزه في سويسرا ونمتع أنفسنا بجمال تلك البلاد، أثار زوجي إحساساتي بهدوئه وصمته وتركني وحدي سابحة أهيم في الحسن والجمال! إلا يثير الجمال النفوس ويبعث فيها الحب إلا تثير ممرات الجبال الضيقة والأودية العميقة والغابات الواسعة والجداول الرقراقة والقرى الصغيرة الجميلة كل حب للجمال!.

أجل لقد سحرتني هذه المناظر بجمالها فقلت لزوجي وقد ارتميت بين أحضانه ما اجمل هذه المناظر يا حبيبي... انظر إلى القمر المنير والبحيرة الجميلة.... إلا تدعو هذه المناظر الساحرة المحبين للقبل!! قبلني الآن وفي هذا المكان قبلة حارة وامزج أنفاسك بقلبي المذاب! ولكنه أجابني بابتسامة لطيفة باهته : (لا يوجد سبب يدعو إلى القبل) فتأثرت جدًا من كلماته.

غاظني زوجي بمسلكه هذا، فقد منع تلك الخيالات الشعرية والسبحات الفكرية من أن تخرج إلى دنيا الجمال وأبقاها مكنونة في نفسي عديمة الجدوى.

وفي إحدى الأمسيات ذهب روبير إلى فراشه بعد العشاء، وكان قد أصابه صداع، فذهبت في نزهة على البحيرة وهل لي غير البحيرة وشاطئها الجميل؟.

كانت الليلة مقمرة كتلك الليالي التي نقرأ عنها في أساطير الخيال؛ وكان القمر يزهو باكتماله في كبد السماء ويحي الأرض

بأنواره الفضـــية، فيكســـبها جمالا وبهاء. وظهرت الجبال العالية بثلوجها البيضـــاء كملوك تلبس تيجانا فضـــية، ولمعت مياه البحيرة لمعـانـا أخـإذا في ضـــوء القمر الجميـل، وكان النســـيم عليلا يهيج الذكريات ويبعث الشوق في القلوب.

جلســـت على العشـــب، ونظرت إلى البحيرة وقد اســـتولى علي ســـحرها، فمر بي طيف عابر، وأحســـســـت أن الحب قد تملكني وأصـــبحت في حاجة إليه، فتذكرت حياتي الأولى وما بها من ســـآمة ويأس فحزنت وتساءلت : ترى هل يبسم لي الزمان فأجد نفسي على شـاطئ البحيرة ف ضـوء القمر السـاطع بين أحضـان حبيب يلهبني بقبلاتـه فـأنتعش بتلـك القبلات الحـارة التي ينعم بهـا العشـــاق!! وعندها شـعرت بحبات لؤلؤية تتسـاقط على وجنتي لم أدر بسـببها وســـمعت من يقول : (لم هذا البكاء يا ســـيدتي؟ خففي عنك ما تجدين... فعلام الحزم وعلام البكاء) وكنت مضـــطربة فقلت إني مريضة فسار إلى جانبي وكان طيب القلب وبدا يحدثني عما رأيناه في رحلتنا من المناظر الجميلة، وترجم كل ما أحســـســـت به إلى كلمات جذابة وشـعرت بأنه فهم إحسـاسـاتي وشـعوري كل الفهم، وفجأة اسمعني بعض الأبيات الشعرية لألفرد دي موسيه فشعرت كأنني في عالم غير عالمنا وخيل إلي إن الجبال والبحيرة وضـــوء القمر تغني وتسبح مبدع هذه المناظر الجميلة الساحرة.

وفي الصباح بينما أنا غارقة في هذه النشوة تركني هذا الحبيب واختفى بعد أن قدم إلي بطاقته! وهنا تأوهت مدام ليتور وكادت تصيح...

فقالت مدام روبير وقد سرها ما سمعت :

(لتعلمي يا شـــقيقتي العزيزة إننا لا نحب الرجل دائما ولا يستطيع أن يثير أشواقنا؛ فلا غرور أن حبيبك الحقيقي وأنيسك الذي سحرك بحلو ألفاظه ورقة شمائله وأثارك وبعث فيك الحب والغرام في تلك الليلة وأنار لك السبيل هو ضوء القمر... أجل إنه ضوء القمر!).

المنبوذة

عندما دخلت استراحة المسافرين بمحطة لوبان؛ صوبت أولى نظراتي إلى الساعة، فوجدت أنه لا يزال أمامي متسع من الوقت حتى يصل قطار باريس السريع. وشعرت فجأة بالإجهاد كأني قطعت عشرة فراسخ سيرًا على الأقدام. فنظرت حولي لعلي أرى على الجدران ما أقتل به الوقت فلم أجد شيئًا. فخرجت ووقفت أمام مدخل المحطة، وأنا أقلب الفكر فيما يرفه عن نفسي إلى أن يصل القطار.

كان الطريق أمامي قد نمت على جانبيه أشجار الفتنة بين صفين من مختلف المنازل الصغيرة، وقد ارتفع الطريق صعدًا؛ فبدت نهايته كأنها حديقة بعيدة.

وكان مقفرًا إلا من هرة تتسكع في الطريق في خفة، وكلب يسرع في مشيته يشتم قوائم الأشجار باحثًا عن فضلات الطعام...

واجتاحتني موجة حزينة من الشعور بالخيبة. ما العمل...؟ ما العمل؟ وجدت أنه لا مفر لي من الانتظار الممل بمقهى المحطة الصغير. وتصورت نفسي جالسًا وأمامي قدح من الخمر لم تمسه شفتاي، وجريدة محلية عافت نفسي قراءتها، عند ما بدت أمامي جنازة قادمة من شارع جانبري لتخترق ذلك الطريق أمامي.

شعرت عندئذ أن منظر مركبة الموتى قد فرج عن نفسي.

لقد ربحت على الأقل عشر دقائق من فراغي الطويل. وتضاعفت فجأة انتباهي عند ما شاهدت الميت لا يشيعه سوى ثمانية رجال كان أحدهم يبكي في حرارة والآخرون يثرثرون ويتحدثون أثناء سيرهم. ولم يشترك في الجنازة أي قس. ففكرت وأنا أخاطب نفسي (هاهوذا دفن مدني) ولكن سنح لي خاطر : ما بال المئات من ذوي الأفكار الحرة الذين يعيشون في البلدة لا يشتركون في إبداء شعورهم في مثل هذه المناسبة؟ إن سير هذه القافلة السريع قد دل على أنهم سيدفنون الفقيد دون احتفال ديني.

ودفع بي فضول إلى افتراض فرض معقد بعيد. ولكن؛ بينما كانت المركبة تمر أمامي، إذ بفكرة تنبعث في خاطري هي أن أشيع المركبة مع هؤلاء المشيعين وبذلك أشغل من وقتي الضائع ساعة على الأقل؛ فسرت وأنا أتظاهر بالحزن خلف الآخرين.

والتفت آخر اثنين منهم إلي في دهشة، ثم تحدثا في صوت خافت. فاعتقدت أنهما يتساءلان عن سبب وجودي وأنا الغريب عن هذه البلدة. ثم استتارا الاثنين اللذين أمامهما؛ فالتفتا ناحيتي يتطلعان إليَّ في فضول. فضايقني ذلك الأمر، وعزمت على أن أضع حدًا له؛ فاقتربت منهم، وقلت بعد أن بادلتهم التحية : (أرجو المعذرة أيها السادة إذا كنت قد قطعت عليكم حديثًا، ولكني عندما شاهدت الجنازة دفعت نفسي إلى اللحاق بها دون سابق معرفة بالفقيد الذي تشيعونه).

فرد أحدهم قائلًا (أنها فقيدة).

فدهشت، وسألت : (إذن هي جنازة مدنية، أليس كذلك؟).

فأجاب آخر يشـــرح لي قليلًا : (نعم، ولا. أن القس رفض أن ندخل بها الكنيسة).

فبدرت مني آهة من الدهشة لأني لم أفهم ما يعني.

فصـــرح قائلًا في صـــوت خافت : (إنها قصـــة محزنة. إن هذه الشـابة قد انتحرت. وهذا هو السـبب في عجزنا عن إجراء الطقوس الدينية قبل دفنها. إن من تراه يبكي هنا هو زوجها).

فقلت بعد تردد (إنك لتدهشـني وتثير فضـولي. هل أنتهك سـرا إذا ما رجوت أن تقص على هذه القصـة؟ إذا كنت تشـعر بأن ذلك فضولا مني فاعتبر كلامي كأن لم يكن).

فأخذ الرجل بذراعي دون كلفة وقال : (كلا.. ليس ما يمنع أن أســـرد عليـك وقـائعهـا. فلنبطيء في السـير قليلًا حتى نكون آخر المشيعين، ولدينا من الوقت ما يكفي للسرد قبل أن نصل إلى المقبرة عند الأشجار التي تشاهدها هناك).

ثم طفق يحدثني قائلًا (تصـور أن هذه المرأة الشـابة السـيدة بول هامون كانت ابنة أحد التجار الأثرياء السـيد فونتانلي. وكان قد حدث لها حادث رهيب وهي في سن الحادية عشرة. لقد اعتدى عليها خـادم، وكادت تموت خزيـا وعـارا من ذلـك الحـادث الأليم. وأظهرت المحاكمة الرهيبة أن تلك المسـكينة كانت ضحية ذلك الوحش مدة ثلاثة أشهر. فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.

ونمت الفتاة الصـــغيرة وقد تلطخت بالعار، منبوذة، وحيدة، بلا رفيقات ولا عطف وأصبحت أمام الأهلين كأنها مسخ أو أعجوبة من الأعـاجيـب. كـانوا يتحـدثون عنهـا في همس، ويتكلمون عن

(الصـــغيرة فونتـانل) في غمز، ويـديرون ظهورهم عنـد رؤيتهم لهـا في الطريق. حتى المربيات، كان أكثرهن يأبين الالتحاق بخدمتها. وكانت العائلات تبتعد عنها كأنها وباء تخشى أن تنشره الفتاة فيسري إلى من بالقرب منها.

أي شـفقة تعتريك لو كنت قد شـاهدت هذ الطفلة المسـكينة وهي تراقب الأولاد يمرحون ويلعبون في السـاحة بعد ظهر كل يوم. كانت تجلس وحيدة أو تقف بجانب خادمتها تشـاهد حزينة ما يحدث دون أن تشترك مع الأولاد في لهوهم. وعندما كانت تنتابها نزوة من الأغراء لا تقاوم، كانت تتقدم في خجل وخوف وتدخل في زمرتهم في خطوات مترددة، وكأنها شـاعره بعارها. وسـرعان ما ينهض الأمهات والعمات والمربيات من مقاعدهن ويأخذن بأيدي الأولاد ويجذبنهم بشـدة بعيدا عنها، وتبقى الصـغيرة فونتانل وحيدة، والهة القلب، مذهولة، ثم تنفجر باكية وقد امتلأ قلبها شـجنا، وأخيرًا تسـرع إليها خادمتها تخفي وجهها المخضل بالدمع في مئزرها.

وكبرت الفتاة وازدادت حالتها سوءا. وكان الناس يحولون بينها وبين مثيلاتها من الفتيات كما لو كانت مصـابة بالطاعون. ولم يكن لدى الفتاة شـيء تتعلمه، لا شـيء البتة. لقد قُطفت الثمرة المحرمة قبل أوانها وامتلأ جسـمها بالأنوثة قبل أن يحين ذلك الوقت الذي تحاول فيه كل فتاة أن تقرأ المسـتقبل المجهول في وجه الرجل ليلة الزفاف.

كانت كلما عبرت الطريق بصـحبة مربيتها، ينظر إليها الناس وهم في خشية منها، فتغض الطرف شاعرة بالعار الذي يثقل كاهلها.

وكانت الفتيات الساذجات الغريرات يتغامزن عند رؤيتها في خفية، ويحولن أنظارهن عنها كلما التقت أعينهن بعينيها.

وكانوا قليلًا ما يحيونها، ويتظاهرون بعدم رؤيتهم لها. حتى الصبية كانوا ينادونها (مدام باتست) اسم ذلك الخادم الذي اعتدى على عفافها.

كانوا لا يعرفون مقدار العذاب الذي تعانيه هذه الفتاة. فقد كانت قليلة الكلام لا تبتسم مطلقًا. حتى أهلها، كانوا يضيقون بها كأنهم يحقدون عليها من جراء تلك الهفوة الشنعاء. إن الرجل الفاضل لا يمد يده بمحض إرادته إلى المجرم الذي أُفرج عنه، ولن كان ابنه، أليس كذلك؟ وعامل السيد والسيدة فونتانل ابنتهما كأنها من طريدات السجون.

كانت جميلة، شاحبة اللون، ذات قامة هيفاء، وسمت وقور. ولو لم يكن ذلك الحادث لكنت من المعجبين بها.

ولما قدم الحاكم إلى البلدة بعد غياب ثمانية عشر شهرًا استحضر معه سكرتيرًا خاصًا، وهو شاب غريب الأطوار كان يعيش في الحي اللاتيني بباريس. فرأى الآنسة فونتانل وأحبها. وقصوا عليه قصتها فلم يأبه بها؛ بل قال إن ذلك يضمن مستقبلها.

وغازلها ثم طلب يدها وتزوجها. وكان لا يخجل من التزاور معها؛ فكان البعض يرد الزيارة، والبعض يحجم عنها.

وسار الحادث مع الزمن في طريق النسيان، وأخذت السيدة مقامها في المجتمع. وكانت تعبد زوجها كما لو كان إلهًا. أم يرد إليها شرفها؟ ألم يقاوم المجتمع ويكافح الناس من أجلها، ويواجه

الإهانات بسببها؟ لقد كان يقوم بدوره في شجاعة قل أن تجدها في الرجال.

وحملت فتفتحت أمامها الأبواب كأنما تطهرت تمامًا بالأمومة، إن ذلك لشيء مضحك. ولكنها الحياة!.

وسار كل شيء في طريقه العادي، حتى حانت حفلة البلدة السنوية، وأقبل الحاكم يحيط به سكرتيره وحواشيه وأصحاب الجاه لتوزيع الجوائز على المتسابقين، وأنت تعرف بالطبع ما يحدث من خلاف ومنافسة وغيرة بين الناس في مثل هذه الحفلات، وما أكثر أن يفقد البعض رشدهم. كان كل سيدات البلدة قد حضرن لمشاهدة هذه الحفلة. وتقدم رئيس فرة الموسيقى لبلدة دي مورميون؛ فقلده بول هامون وسامًا من الدرجة الثانية. فقذف رئيس الفرقة بالوسام في وجه السكرتير صائحًا (احتفظ به لباتست - فأنت مدين له ولي بوسامين من الدرجة الأولى).

كان هناك حشد كبير من الناس فسرعان ما ضجوا بالضحك كان جمهورًا خشنًا غير مهذب، واتجهت كل الأنظار صوب السيدة المسكينة. أواه يا سيدي، ألم تشاهد قط امرأة جنت؟ لقد كنت بين الحاضرين في تلك الحفلة، وشاهدتها وهي تحاول النهوض فتسقط على مقعدها ثلاث مرات متتالية، كأنها تريد الهرب فيقيدها عجزها عن اختراق هذه الجموع المتكاثرة المحيطة بها. وسمعت صوتًا من جهة ما يصيح : (أهلا... أهلا... بمدام باتست) فضج بعض الناس بالضحك واشمأز البعض الآخر. وهبت عاصفة من الضوضاء والهرج، واهتزت الرؤوس وترددت الأصوات، وتطلعت الأنظار تشاهد

وجه تلك التعسة، وحمل الرجال زوجاتهم على أذرعتهم ليشاهدنها، وتساءل الناس أيهن؟ أيه تلك التي ترتدي ثوبًا أزرق اللون؟ وكان الأولاد يصيحون صياح الديكة، وانفجر القوم يضحكون ضحكات عالية، ولكنها لم تتحرك من مكانها، كانت جالسة في ذهول على المقعد الوثير كأنها ساعة خصصت لهذه الحفلة تتطلع إليها الأنظار، ولم تستطع حراكا، ولم تتمكن من إخفاء وجهها. كانت جفونها تنطبق ثم تنفتح كأن هناك ضوءا باهرًا يحرق عينيها. ولهثت كأنها جواد يصعد مرتفعا من الأرض. كان كل هذا يمزق قلبي تمزيقًا.

وأخذ السيد هامون برقبة رئيس فرقة الموسيقى ذلك الشخص الوقح وألقاه على الأرض وسط الضوضاء الهائلة. وتوقف الاحتفال، وبعد ساعة كان السيد هامون في طريقه إلى الدار برفقة زوجه. كانت مرتجفة الجسد صامتة لم تفه بكلمة واحدة. وفجأة تسلقت حاجز الجسر دون أن يتمكن زوجها من منعها، ثم ألقت بنفسها في النهر.

واستغرق إخراجها ساعتين من ذلك الماء العميق. كانت بالطبع قد فارقت الحياة).

صمت المتحدث لحظة ثم عاد بعدها يقول (ربما كان من الأفضل لها أن تصل إلى هذه النهاية المؤلمة. فإن هناك أشياء تحدث فلا يمكن محوها. وهأنذا عرفت الآن لماذا رفض القس أن يفتتح أبواب الكنيسة لها. فإنه لو كان الدفن دينيًا لشيع الجنازة كل أهل المدينة. ولكن ذلك الانتحار وتلك القصة الأليمة حملت العائلات

على الإحجام عن تشييع الجنازة. ولذلك كان من الصعب أن يشيعها القس.

وعبرنا باب المقبرة؛ وانتظرت في تأثر بالغ نزول الناووس في القبر لأقترب من ذلك الشاب المسكين الذي كان يبكي وينتحب. وشددت على يده معزيا، فنظر إليَّ في دهشة من خلال دموعه ثم تمتم قائلًا : (شكرًا يا سيدي، شكرًا).

ولم آسف أبدًا على اشتراكي في تشييع هذه الجنازة.

صفقة!

مثل المتهمان (سزار أزيدور برومنت) و(بروسبر نابليون كورنى) أمام محكمة جنايات (السين) لشروعهما عن عمد في قتل امرأة (برومنت) المتهم الأول!...

وزُجّ بهما في (قفص الاتهام) فراحا يقلبان نظرات حائرة، ويرددان أنفاسًا مضطربة... وكان كلاهما من أهل الريف.

وبدا (برومنت) ربعة قصير الذراعين والساقين... قاني الوجه مرصع الديباجتين بالبثور... وقد التصق رأسه الأكبس بجسده القميء الكروي... وما بينهما من عنق... وكان يقطن مدينة (كاشفيل - لا - جوبل) في ولاية (كريكتوت) ويقتات رزقه من رعاية (الخنازير) وإنمائها!...

أما (كورني) فرجل ضاوي الجسم غير فارغ القوام... يتدلى من كتفيه ذراعان مفرطان في الطوف... أشوه الوجه، أضجم الشدقين، أحول العينين... يرفل في كساء أزرق كالقميص، يطويه حتى الركبتين... وينسدل على جبينه العريض بعض شعيرات مصفرة اللون، تخلع على وجهه سمات بغيضة تعافها النفس ويمجها البصر...

وكان القوم يدعونه بالقس لما أوتيه من براعة في ترتيل الأناشيد بين جنبات الكنيسة... حتى هام به بعض الناس... في (كريكتوت)، وذابوا إعجابًا به وشغفًا بتسابيحه إلى الله! واستقرت

في (منصة الشهادة) زوجة (برومنت) وهي فلاحة عجفاء بادية الهزال... تكاد أن تخر من الوهن، وتوشك أن تغرق في النوم... كانت واجفة واجمة لا تحرك ساكنًا، وقد عقدت راحتيها في حجرها وراحت حدقتاها تدوران في بلاهة واضطراب... وتجلت في صفحة وجهها آيات من الجمود ودلائل من الخمود!.

ابتدرها القاضي في صوت رفيق رقيق مستأنفًا مسعاه في التحقيق : -

(لقد أدركت - أيتها السيدة الفاضلة - أنهما اقتحما دارك. ثم ألقيا بك في (البرميل) المترع بالماء... فدعينا نلم بجلية الأمر في إسهاب... تكرمي بالوقوف)...

فما إن همت قائمة، حتى لاحت في قبعتها كعمود شاهق، وطفقت تجأر بقصتها في صوت ترسله على مهل :

بينما كنت أقشر الفول... دلفا من الباب معًا... فحدثت نفسي (إن الشر يزمهر في عيونها... ما أقبلا إلا لسوء، وما أضمرا سوى الغدر... سأمسك حذري منهما) ومكثا يختلسان إلى نظرات شذراء... وعلى الأخص (كورني) الذي لا يفتأ يشوب الحول عينيه... فأحسست لمرآهما معًا بالكمد يخذني والحسرة تمضني فما كان أحدهما ممن يشرف المرء ويثير زهوه!.

ولم ألبث أن قلت لهما (ماذا وراءكما؟!) فما نبس أحدهما ببنت شفه، بل ظل سادرًا في صمته... مما دفع الريبة إلى قلبي،.

وهاج الظنون في نفسي!)

فصاح (برومنت) المتهم في حرد وجفاء :

- (لقد كنت أترنح وأنا سـليب الوعي!) فألقى (كورني) بطرفه إلى شريكه في الإثم، وقال له في صوت عميق كأنه عزيف الأرغن :

- (ما كنت مجانفًا للحق... لو قلت كلانا كان مترنحًا سـليب الوعي!)

فانتهره القاضي في عنف ودهشة :

- (أو تقولان أنكما كنتما ثملين مخمورين؟!...)

برومنت - (و هل في ذلك من حرج؟!...)

كورني - (إنه يقع لكل البشر!.)

فكظم القاضي غيظه، وهو يروم الشاهدة :

- (ناشـدتك الله... صـلي ما انقطع من روايتك... أيتها السـيدة الفضـلى!.) فعادت المرأة تقول في صـوتها الأجش وهي ترسـله في تؤدة وعلى مهل :

- (ثم سـألني برومنت (هل لك في خمسـة فرنكات؟!) فوافقته على سـؤله... لأنك لم تعثر على خمسـة فرنكات تحت كل أيكة تصـادفها... فما لبث أن قال لي (هلمي معي... وسـوف أريك ما تفعلين!...) ثم مضـى حينًا... وعاد يدفع أمامه (البرميل) الضـخم الذي نتلقى فيه ماء المطر... ثم أقامه في وسـط المطبخ... وهو يقول (هلا تملئينه حتى الشفا بالماء).

فشـمرت عن سـأعد الجد، ولم آل جهدًا سـاعة، وأنا أسـعى بالدلوين بينه وبين البحيرة أحمل مزيدًا ومزيدًا من الماء... فقد كان من الضخامة، حتى لكأنه بئر بعيد الغور...

أما هذان الزنيمان (برومنت) و(كورني) فقد مكثا طيلة الوقت يعبان في الخمر... ويملان الكأس تلو الكأس.. حتى لم أتمالك أن صحت فيهما (لكأنكما أكثر امتلاء بالخمر من هذا البرميل..) فأجابني برومنت : لا تبالي بما نحن فيه.. وثابري على عملك أنت.. فلسوف يحين دورك..) فلم أعره سمعًا.. لأني أعلم بما للخمر من عقبى تسل العقل من إدراكه، وتمنع النفس صوابها.

حتى إذا فاض (البرميل) بالماء. قلت (يا هذا. لقد فرغت من عملي) فناولني (كورني) خمسة فرنكات - كورني وليس برومنت يا صاحب السعادة.. إنه كورني الذي منحني أجري.. ولكن لم يلبث (برومنت) أن قال : (هل لك في خمس فرنكات أخرى!.) فقلت على الفور (نعم..) حتى لا تفلت من أناملي هذه الفرصة الذهبية... فانثنى يقول (هيا انزعي ثيابك!...) فصحت فيه وفد أخذتني الدهشة والعجب (أنزع ثيابي؟!.) فأجابني (أجل) فسألته منكرة (أأفّضها كلها؟!) فقال (إن كان هذا يثير انزعاجك... فامسكي عليك قميصك... إنا لا نبغي نزاعًا...).

حسن... خمسة فرنكات قدر لا يستهان به.. فما على من بأس لو فادعت هذين السفيهين. فرفعت قبعتي من فوق رأسي. ثم خلعت دثاري.. وسللت قدمي من النعلين!. وحينئذ قال برومنت (ليس ثم داعي للخلاص من جواربك.. نحن قوم ورعون أولو تقي!.) فهتف كورني مرجفًا (أجل.. نحن قوم ورعون أولو تقي!.).

وهكذا قمت أمامهما على شبه من أمنا (حواء)!. فنهضا من جلستهما ترنحهما الخمر. وهما لا يكادان يثبتان على إقدامهما. عفوًا

يا صاحب السعادة.. قلت لهما (و ماذا بعد؟!) فصاح برومنت (أو مستعد أنت؟!) فأجابه كورني (مستعد!).

ثم لم يلبث (برومت) إن امسكني من رأسي، وقبض كورني على قدمي... كالشاة التي تهيأ لغسلها!. فما أن هممت بالصياح، حتى زجرني (برومنت) في قسوة قائلًا (امسكي لسانك... أيتها المرأة الوقحة!.) ثم رفعاني في الهواء، وقذفا بي في (البرميل)... فسرت في كياني قشعريرة جعلت الدم يضطرب في عروقي ويتصاعد دافقًا إلى رأسي... فتصطك أسناني وأحس الجمد يعتريني من ناصيتي حتى أخمصي!..

وسمعت برومنت يقول (و لكن رأسها ما برح لا يغمره الماء. إن هذا يدخل في الحساب!.) فرد عليه كورنى (ضع رأسها إذن تحت الماء!.) فلم يلبث أن دفع رأسي في البرميل كمن يعمد إلى إغراقي... فاستشعرت الماء يتسرب إلى أنفي... وتراءى كأني أوشك أن اتخذ سبيلي إلى السماء!..

وما أنفك يدفعني... حتى غمرني الماء... ثم خالجه الخوف فجأة، وساوره الندم، وراودته الرحمة... فعاد يرفعني قائلًا : - (هيا جففي جسدك، واخصفي عليك ثيابك... يا حقيبة من العظام...).

فلم أكد أثوب إلى نفسي وأتمالك مشاعري... حتى أطلقت لساقي الريح، وهرعت إلى (راعي الكنيسة) ذلك الرجل الطيب القلب الكريم النفس الوفي الخلق... فأعارني دثارًا من ثياب خادمه... وطفق يسرى عنى حتى أفرخ روعي!.. ثم انطلق يدعو صاحب الشرطة والسيد (شيكوت) النائب!..

وعدنا أدراجنا جميعًا إلى الدار... فألقينا برومنت وكورنى يتقاتلان كزوج من الكباش!.. وكان برومنت يزمجر والغضب يتقد في عينيه (إن هذا وكس... لقد أخبرتك أنها ليست دون (المتر المكعب) لقد أسأنا العمل وأخطأنا الوسيلة!.).

فضج كورنى في حنق (بل أربعة من الدلاء الممتلئة... لا تبلغ نصف المتر المكعب... إنها حقيقة... لا تملك لها إنكارًا ولا تجد منها خلاصًا!..) فدنا منهما صاحب الشرطة، وحال بينهما في صرامة... وما كنت أحير شيئًا!..).

وتهالكت السيدة على مقعدها... فانفجرت في قاعة المحكمة عاصفة من الضحك... وتناظر المحلفون، وقد رفت على ثغورهم ابتسامات تحفها الرزانة... حتى إذا رانت السكينة وخيم الهدوء خاطب القاضي (كورنى) المتهم :

(يبدو أنك المحرض على هذه المكيدة التي تفيض شناعة وتدر خزيًا. أو عندك من الدفاع ما تقدمه بين يدينا جلاء لما قارفته!).

فهم (كورنى) على قدميه قائلًا : (لقد كنا ثملين تبعث برأسينا الخمر!) فأجابه القاضي في رصانة وهدوء (إني أعلم هذا صل حديثك!) - (مهلا!... سيواتيك ملا تعلم... حسن! لقد جاءني (برومنت) في تلك الصبيحة، ودعاني إلى كأس من شراب (البراندي)... فجلست إليه وأفرغته في جوفي... وحفزني الأدب إلى أن أقابل فضله بمثله... فدعوت له بكأس آخر... فأجابني بكأس ثالث، فرددت عليه برابع. ودالت بيننا الخمر ودارت منا الرؤوس.. حتى انتصف ميزان النهار.. فإذا بنا مخموران نترنح من النشوة!..

وطفق برومنت يجأر بالصياح.. فخالجني الأسف له وأحسست إشفاقًا عليه!... فسألته عن جلية أمره!... فقال (لابد لي من ألف فرنك قبل الثلاثاء!.) فانطويت على نفسي. بالطبع. بيد أنه شك غير طويل، ثم قال في مثل هدوئك وشبه وقارك يا سيدي : (سأبيعك زوجتي!.).

حسن... كنت ذاهب الوعي عاطل الرشد... وكانت زوجتي قد لبت داعي المنون.. فدار بخلدي - وهو مضطرب - أن من الخير أن استحوذ على امرأته.. ما كنت أدري عنها شيئًا... ولكن الزوجة دائمًا هي الزوجة... فأثنيت أسأله (و كيف تبيعها لي؟!) فتطمئن رأسه وهو يفكر، أو لعله خلع على ذاته سمات التفكير ومظاهر التدبير.. فالمرء إذا عانق الصهباء.. تبلبلت في ذهنه الآراء، وعاثت في جسده الأدواء.

ثم لم يلبث أن أشرق وجهه وانبسط جبينه وهو يقول : (سأبيعها لك بالمتر المكعب!.) فلم يأخذني الدهش، فما برحت نشوة الخمر تعربد بين جوانحي.. كما أني استخدم المتر المكعب في تجارتي!... إن المتر المكعب يقدر بألف لتر... فوافقت هواه، بيد أن العقبة التي تنهض في سبيلنا.. هي الثمن، وهو رهين بما يتمخض عنه عديد الأمتار.. وعن لي أن أسأله :

- (و كم تود في المتر المكعب؟!.)

- (ألفى فرنك!..)

فوثبت من مجلسي كأرنب مروع.. ولكن جال بخاطري أن ليس ثم في الوجود امرأة تجاوز في الكيل ثلاثمائة لتر!..

قلت له :

- (إنك على شطط فيما عرضت!.) فأجابني وهو يهز رأسه :

- (لا أخذ دون ذلك.. فإنها لخسارة تفدحني!.)

كان يساومني كأنه يبيعني إحدى خنازيره، وإنه لبارع قدير على بضاعته.. هه.. هه.. قلت له (: إن كانت شابة فتية فلسوف أغضى ولا أبالي.. أما إن كانت أخت عجز لطول ما أبليتها وأخلقت جدتها.. فما أدفع فيها سوى ألفًا وخمسمائة للمتر المكعب ولن تمس دانقًا مزيدًا عليها أو ترضى؟) فارتفع صوته هادئًا رضيت!. هيا نتصافح..).

فهززت يده شدًا على العهد.. وانطلقت متأبطًا ذراعه.. لا بد للإنسان في زحمة الحياة الشقية وموكبها الصاخب أن يمد يد العون لأخيه الإنسان!.. بيد أني ما لبثت أن أغرقت في الحيرة وفاض بي الدهش!!. فانقلبت أسأله : (كيف تسعى لكيلها؟. وما هي بسائل!.. لسوف يعيينا أمرها!.).

فإبان لي عن خاطر ما كان يتجلى من عقل ثقلت عليه وطأة الخمر. وشاعت في صفائه شوائب الثمل. قال : (سآتي ببرميل. ونملأه حتى يطفح منه الماء.. ثم نضعها فيه.. ونقدر ما ينسكب من الماء.. فهو جرمها.) فهتفت في إعجاب : (إنه رأي سديد. وفكرة صائبة!.. ولكن كيف نقدر ما ينسكب من الماء، وما يتناثر من الرشاش؟. ولسنا له بحاصرين!).

فرماني بالغباء، ودعاني بالسخف. وأخبرني أن كل ما نفعله هو أن نملأ (البرميل) تارة أخرى.. بعد أن ننتشل امرأته، ثم نقدر ما

نضـــيفه من الماء بعد ذلك!. إن كان عشـــرة دلاء فإن نظيرها متر مكعب!. أه. ليس ثم في الوجود أمرؤ أحدّ ذكاء وأمضـــي فطنة من هذا اللئيم، والخمر ناشبة في رأسه، جاثمة على عقله!..

وصفوة القول... اتخذنا سبيلنا إلى بيته... فلما وقع طرفي على المرأة... رحت أحدق فيها وأنقضـها ببصـري في نظرات فاحصـة... لم تكن على مسـحة من الجمال... وها هي ذي أمامكم... فنظروها.. وحدثت نفســي.. (لا عليك)!... ســواء تفيض ملاحة وتســيل قبحًا. فإنهن يؤدين جميعًا الغاية المنشــودة!...) أليس كذلك يا صــاحب الســعادة؟!... كما أنها كانت عجفاء ضــامرة الجســد كأنها العصــا اليابســة... فســاورني خاطر (أنها لن تجاوز أربع لترات!...) إني خبير بهذه الأمور... فهي سر مهنتي!...

وقدمت لكم ما حدث.. لم نجردها من قميصــها وجوربها، لما تعمر به قلوبنا من الورع، وما تزخر به نفوســنا من الحياء.. مع ما في ذلك من خســارة لي... فلما بارحت (البرميل)... مرقت من بين أيدينا، وأطلقت لساقيها العنان تسابق الريح... فصحت مشدوهًا (و ي؟... برومنت... إنها تفر منا؟...) فأجابني في صــوت هادئ : (لا تحفل بأمرها... فلســوف تنكص على عقبيها ســريعًا.. فأمســك بها لك في هوادة... دعنا نحسب النقص!...).

فلم تتجاوز الدلاء أربعًا.. ها.. ها.. ها..!..)

وانطلق الســجين في ضــحك يهزه هزًا عنيفًا.. حتى ربث على ظهره جنديه الحارس في رفق... فثاب إلى هدوئه وفاء إلى سكينته، ثم استأنف حديثه :

(و صـــفوة القول.. لم تأت الأمور على ما يشـــتهي برومنت، فصايحنا، ودوي صراخنا!.. ثم تعطلت لغة العلام، فأمسك كل من بتلابيب الآخر يروم ضـــربه، وطرحه على الأرض.. كنا ســـكارى... فحسبنا أن عراكنا سيدوم إلى يوم الحشد!... حتى فرق بيننا صاحب الشـــرطة.. وقبض على كل منا وزج به الســـجن.. وإني لأطالب بالتعويض عما لحقني!..).

وارتد (كورني) إلى مقعده... فتهاوى عليه... وكان (برومنت) يومئ برأســـه بين الفينة والفينة مؤيدًا شـــريكه... معززًا لما جري على لسانه.

وغاب المحلفون ساعة يقلبون الرأي في روية، ويهيئون الحكم عن ســـــداد... وقد اكتنفتهم الحيرة... ثم أعلنوا للملأ براءة كلا السجينين... ولكنهم قرنوا ذلك بحد... هو أن الزواج رباط مقدس لا يبيح صفقات التجارة، ولا يحل فيه البيع والشراء!.

وانطلق (برومنت) إلى عش الزوجية، وزوجته في رفقته! وعاد (كورني) طليقًا إلى حانوته!...

الأنموذج

كانت بلدة (أترات) الهلالية الشكل ذات الجرف الأبيض، والبحر الأزرق والرمل الذهبي، تنام في هدوء تحت شمس شهر يوليو المشرقة، وقد برز على طرفي الهلال قوسان من الصخور مدليان على الماء السكن، أصغرهما واقع إلى الشمال كأنه قدم قزم، وأكبرهما إلى الجنوب كأنه ساق عملاق.

واحتشد الناس على طول الساحل راقدين على الرمل يتأملون المستحمين، وازدحمت شرفة (الكازينو) بالقاعدين أو السائرين المتنزهين، فبدت ملابس السيدات المزركشة ومظلاتهن الحريرية الموشاة كأنها حقل منسق الزهور. وأبتعد البعض عند آخر الشرفة يتجول هنا وهناك ويتمتع بالطقس الهادئ اللطيف بعيدًا عن ثرثرة البعض الآخر.

ومشى جان سمر الرسام الشاب المعروف بجانب مقعد متحرك يدفعه الخادم، جلست عليه زوجه المقعدة تحدق في حزن إلى صفاء السماء تارة، وإلى الحشد المبتهج الجالس تحت الشمس الزاهية تارة أخرى. كانا صامتين لا ينظر أحدهما إلى الآخر.

وأخيرًا قالت السيدة إلى زوجها - دعنا نقف هنا لحظة. كان كل من مر عليهما ويراهما صامتين ينظر إليهما نظرة إشفاق. كانوا يعرفون قصة غرامهما، تلك التي أصبحت أسطورة البلدة. لقد عقد عليها الرسام على الرغم من عاهتها.

وجلس على مسافة غير بعيدة منهما رجلان يتحدثان ويتطلعان إلى البحر، وتابع أحدهما حديثه قائلًا كلا، هذا غير صحيح. إني أعرف جان سمر جيدًا.

- إذا لماذا تزوجها؟ لقد كانت مقعدة عندما عقد عليها أليس كذلك؟

- أجل، أنها الحقيقة. لقد تزوجها... حسنًا... تزوجها كأي رجل يتزوج، لأنه كان مجنونًا.

- ولكن لا بد وأن هناك سببًا آخر.

- سبب آخر يا صديقي؟! لا يوجد هناك سبب آخر. إن الرجل مجنون لأنه مجنون. أنت تعرف أن الرسامين مشهورين بالغريب من الزواج. إنهم غالبًا ما يتزوجون الفتيات اللاتي يرسمونهم، وقد كن قبل الزواج خليلات لغيرهم من الرجال. أنهن سلع قديمة بمعنى الكلمة!.

لماذا يتزوجونهن؟ سؤال لا يستطيع أحد أن يجيب عليه إجابة شافية. وقد يظن المرء أن الاختلاط الدائم بهن يجعلهم يعافون مثل هذا النوع من النساء. ولكنه ظن غير صحيح. فانهم بعد أن يرسمونهن يتزوجونهن. حبذا لو قرأت كتاب (زوجات الفنانين) لألفونس دوديه إنه كتاب ثمين واقعي قاسي النقد.

إن زواج هذين الاثنين قد حدث بطريقة محزنة غير مألوفة. وفي الحق، لقد مثلت الفتاة مهزلة أو قل مأساة، وقامرت بكل شيء في ضربة واحدة. هل كانت تحب جان؟ لا يستطيع أحد أن يتكهن بذلك في مثل هذه الحالات. من ذا الذي يستطيع أن يتحدث عن

مقدار عنصر القسوة، ومدى عنصر الإخلاص اللذين يدخلان في أعمال المرأة؟ إنهن دائمًا لغز لا يستطيع الرجل حله. فنحن طالما نسأل أنفسنا. هل هن مخلصات، أم هن يغلبن علينا دورًا؟ يا رفيقي العزيز، إنهن مخلصات وغير مخلصات لأن ذلك جزء من طبيعتهن. فكر في الوسائل التي يتخذها أمهرهن للحصول على كل ما يرغبنه منا. أنها وسائل نستنتجها، وبسيطة لأننا بعد ما نقع في الشرك لا نملك إلا أن نتعجب دهشة ونسأل أنفسنا (حسنًا... هل هن حقيقة خدعتنا بمثل هذه السهولة؟ وهن دائمًا يسلكن الطريق الذي رسمنه لأنفسهن. خصوصًا عندما يرغبن في الزواج. على أية حال إليك قصة سمر).

(كانت الفتاة أنموذجًا عنده. وكانت حسناء ساحرة ذات جمال فتان. ووقع الرسام في شراك حبها كأي رجل يقع في حب فتاة جذابة كثيرة التردد عليه. وخيل إليه أنه يحبها حقيقة. إن تلك ظاهرة عجيبة. فإنه حالمًا يرغب رجل في امرأة يقتنع في قرارة نفسه اقتناعا تامًا أنه لا يستطيع من بعدها عيشًا. ولكن الرسام كان يدرك تمام الإدراك أن ما حدث قد حدث له من قبل، وأنه عندما تشبع الرغبة يعقبها التقزز. وكان يعرف أنه لكي يقضي سني حياته مع مخلوق بشري آخر، فإنها ليست العاطفة الحيوانية البدائية الزائلة هي ما يحتاج إليه، وإنما التشابه الروحي والتآلف في الشعور والطباع، وأنه يجب عليه أن يكون قادرًا على التمييز - وسط الجاذبية التي تؤثر عليه - فيما إذا كان ذلك الانجذاب نتيجة عوامل

طبيعية محصنة، أو هو نوع من الخيال، أو نتيجة اتحاد روحي متين.

ومع ذلك فقد ظن الرسام أنه يحبها، وتعهد مئات المرات وأقسم على الإخلاص لها وألا ينظر إلى امرأة غيرها وكانت في الحق رشيقة؛ رشاقة فتيات باريس. وكانت تثرثر وتتحدث بعبارات جنونية في صور مسلية. وتومئ إليه بحركات جذابة؛ وتف أمامه وقفات فاتنة تسر كل فنان.

ولم يدرك جان مدة ثلاثة أشهر بأنها في قرارة نفسها لا تختلف عن أية فتاة أخرى من طرازها. بل أستأجر لها دارًا في (أندرس) لقضاء فصل الصيف. وكنت هناك ذات مساء عندما ابتدأت أولى الشكوك تفرض نفسها فرضًا على نفس صديقي. كانت ليلة بديعة، فقررنا التنزه على ضفة النهر. وكان القمر يرقص على صفحة الماء المتألق، فتلألأ صورته بتأثير تيار الماء الجاري.

كنا نسير على طول الضفة، وقد تملكنا شعور مبهم من السعادة، تلك السعادة التي كثيرًا ما تغمرنا في مثل ذلك المساء الكامل. وشعرنا بأننا نستعرض منظرًا ساحرًا، وبأننا وقعنا في حب سماوي مع ما صورته لنا مخيلتنا الشاعرية. كنا ندرك في عجب هذه الأحاسيس الغريبة المثيرة. وسرنا صامتين متأثرين من هذا الهدوء وبهجة هذه الليلة. وظهر القمر كأن ضوءه يخترق ذاتنا؛ يخترق الجسد فيغرق الروح في حمام شذي من الرضا. وفجأة انفلتت من جوزفين - وكان هذا أسم الفتاة - صيحة وهب تقول - هل رأيت السمكة الكبيرة وهي تقفز هناك؟.

فأجاب الرســـام دون أن ينظر إليها أو يعي كلماتها - نعم يا عزيزتي.

ففقدت هدوءها وقالت : كلا إنك لم ترها؛ فأنت تستدبرها

فأبتســـم وقال : إنك على حق. إن المســـاء من الجمال حتى لا أستطيع أن أفكر إلا فيه.

فلم تفه بكلمة فترة من الزمن، ثم قالت أخيرًا وكأنها شـــعرت بأنها في حاجة إلى الكلام - ألن نذهب غدًا إلى باريس؟.

- لست أدري.

فقطبت قائلة - هل تعتبر ذهابك إلى نزهة دون أن نتحدث نوعًا من التسلية؟ حتى الأغبياء يتحدثون!.

فلم يجبها. ثم أدركت ببديهة المرأة المتمردة أنها أثارته، فطفقت تغني أغنية شائعة. فتمتم قائلًا - أصمتي أرجوك.

فردت في حنق - ولماذا أصمت؟

فأجاب - إنك تفسدين علينا لذة التمتع بجمال الليلة.

ثم حدث ما لا يســـتطيع تجنبه في مثل هذه الظروف، ذلك المنظر الكريه. ابتداء بتوبيخات أعقبتها اتهامات ثم بكاء. وأخيرًا عادا إلى الدار وتركها تصيح دون أن يقاطعها.

وظل ثلاثة اشهر يناضل في يأس في سبيل الفكاك من الأغلال التي كانت تقيده بها. وكانت قد اســـتغلت عاطفتها المســـيطرة عليه لتجعل من حياته بؤسًـــا وجحيمًا.. ولذلك كانا يتشـــاجران ليل نهار.. وأخيرًا قرر أن يضـــع حدًا لكل ذلك ويهرب... فباع لوحاته وأقترض مالًا وتركه وخطاب وداع على حافة المدفأة، ثم التجأ إلى منزلي.

وقبيل الساعة السادسة بعد الظهر قرع الجرس فذهبت وفتحت الباب... فبدأ لي وجه امرأة نحتني جانبًا ثم اقتحمت طريقها إلى مرسمي. كانت جوزفين. وهب الرسام واقفًا عند ما دلفت إلى الغرفة وألقت برسالته والنقود تحت قدميه في اشمئزاز ظاهر، ثم صاحت في جفاء - إليك نقودك -. لست في حاجة إليها.

كانت ترتجف وقد شحب لونها وهي في حالة تدفعها إلى ارتكاب أي شيء. أما الرسام فكان منفعلا شاحب الوجه غيظًا وكمدا. فسألها - ما الذي تريدينه؟.

فأجابت - إني لا أود أن تعاملني كعاهرة. لقد أردتني فاستجبت لرغبتك. ولم أطلب منك شيئًا. إنك لا تستطيع أن تندبني.

فضرب الأرض بقدمه وقال - كلا.. إن هذا لكثير. إذا كنت تعتقدين أن...

فأمسكت بذراعه وقلت له - لا تقل شيئًا يا جان. دع الأمر لي.

وجعلت أتحدث معها في لباقة، واستعملت كل ما وعاه عقلي من مناقشة خليقة بهذا الموقف، فأصغت إليّ دون أن تتحرك وهي تحدق أمامها صامتة عنيدة. أخيرًا بعد أن قلت كل ما استطعت قوله، وبعد أن أيقنت أنه لا توجد ذرة من الأمل في السلام، فكرت في إطلاق آخر سهم من جعبتي فقلت :

- إنه لا يزال يحبك يا عزيزتي. ولكن عائلته ترغب أن تزوجه. أنت تعرفين ما أعني.

فاضطربت وقالت - آه... لقد بدأت أدرك الآن.

ثم التفتت إليه وقالت - إنك.. انك ستتزوج؟ فأجاب قس شراسة - نعم.

وتقدمت خطوة نحوه ثم قالت - إذا تزوجت سأقتل نفسي. أتفهم ذلك؟

فهز كتفيه وقال - حسنًا... اقتلي نفسك.

أتقول... أتقول.. أعد ذلك مرة أخرى.

فردد قائلًا - حسنًا... أقتلي نفسك إن أردت.

فقالت وقد أزداد شحوب وجهها - لا تعتقد أني لا أعني ما أقوله. سألقي بنفسي من هذه النافذة. فجعل يضحك، ثم ذهب إلى النافذة، وفتحها. وأخيرًا انحنى لها في احترام قائلًا في أدب ساخر - من هذا الطريق... بعدك يا سيدتي.

فنظرت إليه هنيهة وقد ظهر وميض من الجنون في عينيها. ثم... ثم أسرعت كأنها في سبيل اجتيازها سياج حقل، وانطلقت أمامنا، ثم تخطت حاجز الشرفة، واختفت عن أنظارنا.

لن أنسي ما حييت تأثير تلك النافذة المفتوحة، عندما شاهدت الفتاة تسقط أمامي. وتراجعت بدون وعي إلى الخلف خشية أن أنظر إلى أسفل، كأني سأسقط أنا الآخر. ووقف جان دون حراك ينظر في ذهول.

وحملت الفتاة مكسورة الساقين، وأصبحت عاجزة عن السير بعد ذلك. وجن عشيقها تحت تأنيب ضميره. وكأنه شعر بأنه مسئول عما حدث، فعاد إليها وتزوجها.

... هذه هي القصة بحذافيرها يا صديقي)

كانت الشـــمس على وشـــك المغيب، وشـــعرت الفتاة ببرودة الجو، فرغبت في العودة إلى الدار. وأبتدأ الخادم يدفع المقعد صوب البلدة. وســـار الرســـام بجانب زوجه بعد أن مكثا ســـاعتين دون أن يفوه أحدهم بكلمة.

كتاكيت العم طون!

كان كل من يسكن حول مدينة (تورنفنت) يحب العم أنطوني مجيل، طوني السمين، طوني العزيز، أو طون، كما كانوا يسمونه عليه تحببًا!.

وطون هذا، رجل سمين، منفوخ البطن، أشبه ببرميل نبيذ، منتفخ الأوداج، أحمر الوجه، غائر العينين، لا تستطيع أن تعرف طوله من عرضه، ولا عاليه من سافله!.

وكان الناس يتساءلون في دهشة : كيف يستطيع الزبون أن يدلف إلى الحانة، والعم طون، قد وقف على بابها وسد الطريق؟!.

كان يبيع الكونياك، وكان ينادي على بضاعته بصوت ناعم - هنا يا رجال، تجدون أحسن أنواع الكونياك!.

وكال له زبائن يترددون على حانته، لا ليشربوا الكونياك فقط، ولكن ليستمعوا إلى نكات العم طون، ويأنسوا بظرفه، وخفة دمه، فالعم طون (ابن نكتة!) يستطيع أن يحمل حجارة القبر على الضحك!!.

كان من عادته أن يجلس مع زبائنه، يلتفون هم في حوله، وبأيديهم أكواب الخمر، يشربون، ويضحكون، فإذا وجد أن أحدهم لا يضحك لنكتة ألقاها، لكزه في بطنه ليحمله على الضحك! كان يلقي نكاته، ويسخر من هذا وذاك ولكن من غير أن يؤذي أحدًا، أو يجرح شعوره!.

من أجل هذه الروح المرحة، أحب الناس العم طون... أحبوه حبًا عظيمًا، ووفدوا عليه من ضواح بعيدة ليستمتعوا بنكاته، وليشربوا عنده ما فيه القسمة من أكواب الكونياك التي كان العم طون يقطرها بنفسه!.

وكثيرًا ما كان يقف على باب حانته، يحي هذا، ويهتف لذاك قائلًا : مرحبًا... مرحبًا يا ولدي!.

كان يدعو كل من يراه يا ولدي، ولكن الناس كانوا تسائلون في دهشة، لماذا لم يرزق العم طون أولادًا، وقد مضى على زواجه أكثر من ثلاثين عامًا؟!.

وقد يترامى إلى أذنيه هذا السؤال الحائر على شفاههم، فيغمزهم بطرف عينه. ويقول لهم هامسًا : إن زوجتي، هذه الدجاجة العجوز ليست من العظمة بحيث تستطيع أن تنجب عظيمًا مثلي!!.

وكانت زوجته تثور عليه، ولم تكن بأقل غرابة من زوجها، فقد كانت امرأة فلاحة، غليظة الطبع، حادة المزاج، لا تبدو إلا غاضبة، مكشرة، إذا مشت، فعلى رؤوس أصابعها، فتبدو، وكأنها تقفز قفزًا، واهتز أعلاها، وامتدت أردافها!.

وكانت على شجار دائم مع زوجها، وكان هو يخافها، ويتحاشى وقاحتها، ولكنه لم يكن يكف عن التحرش بها، ليضحك منها!.

وكان الزبائن يضحكون لهذا الشجار الدائم، ويغرقون في الضحك، حين يبدأ العم طون يسخر من زوجته! وتبلغ الضجة أعلاها، حين تشير الزوجة الهرمة إلى زوجها المنفوخ، وتقول :

صبرًا... صبرًا، أيها المتكرش الكسول، سيأتيك يوم تنفجر فيه هذه النفخة الكذابة... انك والله لرجل كسول، لا تصلح إلا لربطك مع الخنازير!!.

والعمة طون، مولعة بتربية الدجاج وتفريخها، وكان لها في هذا المضمار باع طويل وخبرة واسعة، ولم تكن لتخلو أكبر الموائد في باريس من دجاج العمة طون!.

على هذه الحالة مضى ركاب الزمن بالعم طون، يمزح ويمرح ويبيع الكونياك، حتى حدث أن أصيب بما أقعده عن العمل، وقلب حياته رأسًا على عقب!. دب الشلل في جسمه، ولم يعد يستطيع الحركة، فأعدوا له سريرًا في مكان يشرف على ما يجري في الحانة، وأرقدوه فيه.

وقلت نكاته، ولكنه لم يتخل عن مرحه وظرفه، فهو ما زال يبادل أصدقاءه النكات وهو راقد على ظهره!. كان يميز الأصوات فيعرف أصحابه!.

- مرحبا سلستين، يا ولدي... الست أنت سلستين؟

فيرد عليه سلستين : كيف حالك يا عم؟ أوه!... لم أعد أصلح للطراد أبدًا!!

وتثور العمة طون ثورتها المعهودة، وتقول : انظروا كيف ينام على ظهره كالثور العجوز، ولم يعد فيه نفع ولا فائدة!.

وكم يكون منظره مثيرًا للضحك حين يراها، وهي تقترب منه كالصاعقة، فينكمش في فراشه، خائفًا وجلًا من ضرباتها التي يتلقاها على بطنه الكبير، فيكون لها دوي الطبل!.

وذات يوم أراد أن يلعب أحد الزبائن دورًا مضحكًا، على هذه المرأة العجوز التي لا يعجبها العجب، أتدرين ماذا كنت أفعل لو كنت مكانك؟.

فرمته بنظرات خبيثة، وقالت له : ماذا كنت تفعل؟

فأجابها متكلفًا الجد : إن جسد العم طون أشبه بفرن تتأجج فيه النار، فلماذا لا تضعين تحته بعض البيض فيفقس كما تفعلين مع دجاجك؟! فهمست متعجبة : أيمكن هذا حقًا؟.

- ولم لا؟ ما الفرق بين أن نضع البيض في صناديق حارة وبين أن نضعه تحت فراش يبعث أكثر من هذه الحرارة؟.

- وراحت العمة طون تفكر في هذا الاقتراح، وتجهد عقلها المتحجر في التفكير في هذا الاقتراح العظيم!!.

وبعد ثمانية أيام، جاءت إلى زوجها تحمل عشر بيضات، وقالت له : لقد وضعت الآن عشر بيضات تحت دجاجتي السمراء، وهذه عشر بيضات أخرى، ضعها تحت ذراعيك، وحافظ عليها لئلا تنكسر! فصاح العم طون - ماذا تعني؟!.

- أعني أنك سترقد على هذا البيض كما نفعل مع الدجاج، وسننتظر ما يحدث!

ورفض العم طون بكل إباء وشمم، أن يرقد على البيض كدجاجة صغيرة، وحاول أن يحتج على تصرف زوجته، ولكنها صاحت فيه، ليس من المعقول أن تبقى هكذا نائمًا على ظهرك، تأكل وتشرب، ولا تنفعنا بشيء!!.

وأمام تهديداتها وغضبها الذي يتحاشاه، قبل العم طون أن يضع البيض تحت ذراعيه! وظل جامدًا في مكانه، لا يتحرك خوفًا على البيض أن ينكسر، وبدا عليه الاهتمام العظيم، وقد حمل الأمر على محمل الجد!.

وسرعان ما سرى النبأ بين الزبائن، فبدأ عليهم العجب، وراحوا يتساءلون، ترى كيف يفرخ الرجل!!.

وما كادت تبلغ الساعة الثالثة، حتى ساءت صحته، وبدا عليه ما يبدو على المرأة التي حانت ساعة وضعها، وتصبب العرق من جبينه، ولم يعد يسمع ضجة الناس المحتشدين في الحانة يترقبون حدوث الأعجوبة!.

وأقبلت العمة طون فرحة مستبشرة، وقالت : لقد فقست دجاجتي السمراء سبع بيضات، وفسدت ثلاث!.

فخفق قلب العم طون، وسأل نفسه : وأنا... كم من البيض سيفسد؟! وأحس بدغدغة تحت ذراعه الأيسر، فخفق قلبه، وبكل احتراس، مد يده تحت ذراعه، وقبض على شيء ناعم صغير، كان يحاول التملص منه بقوة، فخاف عليه، وأرخى أصابعه، فقفز على لحيته، ثم على صدره!.

كانت الحانة محتشدة بالناس، فلما رأوا الحيوان الصغير يقفز على صدر العم طون اندفعوا نحوه، والتفوا على شكل دائرة حول فراشه، وشقت الجمع المحتشد العمة طون، وأمسكت بالكتكوت الصغير، وهي أسعد ما تكون!! وصاح العم طون فجأة : وهذا واحد آخر يلعب تحت ذراعي اليسرى!.

وشـــمرت العمـة عن ذراعيهـا، واســـتعـدت كـأمهر قـابلـة، لاســـتقبال الكتكوت الجديد! وأخذ الحاضـــرون يفحصـــون هذه الكتاكيت في كثير من الدهشة والعجب والحيرة!.

وقفزت أربعـة كتـاكيـت أخرى، فـانتفخـت أوداج العم طون لهذا النصـــر الباهر الذي فاق به الدجاج الممتاز، العريق النســـب!. ثم صـــاح بصـــوت مرتفع في حين كانت زوجته قد حملت الكتاكيت لتعطيها لدجاجتها السمراء - وهذا واحد آخر...

وارتفعت ضجة العجب في جو الحانة... وأصر العم طون على الاحتفاظ بآخر الكتاكيت في فراشـــه... فقد كان يشـــعر بحب عميق لكتاكيته، كما تشعر المرأة نحو وليدها! ولكن العمة طون لم تقتنع، فأخذت منه الكتكوت الأخير بكل قســـوة، وأرســـلته لعناية دجاجتها السمراء!.

انصـرف القوم، وهم يفسـرون هذه الحادثة الغريبة في بابها، شـتى التفاسـير، فاقترب صـاحب الاقتراح الخبيث في أذن العم طون وهمس فيهـا : أتـدعوني لحفلـة العمـاد أيهـا العم... أليس كـذلـك؟! فأجاب العم طون طبعًا... طبعًا يا ولدي!.

الغريب...!

أخذنا بأطراف الحديث والعربة تغادر بنا مدينة (كان) زاخرة براكبيها، ولم نكد نتجاوز (بارسكن) حتى صاح أحدنا :

- ها هو ذا المكان الذي كانت تذبح فيه الناس!

فإذا بنا نخوض في أخبار الخرافات، ونتناول سيرة أولئك القتلة الذين كانوا - فيما مضى - يسلبون الناس أرواحهم ويغتصبون أموالهم. فراح كل منا يدلي بما يساوره من قصص، ويطرح ما يراوده من خواطر... وطفقت النساء يحملقن مروعات في ذلك الظلام الحالك من خلا النوافذ... يتوجسن خيفة أن تقع أبصارهن على رأس آدمي لدى الباب!.

وتأهب أحد الأطباء - وكان يشد رحاله إلى الجنوب كل عام إذا ما بدت تباشير الشتاء - ليلقي في أسماعنا واحدة من تلك القصص التي يكتنفها الغموض والغرابة :

(لم يسعدني الحظ يومًا لكي أبلو شجاعتي وأهجم جسارتي في أمر من هذا القبيل، إنما كنت على معرفة بسيدة قد طواها الموت وكانت ممن أعالجهن... حدث لها أمر من أغرب الأمور وأشدها حزنا في هذا الوجود..

(كانت روسية تدعى (الكونتس ماريا بارنوا)... وهي امرأة عظيمة ذات حسن ساحر وفتنة باهرة... وأنتم تدركون كم هن جميلات أولئك الروسيات بأنوفهن الرقيقة، وثغورهن الرشوفة،

وعيونهن النجل، وقدودهن الفضة. وما يبدين من الصلابة الإباء مع فيض من العذوبة والإغراء... فيهن كل ما يخلب لب الرجل الفرنسي ويثير افتتانه!.

(و كانت (الكونتس) فريدة بينهن، وقد فطن طبيبها منذ سنوات إلى الداء وهو ينهش في صدرها، فأخلص لها النصح في أن تسعى إلى جنوب فرنسا... بيد أنها أبت أن تبارح (سان بطرسبرج)، فانثنى الطبيب - في الخريف الماضي - فانذر زوجها بسوء المصير، فألح هذا على امرأته أن ترحل إلى (منتون) في فرنسا.

(فاستقلت القطار - منطوية على نفسها في عربتها - أما حاشيتها فقد أقامت في ناحية أخرى من القطار.

وران عليها الحزن واحتواها الشجن، وهي جالسة على كثب من الباب تلقي بطرفها إلى الحقول والقرى وهي تمر بها في إثر بعضها، وقد استشعرت ألم الوحدة، وأحست لذع الوحشة في حياتها وهي عاطلة من أطفال يملؤونها بهجة وبشرا، وخالية من ذي رحم يحيلها مرحًا وأنسًا... غير زوج ماتت في قلبه عواطف الحب، ونضبت منه عيون الحنان.. فلم يتورع أن يقذف بها في ركن قصي من العالم دون أن يصحبها كما ينبذون الخادم المريض في معزل عن الخلق!.

وكن تابعها (إيفان) ينزع إليها في كل محطة لينظر إن كانت سيدته تروم أي شيء فيؤديه لها، وكان رجلًا كهلًا شديد الإخلاص، مغلق القلب على الطاعة، سريعًا إلى إنجاز كل أمر تلقي به إليه...

وفجأة عن لها أن تحسب ما قدم لها زوجها - في اللحظة الأخيرة - من النقود الذهبية الفرنسية، ففتحت حقيبتها الصغيرة، وأفرغت في حجرها ذلك الفيض الأصفر الرنان!.

وعلى حين غرة أصابت وجهها نسمة قارصة من الهواء، فرفعت رأسها - وقد تولتها الدهشة - تستجلي الأمر، فإذا بالباب قد فتح، فلم تملك الكونتس المضطربة سوى أن تطرح غلالتها السمراء على ما في حجرها، ثم قبعت مترقبة!.

فلم تمض لحظات، حتى دلف من الباب رجل عاري الرأس، جريح اليد، لاهث الأنفاس، وأغلقه من خلفه، واستقر في مقعد يلقي إلى جارته بنظرات حادة، ثم لم يلبث أن لف منديلًا حول رسغه المخضب بالدماء!.

فأحست السيدة لفرط خوفها أنها تكاد تغيب عن وعيها، فلا مجال للريب في أن هذا الرجل قد لمحها وهي تحسب نقودها، فخف إلى سلبها... ثم... ثم يزهق روحها! إنه ما برح يحدجها بنظراته الثاقبة... مضطرب الأنفاس، مقطب السمات، يتربص بها الفرص حتى يثب عليها!.

قال بغتة : سيدتي... لا تخافي ولا تجزعي!

فلم تنبس ببنت شفة، وقد تحجر لسانها، وطنت أذناها، وازداد قلبها خفقًا!

واستطرد فيما يقول : ما أنا بشرير... أيتها السيدة!

فأمسكت على صمتها، ولكن حركت ساقها فجأة - وهي لا تدري - فأخذ الذهب يتدفق إلى الأرض كما يتدفق الماء من

الصـنبور... فمكث هذا الرجل يحملق حينًا وقد أخذته الدهشـة في ذلك السيل الذهبي، ثم لم يلبث أن انحنى يلتقطها ويجمعها!.

فهمت مروعة، وألقت بكل ما معها على البســاط، وهمت أن تجري تروم النجدة وتتوخى النجاة!.

ولكن الرجل - قد أدرك ما هي مقدمة عليه - قفز إليها وأطبق على ذراعها، ثم دفعها في غلظة إلى حيث كانت تجلس وهو ممســك برسغها... وراح يقول في صوت مرتعد النبرات : اصغي إلي يا سيدتي... لســت بشــرير، ولا معتد أثيم... والبرهان على صــدق ما أقول أني ســأجمع هذا الذهب وأرده عليك لا ينقص دانق، ولكنك إذا لم تكوني لي عونًا وملإذا حتى أعبر الحدود، فما أنا إلا رجل يســاق إلى موته، ولن أبوح لك بغير ذلك!.

ففي خلال ســاعة ســيمرق بنا القطار من الحدود الروســية، وحياتي معلقة حينئذ بين يديك رهن بمشــيئتك... ولا يذهب بك الخيال، وتتوزعك الوساوس، إلى أني سفكت دمًا، أو سلبت مالا، أو جئت أمرًا يخالف الشــرف ويدنس الضــمير... أقســم لك أني لم أجانف إثما ولم أقارف ذنبًا... ولكن لن أبوح لك بالمزيد!.

ثم ركع ثانية، وراح يجمع الذهب، حيث انتثر تحت المقاعد وفي ثنايا البســاط، حتى إذا امتلأت الحقيبة به مرة أخرى، ناولها لجارته في هدوء دون أن تنفرج شــفتاه عن كلمة يرددها... ثم انثنى إلى الركن الآخر من العربة فجلس فيه لا يحرك ســاكنًا! ومكثت هي جانحة إلى الصمت وقد لفها السكون... وما برحت الغشية تراودها

من أثر الخوف والرعب، وإن أفرخ روعها وبدأت نفسها تنزع عن الاضطراب ويطمئن قلبها رويدًا رويدًا!.

أما هو، فقد جلس لا يريم، ولا يختلج له طرف، وهو يحدق أمامه، شاحب الوجه، تعلوه صفرة كأنها صفرة الموت... وأخذت هي ترسل إليه - بين الفينة والفينة - نظرات عاجلة تختلسها اختلاسًا، وسرعان ما ترتد عنه... بدا الرجل وضيء الوجه منبسط السمات، عليه سيماء السيادة والنبل، وقد تجاوز عقده الثالث!.

وكان القطار ينساب في سرعة مخيفة خلال الظلمات الطامية، ويرسل بين آونة وأخرى صفيره الحاد يمزق هدأة الليل بحدته! ولكن ما لبث أن خفف من سيره... ثم سكنت حركته بعد أن زفر بعض الصفيرات... فلما برز (إيفان) من الباب، ألقت (الكونتس ماريا) نظرة عجلي على رفيقها، ثم قالت لخادمها في صوت خافت ونبرة سريعة : (إيفان سوف تعود إلى الكونت، فما بي حاجة إليك!).

فحملق فيها الرجل بعينين واسعتين يتراقص فيهما الاضطراب وقد تجلت على وجهه الحيرة، وأرتج على لسانه القول : (و لكن يا سيدتي!) فأجابته :

- (كلا... لا تصحبني... فقد غيرت من فكري ورجعت عن رأيي... ومن الخير أن تبقى في روسيا... إليك بعض النقود لتعود بها، وناولني قبعتك وعباءتك!).

فخلع الخادم في جزع ودهش قبعته وعباءته دون أن ينبس بسؤال يستجلي به الأمر، فقد عودته التجارب وعلمته الأيام أن

يطيع أهواء سادته ويجيب نزواتهم ولو كانت غريبة مباغتة، ثم أرتد على أعقابه مغرورق العنين بالدموع!.

ولم يلبث القطار أن أندفع يطوي الأرض شطر الحدود. فقالت (الكونتس ماريا) لرفيقها : (إن هذه الأشياء لك - أيها السيد - أنت الآن (إيفان) خادمي... ولا أروم إزاء ذلك سوى شرط واحد، هو ألا تحدثني بكلمة، ولو كانت تحمل معنى الشكر!). فانحنى الرجل في رقة دون أن ينبس ببنت شفة!.

ثم عاد القطار إلى الوقوف ثانية، وصعد إليه نفر من الضباط في أرديتهم الرسمية، فمدت لهم الكونتس يدًا بأوراقها قائلة - وهي تومئ إلى الرجل في مؤخر العربة - :

(ها هو ذا خادمي إيفان وأوراقه هنا!)

انطلق القطار في سيره من جديد، وقد جلس كلاهما غير بعيد من الآخر، والليل يضمهما، والصمت يحتويهما، حتى إذا انسلخ نور الصبح من دياجير الليل، وقف بهما القطار في محطة ألمانية، فنهض الرجل المجهول، وقام إلي قائلًا في صوت هادئ رقيق :

- معذرة يا سيدتي إن أخلفت ما كان من وعدي، يبدو أني قد حرمتك من خادمك، فلا أقل من أن أحل مكانه، أما تعوزك حاجة؟!.

فأجابته في فتور : اذهب وادع وصيفتي!

فمضى ثم طواه الخفاء، ولم يقع عليه طرفها بعد ذلك إلا حينما كانت تتناول غداءها في إحدى المحطات وهو يرمقها من بعيد، ثم أخيرًا في (منتون) حيث استقر بها النوى!.

وثاب الطبيب إلى صمت هنيهة، ثم وصل ما انقطع من حديثه قال :

(و ذات يوم، بينما كنت أتلقى مرضـــاي في عيادتي، دخل علي شـــاب فارع القامة وســـيم المحيا وســـألني في هدوء وســـكينة : (أيها الطبيب، لقد أقبلت متقصـــيًا أخبار الكونتس ماريا بارنوا! إني من أصدقاء زوجها، وإن كانت لا تربطني بها معرفة!).

فأجبته : (لقد أفلت الزمام من يدها، ولن تطأ أرض روســـيا بعد الآن!)

فإذا بي أرى الرجل يغرق في البكاء، ثم مضـى في ســبيله يترنح كمن ذهبت بلبه الخمر! وقد أخبرت (الكونتس) في المســـاء بما كان من شـــأن ذلك الرجل الغريب، فهزت رأســـها وقد لاحت على وجهها ســيماء التأثر... ثم أخبرتني بتلك القصـة التي رددتها على أسـماعكم لتوي!.

ثم أضـــافت قائلة : (إن هذا الرجل الذي لا أدري عنه شـــيئًا. يتبعني الآن كظلي!. ولا أكاد أخرج يومًا حتى ألتقي به... فينظر إلي في رقة ونبل... بيد أنه لم يحاول أن يخاطبني أبدًا!...

وران الصمت عليها حينًا، وهي تحاول أن تجمع شتات فكرها.. ثم قـالـت : (تعـال... ســـأراهنك على أنـه قـائم تحت النـافـذة في هـذه اللحظة!.).

وغـادرت كرســـيها الطويـل، وخطت إلى النـافـذة.. ثم أزاحـت الســـتار عنها، وجعلتني أرى ذلك الرجل الذي أتاني في الصـــبيحة. جالسًـا على مقعد في الروضـة أمامنا.. يمد بصـره إلى المنزل.. فما إن

وقع بصره علينا - ونحن في النافذة - حتى نهض من جلسته، ومضى في الطريق لا يلوي على شيء، حتى غاب عن ناظرينا!..

وحينئذ فطنت إلى شيء عجيب يبعث الحزن ويثير الإعجاب. لقد أدركت سر ذلك الحب الصامت الذي توثقت عراه وتمكنت وشائجه بين هذين المخلوقين اللذين جهل كل منهما صاحبه كل الجهل!..

إنه يهيم بها ويعبدها عبادة خالصة، ويود أن يفديها بحياته. فكان يقبل علي في كل صباح يسألني : (كيف حالها؟!.) وهو على يقين من أني أدرك مدى أحاسيسه ومشاعره... ثم ينشج في نحيب وجزع وقد أسدل على وجهه راحتيه... كلما أحس بأنها تزداد ضعفًا وتشتد نحولًا... وقد ثقلت عليها وطأة العلة.

قالت لي يومًا :

(إني لم أخاطب ذلك الرجل العجيب سوى مرة واحدة. ولكن يبدو الآن كأني أعرفه منذ عشرين سنة...) وحينما التقت به ردت على انحناءته الرقيقة؛ بابتسامة أضاءت على ثغرها، وفاضت على صفحة وجهها! وقد أحست - على الرغم خطاها السريعة إلى القبر - أنها سعيدة كل السعادة هانئة كل الهناء بذلك الحب الذي يفيضه عليها هذا الإنسان ويغمرها به في وفاء نبيل وإخلاص شاعري... يكاد أن يذهب بنفسه كل مذهب!. ولكنها أبت أن تعرف اسمه ورفضت أن تخاطبه وهي.. تردد : (كلا... ثم كلا... أن هذا سوف يمحو تلك الصداقة الغريبة بيننا... ويفسدها.. ينبغي أن يظل كل منا جاهلًا صاحبه. قريبًا إليه بقلبه بعيدًا عنه بلسانه!).

أما هو، فقد كبت نفسه وراضها على ألا يدنو من صاحبته... وحزم أمره على أن يفي بعهده الذي قطعه على نفسه في العربة وهو ألا يكلمها أبدًا... وقد كانت هي خلال الساعات الطوال التي يشتد بها الوهن عليها ويضيق صدرها بالحياة... تنهض عن مقعدها وتسعى إلى النافذة فتزيح ستارها... حتى تنظر إن كان تحت النافذة؟! فإذا اطمأن بصرها إليه وهو جالس على مقعده لا يريم... انثنت إلى فراشها، وقد انفرجت شفتاها الذاويتان عن ابتسامة رقيقة!..

وأشرقت عليها الشمس ذات يوم جسدًا بلا روح، وقد طوى الموت صفحة حياتها!.. وبينما كنت أهم بمغادرة البيت... أقبل على الرجل شاحب الوجه زائغ العنين، وقد تجلى على محياه أنه علم بوفاتها منذ لحظة.. وابتدرني قائلًا في صوت كله رجاء وتوسل : (كم أود أن أراها ولو لحظة في حضرتك!) فأخذته من ذراعه ودلفنا إلى المنزل معًا. فلما بلغنا حيث سجيت السيدة الميتة. ركع إلى جوارها في خشوع، وأمسك بيدها في رفق، وطبع قبلة طويلة حارة تبللها الدموع... ثم انقلب على أعقابه... وانطلق في سبيله... وكأنما تجرد من مشاعره وتعطل من أحاسيسه!..

وخيم الصمت برهة على الطبيب! ثم عاد الحديث : (إن هذه الحادثة هي أغرب ما مر بي من الحادثات. بل لعلها الوحيدة التي تظهر لكم الناس... وما هم عليه من غرابة وجنون!..) فتمتمت إحدى النساء في نبرة خفيضة : (لم يكن هذين المخلوقان سادرين في جنونهما كما تذهب بك الظنون... بل إنهما كانا! إنهما كانا!..).

بيد أنها لم تمض في عبارتها... فقد شرقت بالدموع! ولم يدرك أحد منا ما كانت ترمي إلى قوله... إذ حولنا دفة الحديث لنهدئ من روعها وننزل على قلبها السكينة.

روز...!

الفتاتان تبدوان للعين غاصتين في فراش من الزهور، وحيدتين في عربة فارهة قد اكتظت بطاقات الزهر، فهي أشبه بسلة مفرطة في الضخامة، وعلى المقعد الخلفي سفطان صغيران قد ملئا بزهور البنفسج (النيسيّ)، وفوق فراء الدب الذي يغطي الركبتين أكداس من الورد والزهور الأقحوان والزنبق والبرتقال، شد بعضها إلى بعض بأشرطة من الحرير يخيل إلى الظن إنها ستصهر الجسدين الناعمين... ومن الفراش المعطر في العربة الفسيحة لم يكن يظهر من كلتيهما غير الكتفين والذرعين، وجزء صغير من نطاقين يلتفان حول الخصر النحيل أحدهما أزرق اللون بينما الآخر في لون البنفسج!.

وتظهر إلى سوط السائق فتراه وقد لف بغطاء من زهور الأنيمون، بينما ازدانت رءوس الخيل بزهور الزينة واكتست العجلات بثوب من زهور الخزامي... وفي مكان المصابيح طاقتان من الزهر مستديرتان كبيرتا الحجم، أشبه بعينين تطلان من وجه هذا الحيوان الغريب المتدحرج على الأرض في هيكل من الزهور! وتندفع العربة إلى شارع (أنتيب) خفيفة الركض، يحف بها من الأمام والخلف والجانبين جمع من العربات المكللة بالزهور تحمل نساء قد اختفين تحت لجة من بنفسج... أنه عيد الزهور في (كان).

وانتهى بهن المطاف إلى شـــارع (بوليفار)، وعلى طول الطريق من الشـارع الضخم كان هناك صـف مزدوج من العربات المزركشـة يروح ويجيء كخيط بلا نهاية... ومن عربة إلى أخرى رحن ينثرن زهورًا تشـــتق الفضـــاء كالكرات، ثم ترتطم بالوجوه المشـــرقة، ثم ترفرف بـالهواء وتســـقط على الأرض حيـث يلتقطهـا جيش من الصـــبيـة الصـــغار. وأصـــطف على الجانبين حشـــد كثيف من النضـــارة يثير الضـجيج ولكن في شـيء من النظام، لقد بقي كل في مكانه بفضـل الجنود وهم يعبرون الشـــارع على ظهور الخيل، ويدفعون بأقدامهم أصـحاب الفضـــول في عنف إلى الوراء، حتى لا يختلط الأوشـــاب بأصحاب الثراء. ومن داخل العربات راح كل راكب يتطلع إلى صاحبه وينـاديه ويطلق عليه قذائف من الورد. وها هي ذي عربة قد غصـــت بالفتيات الأنيقات في ثيابهن الحمر كالشـــياطين تتعلق بها الأنظار، وتنظر فترى أحـد الفتيـان في ثيـاب هنري الرابع يقـذفهن في نشـــوة الشـــوق بطاقة ضـخمة من الزهر في غلاف من (المطاط)، يقذفهن مرة بعد مرة، وكلما هم خفضت الفتيات رؤوسهن وأخفين عيونهن، ولكن القـذيفـة الرشـــيقـة تنطلق في انثنـاء ثم لا تلبـث أن ترتـد إلى صاحبها ليقذف بها ثانية إلى وجه جديد!... ويستمر الموكب في طوافه ســـاعة من الزمن يعتري الفتاتين بعدها شـــيء من الفتور، فترغبان إلى السـائق أن يلتمس طريقه إلى خليج (جوان).

وغابت الشـمس وراء (الإستريل)، مخالفة ظلالها القاتمة فوق أرض من اللهب، عل القطاع الجانبي من الجبل الممتد عبر الفضـاء. وأنبسـط البحر السـاكن أزرق صافيًا على مدار الأفق البعيد، هناك

حيث يمتزج بالسماء، ويمتلك الجماعة التي التقت مراسيها وسط الخليج كقطيع من الحيوانات الغريبة، تلك التي تظل فوق سطح الماء جامدة بلا حراك... حيوانات من عالم الغيب تقوست منها الظهور وتدثرت بدروع من الزرد، واتخذت غطاء الرأس من عوارض رقيقة كريش الطير، ولها تلك العيون التي تقدح الشرر حين يهبط الظلام!.

وانتثرت الفتيات تحت سماء أشبه برداء فراؤه السحب، ورحن يتطلعن إليها من استرخاء ثم همست إحداهن قائلة :

- لله ما أرق هذه الأمسيات!... ألا ترين أن كل شيء يبدو جميلًا يا مارجو؟

- بلى، كل شيء جميل ولكن... ألا تشعرين أن هناك شيئًا ما ينقصنا دائمًا؟

ما هو؟ من جانبي، أنني لأحس السعادة كاملة فلا ارغب في شيء!

- نعم؟ هكذا تظنين، ربما... ولكن مهما كانت السعادة التي تحيط بأجسامنا، فإننا نرغب فيما هو أكثر في هذا الشيء الذي يسعد القلب! وقالت الأخرى وهي تبتسم : قليل من الحب؟ فأجابت : نعم!.

وساد بينهن الصمت، ورحن يرسلن البصر مستقيمًا إلى الأمام، وعندئذ هتفت إحداهن وتدعى مرجريت :

- الحياة... إنها لا تبدو لعيني محتملة بغير حب. لكم أشـــتهي أن أحب... ولو من كلب! هكذا نحن جميعًا مهما خطر لك من فنون القول يا سيمون!.

وصاحت سيمون قائلة :

- كلا كلا يـا عزيزتي، أنني لأوثر ألا أحـب على الإطلاق على أن أحـب من شــخص لا خطر لـه! هـل تظنين مثلًا أنـه قـد يكون من الملائم لي أن أحب من... من...

وتطلعت ســيمون إلى من تســتطيع أن تظفر بحبه، وألقت ببصرها إلى الفضاء المجاور، وبعد جولة طوت بها كل جنبات الأفق، هبطت عيناها على زرين من المعدن يتألقان على ظهر الســائق، واستمرت في حديثها ضاحكة :

- من... من سائق عربتي؟!

وأجابت مرجريت وقد لاح على شفتيها ظل ابتسامة :

- أســتطيع أن أؤكد لك أنه ما من شـيء يبعث على التســلية مثل أن يقع خادم في حبك... لقد جربت ذلك مثنى وثلاث!.

ودرن بعيونهن شـــاخصـــات، إلى تلك التي كادت تموت من الضحك... واسترسلت مرجريت قائلة :

- من الطبيعي أن تلك التي تلقى المزيد من الحب تصــبح وهي أكثر النسـاء قسـوة. وعلى النقيض تلك التي تزج بنفسـها في طريق لا تجني منه غير السخرية، لسبب تافه يستطيع أي إنسان أن يلحظه!.

- وأرهفت سـيمون سـمعها وألقت ببصـرها إلى الأمام ثم قالت معقبة :

- كلا يا مرجريت، أن قلب خادمي ينقع لي غلة ما دام تحت قدمي... ولكن هل خبرتني كيف أدركت أنهم قد وقعوا في حبك؟.

- لقد أدركت ذلك منهم كما أدركته من الآخرين... ولذا فهم يصبحون في نظري أغبياء!.

- ولكن الآخرين لا يبدون لي أغبياء عندما يقعون في الحب!

- بلهاء يا عزيزتي، عاجزون عن الكلام، عاجزون عن الجواب، عاجزون عن فهم أي شيء! - وأنت؟ ما الذي أثر فيك حتى وقعت في حب خادم؟ أكنت مسيرة بدافع الملق؟.

- مسيرة! كلا! ملق؟ نعم! قليل من الملق... أن كل فتاة ليسعدها الملق دائمًا إذا ما أحبها رجل، مهما كان هذا الرجل!.

- أوه... الآن جاء دورك يا مرجو!

- نعم يا عزيزتي، انتظري... سأقص عليك نبأ مغامرة فريدة وقعت لي، وسترين كيف أن أشياء بالغة الغرابة تحتل مكانها من حياتها في أحوال مماثلة!... كان ذلك في الخريف منذ أعوام أربعة، عندما ألفيت نفسي وحيدة بلا خادمة. لقد جربت من الخادمات عددًا من الخادمات يربى على الخمس، جربتهن واحدة بعد أخرى ولكنهن كن جميعًا لا يصلحن لشيء. ولقد تملكني اليأس من أن أعثر على واحدة، حتى وقعت في إعلانات إحدى الصحف على خبر فتاة صغيرة تبحث عن عمل، فتاة تجيد الحياكة، وتجيد التطريز، وتجيد تصفيف الشعر، وتستطيع أن تقدم خبر الشهادات على تتمتع به من خبرة وكفاية، وهي في الوقت نفسه تحسن التحدث بالإنجليزية.

وكتبت إلى الصحيفة على العنوان الذي قرأت، وفي اليوم التالي حضرت الفتاة لتقدم نفسها إلي. كانت أقرب إلى الطول، رقيقة البدن، شاحبة اللون، ينم مظهرها عن خوف بالغ. لها عينان سوداوان جميلتان، عينان تنفثان السحر، حتى لقد راقت لي على الفور. وسألتها عما تحمل من شهادات فقدمت إلي واحدة مكتوبة بالإنجليزية، لأنها جاءت - كما قالت لي - من بيت السيدة (رزويل) حيث طوت من عمرها عشرة أعوام... كانت الشهادة تقرر أن الفتاة قد عادت إلى فرنسا بمحض رغبتها الشخصية، وإذا كان هناك شيء تستحق عليه اللوم في خلال خدمتها الطويلة للسيدة (رزويل)، فهو هذا الشيء اليسير من (الدلال) الفرنسي!.

وابتسمت قليلًا وأنا ألمح ما وراء العبارة الإنجليزية من تورية مهذبة، ولكنني تعاقدت مع الفتاة على الفور وحضرت إلى بيتي في نفس اليوم، وكانت تسمي نفسها (روز).

وجاء علي يوم أحببتها فيه إلى الحد الذي ينقلب معه الحب إلى عبادة... لقد كانت كنزًا من الكنوز، لقد كانت درة من الدرر، لقد كانت ظاهرة من ظواهر الطبيعية. كانت في تصفيف الشعر صاحبه ذوق شائق، وفي تثنية شريط (الدنتيلا) على غطاء الرأس أكثر دراية من خير الممتهنات، وكانت تجيد حياكة (الفساتين)... أبدًا لم أرى لها مثيلًا في خدمتها لي!.

كانت تساعدني في ارتداء ملابسي في سرعة فائقة، وخفة يد تثير العجب، ما شعرت أبدًا بمر أناملها على بشرتي الرقيقة، ولا شيء يبدو لي خاليًا من اللياقة مثل أن تلمسني يد خادمة!..

وانغمســـت على الفور في عـادات تميز بـالإفراط في البطالـة، فلكم كنت أشــعر بالســرور حين أدعها تدثرني من الرأس إلى القدم، من القميص إلى القفـاز، هـذه الفتـاة الطويلـة، الخـائفـة، التي تخجـل كثيرًا ولا تتكلم أبدًا! وبعد الاســتحمام قد تجففني، وتدلكني بينما أكون على أهبـة النوم أو مضــطجعـة على الأريكـة... وعلى مر الأيام بدأت أنظر إليها كصديقة بائسة أكثر ما أنظر إليها كخادمة!.

وذات صــباح أقبل البواب في مظهر يثير الظنون، معلنًا عن رغبته في التحدث إلي، واســتولت علي الدهشــة ولكنني أذنت له في الدخول.

كان جنديًا كهلًا يبدو عليه التردد في الإفصــاح عما يريد أن يقول.. وأخيرًا همس في صوت متلعثم :

- ســيـدتي، أن ضــابط بوليس المنطقـة موجود في الطـابق الأسفل

وقلت متسائلة : ماذا يريد؟

- أنه يريد أن يفتش البيت!

حقًـا أن رجـال البوليس ضــرورة لازمـة ولكنني أمقتهم... ولا أستطيع أبدًا أن أعرف بأنهم يزاولون مهنة شريفة! وأجبت في صوت ألهبته الكرامة الجريحة :

لمـاذا يفتش هنـا؟ لأي غرض؟ أننـا لا تعرف الســطو! ورد الحارس قائلًا :

- أنه يعتقد أن أحد المجرمين يختفي هنا في مكان ما.

وبدأت أشعر بشيء من الرهبة، وأمرت بأن يصعد إلى ضابط البوليس عسى أن أظفر منه بشيء من الإيضاح... كان رجلًا جم الأدب يزدان صدره بوسام (اللجيون دونير). وبدأت أحدثه معربًا عن أسفه، مقدمًا اعتذاره، مؤكدًا أن هناك مجرمًا بين ما لدى من خدم.

وكدت أصعق، وأجبت بأني أستطيع أن أشهد لكل واحد منهم، بل وينبغي أن أقدمهم لديه مستعرضة ليقتنع.

هناك (بير كورتان)، جندي كهل... ليس هو سائق العربة (فرانسيس بنجو)، مزارع، أبن الشرف على مزارع أبي.. أنه ليس هو.

صبي يعمل في الحضيرة، شمباني، من أبناء مزارعين أعرفهم... ليس هو.

ولا أحد بعد ذلك غير هذا الخادم الذي تراه... أنه ليس واحداً من كل من ذكرت. وإذن فأنت ترى انك قد خدعت يا سيدي.

- معذرة يا سيدتي، ولكنني واثق من أنني لن أخدع : هل تسمحين بأن يكون استعراضك لخدمك عن طريق إحضارهم هنا ليظهروا أمامي وأمامك، كل خدمك بلا استثناء؟.

وترددت بادئ الأمر، وأخيرًا أذعنت، ولم أرى بدًا من استدعاء كل الخدم رجلًا ونساءً.

وتفحصهم جميعًا في لحظة ثم أوضح : أنهم ليسوا كل الخدم وأجبت قائلة : معذرة يا سيدي، ليس هناك غير خادمتي الخاصة، تلك التي لا يمكن بحال أن تخلط بينها وبين أحد المجرمين!.

- هل أستطيع أراها أيضًا! - من غير شك!

وغمزت الجرس فظهرت (روز) على الفور : وفي اللحظة التي دخلت فيها الفتاة أرسل الضابط إشارة إلى رجلين قد كانا وراء الباب فلم تقع عليهما عيناي، وألقي الرجلان بثقليهما فوق الفتاة ثم أمسكا بيدها. وشدت أحدهما إلى الأخرى بالقيود!.

وأطلقت صرخة غضب، ورحت أحاول الدفاع عنها ولكن الضابط أوقفني قائلًا :

- هذه الفتاة يا سيدتي ليست إلا رجلًا يسمى نفسه (جان نيكولا ليكابيه)... حكم عليه بالإعدام لإقدامه على جريمة قتل سبقتها جريمة هتك عرض، ثم استبدلت العقوبة بالسجن مدى الحياة. لقد فر منذ أربعة أشهر، ومنذ ذلك الحين ونحن نجد في البحث عنه.

أصابني الفزع، وعقلت الدهشة لساني، ولم أستطع أن أصدق... وأستمر الضابط في حديثه ضاحكًا :

- أستطيع أن أقدم لك دليلًا واحدا، هو أن هناك وشمًا على سأعده الأيمن وتحققت من صدق هذا القول عندما كشف عن سأعده، ولكن ضابط البوليس أردف في لهجة نيابة :

- ليس من شك في أنك غير محتاجة إلى الإقناع عن طريق الأدلة الأخرى؟

قالها ثم انصرف مصحوبًا... بخادمتي!

صدقيني أن أقصى شعور تملكني هو شعور الغضب من أن يغرر بي على هذا الوجه، وأن أخدع، وأن أعرض للسخرية : وصدقيني أنه لم يكن شعورًا بالخزي أن يلمسني ذلك الرجل، وأن

يمســكني بيده، وأن أبدو أمامه عارية وكاســية، ولكنه كان شــعورًا آخر... شــعورًا عميقًا بالضــعة : ضــعة امرأة! ترى هل فهمت ماذا أقصد؟.

- كلا، لم أفهم تمامًا ماذا تقصدين!

فكري هنيهة... لقد أدين ذلك الرجل لأنه قد اقدم على هتك عرض... وهذا هو الشــيء... الشــيء الوحيد هناك... الذي أشــعرني بالضعة! ترى هل فهمت الآن؟.

ولم تجب ســيمون، بل راحت ترســل البصــر مســتقيمًا إلى الأمام إلى حلة الســائق حيث ثبتت عيناها في زرين يتألقان، وعلى شــفتيها تلك الابتســامة الغامضــة التي تعرفها الغانيات.... في بعض المناسبات!!.

الصورة...

سـمعت من يقول لصـديقه، وهما على مقربة من مجلسـي... أنظر... ها هو ذا ميليال!

واتجهت إلى هذا الذي يشيرون إليه بإعجاب ودهشة، إذ أنني كنت في شـوق للتعرف على هذا الرجل الذي تعبده النسـاء... هذا الرجل الغريب، الذي تتهالك عليه بنات حواء!.

كان قد تجاوز سـن الشـباب بقليل، يبدو للعين في هيئة غريبة، غير مألوفة، فشـعره غزير، ينسـدل حتى كتفيه، ويغطي رأسه حتى ليبدو وكأنه قبعة جلدية كتلك القبعات التي يلبسها أهل الشمال! ولحيته ناعمة، طويلة، تداعب صدره، وكأنها قطعة منتزعة من فرو معطف نسائي جميل!.

رأيته يتحدث لامرأة، وفي حديثه كثير من اللطف والرقة، قد أحنى جذعه في احترام، وهو يوجه إليها نظرات لطيفة إذا استطعت أن تدرك منها شـيئًا، فإنما أنت تدرك، عاطفة فيها مزيج من الحنان والعطف والاحترام!.

كنت قد سـمعت طرفًا من حياة هذا الرجل... وعرفت أن يضـع نسـاء قد أحببنه حتى العبادة، وتفانين في حبه إلى حد لا يتصوره العقل، وسـمعت اسـمه يتردد في كثير من قصـص الحب، فكنت إذا ما سـألت أولئك النسـوة اللوائي كن يطنبن في مدحه، ويندفعن في التحدث عن سجاياه، وعن سر سحره الذي يسحرهن

وجاذبيته التي تجذبهن، كن يجبنني بعد تفكير عميق، وتأمل طويل، بأنهن لا يعرفن هذا السحر. ولا يدركن لهذه الجاذبية سرًا.. كل ما يعرفن، أنهن ينجذبن له لأول نظرة، وينسحرن بسحره لأول لقاء!.

وأستطيع الآن، وبعد أن رأيته، أو أؤكد أنه لم يكن جميلًا، كما أنني أستطيع أن أقول، وأنا لا أتجنى عليه، أنني لم أجد فيه شيئًا من تلك الخصال التي يتصف بها عادة، أولئك الرجال الذين يجتذبون إليهم قلوب النساء، لذلك رحت أتساءل في دهشة عن سر هذه الجاذبية. أهو كامن في ذكاء الرجل؟... ولكني لم أسمع من يمتدح فيه الذكاء!... أهو مختف في مظهره؟... ربما!... ألا يمكن أن يكون مكمن السر في صوته؟... وإنما هنالك غيره من يمثلك مثل هذا الصوت، المشحون بالرقة، والحنان، والعذوبة!.

ومر أحد معارفي، فاستوقفته، وسألته - أتعرف السيد ميليال؟

قال في دهشة - نعم!

قلت في رغبة واندفاع - أرجوك... قدمني إليه.

وبعد دقيقة... دقيقة واحدة فقط، كنا نتصافح، ونتجاذب أطراف الحديث!

كان حديثه مرحًا، هادئًا، متزنًا. وكان صوته جميلًا، رقيقًا ناعمًا. إلا أنني سمعت من قبل أصواتًا أكثر تأثيرًا في أذن السامع، وأشد وقعًا في نفسه... سمعت أصواتًا تبعث السرور، وتنشر في النفس الحبور... سمعت أصواتًا لا تجهد في تتبع معانيها، تنساب من الشفاه سهلة، لينة، غير معقدة ولا متشابكة.

وبدا لي حديثة طبيعيًا. لا ينبه الشعور بالملل. والمتحدث إليه يشعر بأنه يبادله الحديث في سهولة وبساطة. وأن الألفاظ تنساب من فمه بسهولة، ومن غير تفكير أو عناء!.

ومع أن المدة التي مضت لتعرفي عليه لم تزد على الربع ساعة، إلا أنني وجدت نفسي، وكأنني أعرفه منذ ربع قرن!... شعرت نحوه كما أشعر نحو صديق قديم. أفكاره، وحركاته ونزعاته، لم تكن غريبة عني. في هذه الفترة القصيرة من الزمن، شعرت وكأن كل ذلك التكلف والتحفظ، وكل تلك الحواجز والعادات التي تقف عادة بين الناس، قد انهارت كلها مرة واحدة، وتداعت من أساسها!... والمعروف أن تلك الحواجز والعادات، وذلك التكلف والتحفظ لا تسقط بين الناس مرة واحدة، وإنما تسقط تدريجيًا الواحدة بعد الأخرى. تسقط مع مرور الزمن. وتوطد أركان المعرفة، وتوثق عرى الصداقة.

وافترقنا بعد أن أعطاني عنوان بيته، ودعاني لتناول الغذاء عنده في اليوم التالي. إلا أنني نسيت الموعد بالضبط حين ذهبت إليه في اليوم التالي، ووصلت قبل الموعد فلم أجده هنالك. فاستقبلني خادم صموت، قادني إلى غرفة الاستقبال، حيث جلست على مقعد وثير وكأنني في بيتي!.

إن مشاعر المرء لتختلف بالنسبة للغرف التي يدخلها... بعضها يشعرك بالضيق. وبعضها يشعرك بالكآبة، والبعض الآخر منها يشعرك بالبلادة!... أن عيوننا كقلوبنا ترتاح لأشياء وتشمئز من أشياء أخرى!.

وأخذت أنظر إلى ما يحيطني. وأتأمل فيما يدور حولي. فلم أجد ثمة شيئًا غير مألوف، فالأثاث بسيط يغلب عليه القدم. والستائر من حرير شرقي ناعم. وفي صدر الغرفة، في مواجهتي صورة لامرأة متوسطة الحجم، يظهر منها الرأس والقسم الأعلى من الجسد... وبيدها كتاب.

كانت المرأة في مقتبل العمر حاسرة الرأس. وكان شعرها الناعم مرتبًا في بساطة، يبدو على شفتيها طيف ابتسامة حزينة كئيبة. والصورة طبيعية لا أثر للتكلف والتصنع فيها.

إن ما رأيته من صور قبل الآن، كانت البهرجة تغلب عليها بوضوح، حلي، وجواهر، ولباس أنيق، وشعر مضفور في عناية. فكانت تلك الصور تشعرني لأول وهلة، أن صاحب الصورة قد تصنع كل ذلك التصنع لأنه كان يعلم سلفًا بأنه جالس أمام المصور... وإنه يريد أن يرضي أحبابه وأصدقاءه الذين سيرون صورته. لذلك كرهت تلك الصور البعيدة عن الواقع، الشديدة التكلف والتصنع... أما هذه الصورة، فإنا أعجز عن وصفها. ولا أحس بالخجل إذا قلت بأنني أعجز عن التعبير شعوري تجاهها.

كانت مثبتة في مكان بارز، منعزلة، تبتسم ابتسامة باهتة يشوبها الحزن، ويخالطها الأسى. تمامًا كما يبتسم بعض الناس حين يختلون بأنفسهم، ويتذكرون ما مضى من حياتهم. فيبتسمون، يبتسمون لأنفسهم حتى إذا كانت تلك الذكريات مرة وحزينة!.

كانت منفردة في مكانها، غير شاعرة بهذه الأشياء التي تحيط بها. وهذه الصورة قد خلقت في الغرفة جوًا ساكنًا، يشيع فيه

الهدوء... هذه الصورة هي الشيء الوحيد الذي يبعن الحياة في هذه الغرفة!.

من الممكن أن يقتحم هذه الغرفة جمع غفير من الناس يضحكون فيها ويعبثون، يشربون ويفنون، ولكنهم لن يستطيعوا أن يبعثوا هذه الحياة التي بعثتها الصورة نفسها!.

وبدت لي نظراتها غريبة... بدت لي مصوبة نحوي. إن كل الصور تقابلك نظراتها، أما هذه الصورة فإنها لا تراني وإن كانت مصوبة نحوي بالضبط كما أنها لا تستطيع أن ترى شيئًا آخر أبدًا. هي نظرات شاردة، تنظر ولا ترى، مما ذكرني بقول الشاعر يودكيرز (آه من نظراتك... إنهن يجذبنني كما تجذبني نظرات الصور!).

نعم... إن هذه الأعين المرسومة بالدهان على الورق الجامد لتبدو لي، وكأنها حية، وإنها ستحيى إلى الأبد.

آه... يا له من سحر، يخدر الأعصاب، ناعم كمرور النسيم كصوت القبلات، محرك للعواطف كلون السماء عند الغروب... آه... إن هاتين العينين لتشبهان الليل الذي يعقب الغروب... وما أجمل الليل، وما أجمل الغروب!.

من هذا الإطار العابس، تنظر إليك هذه العيون في رقة وحنان... نعم، إن هذه العيون التي أبدعتها يد الفنان على الورق بعدة حركات من ريشته، لتبدو لي هي الأخرى، مفعمة بالأسرار... أسرار المرأة، الكامنة أو الظاهرة. إن هذه العيون لتحمل كل ما تستطيع المرأة التعبير عنه بنظراتها. هذه النظرات التي تنبه في قلوبنا الإحساس الأول للحب!.

وأخيرًا، انفتح الباب، ودخل منه السيد ميليال، فاعتذر لي عن تأخره، فصافحته وأنا أعتذر إليه بدوري عن تبكيري في الحضور. ثم سألته أن يغفر لي تطفلي، ويجيبني عن سؤالي عن صاحبة الصورة، ومن عساها تكون، فقال (إنها والدتي... ماتت في ريعان الصبا وميعة الشباب!).

وعندئذ... عندئذ فقط انكشفت لي كل الأقنعة عن سر جاذبية هذا الرجل، وتأثيره على النساء!.

حديقة الذكرى

قال جون بربدللي : لقد خانني الحظ قليلًا.

قضيت زمنًا طويلًا في أيام العزوبة شاهدت فيها حربًا شعواء استطعت خلالها أن أكون واسع الخطى فوق أجساد الموتى دون شفقة ولا رحمة، وذلك دأب الطبيعة البهيمية، فقد لمعت حقائق جلية وآلام غامضة وخيانة خفية كانت سببًا في إثارة هذا العالم وبلبلة أفكاره حيث فتح هذا الباب السري على مصراعيه لنقاسي فيه ما قد قدر أن يكون. إنه لأمر جلل وخطب مدلهم وداء عضال أخذ يزداد تعمقًا وتشبثًا فكأننا نستحق هذا الجزاء فلا وزر من لسع هذا الشوك وقد ازداد التشبث واضطرمت النيران ووضعت الحرب أوزارها مما جعلنا نهذي كهذيان الممسوس، وصارت الأرواح تحوم فوق الأجساد تئن وتتألم، فساد الحزن البلاد وكدنا خلاله أن نفقد وعينا وإحساسنا لولا أن رضنا قلوبنا على مقاومة هذا التيار الجارف الخطير وتحطيمه.

أجل، لقد نجحت تلك المقاومة، وإنها لصورة باهرة من صور الحياة.

ويجول في خاطري شيئان يؤثران في إحساسي العميق لولا أن العاطفة قد تخفف عني شيئًا من هذا التهيج والانفعال السريع، وسأسرد لك شيئًا واحدا من هذين، وهو حادث خيالي قد انطبع في مخيلتي وطالما يعاودني كأنه حصل لي بالأمس.

أنني أتجاوز الخمسين من العمر ولقد كنت يومئذ شابًا في ريعان الشباب ينتابني شيء من الأسى والأرق وكثير من أحلام الشباب التي كادت تذهب مع الرياح.

لقد شغلني ملهى كان يتألق بغاداته الحسان حيث كنت كثير التردد عليه.

وهذه الحياة على ما يكتنفها من غموض حافلة بالجمال وأي جمال. الجمال الذي لا يسير على أسلوب واحد، بل الذي يتغير باستمرار.

وفي يوم من الأيام نهضت باكرًا وأخذت أتجول في حديقة الأطفال في لوزيمبرغ، كانت تلك الحديقة جدًا جميلة على رغم تقادم عهدها، يكتنفها سور مزركش بديع التركيب يتوسطها صفان منفصلان على خط واحد من الأشجار التي شذبت أوراقها بانتظام وتحف بها الأزهار على أنواعها المختلفة، تلك الأزهار التي تفتقت أكمامها كأنها تبتسم للحياة، فحياها الندى بقطرات انتثرت عليها كأنها الماس لمعانًا، فيالها من حديقة غناء يطيب التنزه فيها والجلوس تحت ظلال أفنانها، وكان أحد أركانها يغص بخلايا النحل المصنوعة من القش والتي تنفصل عن بعضها بمسافات متباينة حيث تنقذ الشمس من ثقوبها الصغيرة ويعطر أريجها جميع أرجاء الحديقة، والنحل تحلق فوق تلك الخلايا ولها دوي مستمر، وعمالها يخضعون لأمر سيدتهم مسالمين في أعمالهم، وذلك مثل أعلى في منهاج الحياة.

ولشد ما دهشت لمنظر الحديقة الخلاب فصرت أختلف إليها في أغلب الأحايين وخصوصًا في الصباح، وأجلس حيث يطيب لي

الجلوس أطالع بعض الكتب، فتغمرني النشوة وتدور في رأسي الأماني الحلوة التي يهفو لها قلبي الظامئ إلى ري من طمأنينة، فأرى خلالها الوجدان اليقظ والانفعالات النفسية الجياشة بالعواطف السامية والمثل العليا، وبينما أنا غارق في تلك الأحلام إذ رمقت خيالًا يقترب من مدخل الحديقة فأدركت بأنني لست الرجل الوحيد الذي يتردد إليها، فنهضت من مكاني لأتحقق من هذا الخيال وإذا به رجل مسن ينتعل حذاء فضي اللون ويرتدي لباسًا أحمر ضاربًا إلى الصفرة قليلًا، وعلى رأسه قبعة من الصوف يبرز منها زغب كالريش، هزيل الجسم مقطب الوجه تظهر عليه إمارات الكبر، وعيناه متوقدتان كأنهما تنظران بحذر شديد، وبيده عصا مزخرفة مقبضها من ذهب تدل على أنها تذكار قديم، فاسترعى انتباهي ذلك المنظر، وبدا السرور على محياي، فاسترقت الخطى خلف جدار تغطيه أوراق من الشجر، وأخذت أراقبه عن كثب.

وحدث في صباح يوم من الأيام أن التقينا في المكان نفسه، فقبعت تحت شجرة متسترًا بأوراقها، وقد اعتقد في نفسه أنه الوحيد في هذا المكان، فبدأ يشير إشارات واحدة تلو الأخرى ثم عن أسرار متعارفة، وأعقبها انحناء وقفز إلى الأمام قليلًا، ثم عاد إلى مكانه محتفظًا بمركزه، وأخذ يترنح كأنه وريقة غصن ينفخها النسيم، فدهشت من هذا الرقص الشاذ الهزلي، ثم أعقبها بحركات قوية فوق طاقة جسمه الهزيل كأنه ألعوبة من الورق تطيرها الرياح أني تشاء، لا تستقر على أية حالة. فبقيت في مكاني ذاهلًا من هذا الفصل المضحك أسائل نفسي عمن فقد وعيه منا أهو أم أنا...

وسـرعان ما توقف عن الرقص وتقدم وانحنى في التحية كأنه أحد الممثلين البارعين فوق المسرح، ثم ارتد خطوات إلى الوزراء وقد ارتسمت على محياه ابتسامات تعبر عن قلبه الساذج، وأشار بيده نحو صفي الأشجار الجميلة.

وبعد ذلك استأنف خطاه باهتمام. ومنذ ذلك اليوم لم أتخلف عن هذه الحديقة قط لأشاهد تمثيله العجيب حيث كان لا ينقطع عن تمرينه الخاص صباح كل يوم، وقد حفزتني الرغبة للتعارف به، فاندفعت إليه بالتحية قائلًا أنه ليوم سعيد يا سيدي، فرد علي التحية قائلًا أجل أنه ليوم سعيد حقًا، ومنذ تلك اللحظة أصبحنا صديقين وفيين، وعرفت قصته فقد كان الراقص الأول في الأوبرا منذ عهد لويس الخامس عشر؛ وعصاه الجميلة كانت هبة من الكونت دي كلير يمونت، وكان عندما يتحدث عن الرقص تغمره النشوة والفرح.

وذات يوم أسر لي حاجة في نفسه، قال - لقد تزوجت لاكاستريس وسأحضرها معي كي تراها إذا رغبت في ذلك، فهي لا تأتي مبكرة إلى هذا المكان، وهذه الحديقة التي نتمتع برؤيتها هي مبعث أمانينا ووحي ذكرياتنا، وهي حديقة بعيدة العهد قل أن تشابهها حديقة أخرى.

وكثيرًا ما كنت أتردد وزوجي إلى ذلك المكان في وقت الظهيرة يوميًا. وفي يوم من الأيام نهضت باكرًا، وأخذت أتجول من مكان إلى آخر ومن شارع إلى شارع، إلى أن حان وقت الظهيرة، فاستأنفت العودة إلى الحديقة المعهودة حيث الجو ثمل حافل بالرقص

والسـرور فرأيت الحبيبين العاشـقين، امرأة مسـنة ترتدي ثيابًا سـوداء، وصـديقي المحب الذي كان له اليد الطولي في ذلك الاحتفال المهيب. وكانت تلك الراقصـة لاكاسـتريس حيث كانت حاذقة بفن الرقص، فهي عشيقة الملك ومحظية الأمير.

وما إن انتهى ذلك الاحتفال اتخذنا مقعدًا فوق غصن شجرة جميلة، وكان الفصل ربيعًا. لقد هب النسيم على الغصون مشبعًا بروائح الزهور المعطرة، وأرسـلت الشـمس أشـعتها الذهبية لتحيي تلك الزهور، وقد انعكست أشعتها فوق ما يظللنا من أوراق الشجرة نافذة من خلالها إلى دوائر صـغيرة، بينما ثوب لاكاسـتريس الأسـود قد تحول إلى بريق شديد حيث الجو هادئ والحديقة خالية وصوت العربات يسمع باستمرار.

قلت للراقص الأول :

ألا توضح لي شيئًا عن هذا الاحتفال؟

فقال : - الاحتفال هو ملكة الرقص ورقص الملكات، أما تعلم أن الرقص قد فقد بهاءه وجماله منذ ذلك الحين... وصـار يتمتم بعبارات غامضة لم أفهم شيئًا منها. وقد اضطرب في وضعه، ونزل عن الغصن وسارت أمامه عشيقته لاكاستريس، فحدقت ببصري إليهما، وأنا مضـطرب النهى فاقد الإحسـاس والشـعور، فاعتراني الحزن لمنظر ذلك الشبح المحزن، وسبحت في فكر عميق.

فاسـتمرا واقفين لحظات، وقد أتما دورة الرقص، وأخيرًا ابتسـما ابتسـامتهما المعروفة، وتعانقا عناقًا حارًا، وتنهدا تنهدات عميقة، ثم فارقتهما.

وغادرت المدينة بعد ثلاثة أيام، ولم أعد أراهما، فرجعت إلى باريس بعد سنين ورأيت الحديقة وقد خيم عليها الذبول، وساءلت نفسي عن حالة هذين الزوجين الحبيبين وما كان من أمرهما بعد ذبول تلك الحديقة الغناء، هل توفيا أم لا يزالان على قيد الحياة، وهل يرقصان في مكانهما المعهود؟...

لقد عاودتني تلك الذكرى، واستقرت جروحها في فؤادي، وإني لأرى فيها أغوارًا عميقة لمصابيح الروح التي تعبر عن خلجات نفسي، عرفت الحياة وآمنت بأنها متاع الغرور، وكيف!...

لا أستطيع القول، ستجده مضحكًا جدًا بلا ريب..

العظام المقدسة

(رسالة إلى الأب لويس دانير قسيس سواسون)

سيدي الفاضل :

يؤلمني أن أنهي إليك أن الخطبة التي كانت قائمة بين ابنة عمك وبيني قد انفصمت عراها، وأن هذا الانفصام إنما يرجع إلى أتفه الأسباب وأبعثها للضحك.. هي لعبة قذرة لجأت إليها من غير عمد.. لذلك لجأ إليك يا سيدي العزيز لتنقذني مما أنا فيه ولن أنسي لك ما حييت ما قدمته لي من مساعدة.

إنك تعرف جيلبرت.. أو بالأحرى تظن أنك تفهمها.. ولكن من ذا الذي يفهم امرأة؟ ومن ذا الذي بإمكانه أن يثق بآراء النساء ومعتقداتهن وأفكارهن؟ ألا ترى أنهن لا يلبثن على وضع ولا يستعن بمنطق، وأنهن يتهربن في المناقشات، ويبدون متمسكات بآرائهن إلى حد العناد ثم يتحولن عنها فجأة لمجرد أن طائرًا صغيرًا قد ظهر عند حافة النافذة؟.

ولست في حاجة إلى أن أبين لك مدى تمسك ابنة عمك بالين إذ هي - كما تعلم - قد تلقت دروسها عن الراهبات في نانسي.. وربما كنت تعلم عنها هذا الصدد أكثر مما أعلم.. ولكني على ثقة من أنه قد غاب عن ذهنك أنها امرأة قبل كل شيء وأنها في عواطفها وآرائها كالريشة في مهب الريح. فما أسرع تحولها من الإشفاق إلى الغضب، ومن الحب إلى الحقد!.

حســـن! لقد خطبتها وأحببتها إلى حد العبادة وقد بدا لي أنها تحمل لشـخصـي بعض الميل.. وفي إحدى الأمسـيات تلقيت برقية تستدعيني إلى كولونيا لإجراء إحدى العمليات. فأسرعت إلى جيلبرت لأودعها وأعتذر لها من عدم إمكاني تناول العشـــاء مع والديها يوم الأربعاء ولأطلب منها أن تؤجل الحفلة إلى يوم الجمعة عند عودتي.. آه يا عزيزي.. حذار من يوم الجمعة فإنه يوم شـــؤم. وعندما أخبرتها بعزمي على القيام بالرحلة رأيت دمعة تلمح في عينيها ولكن ما أن أخبرتها بنيتي في الرجوع في أسرع وقت حتى صفقت بيديها وصاحت :

حســـن.. حســـن.. يجب أن تحضـــر لي هدية معك.. أية هدية رخيصة الثمن أبقيها معي دائمًا لتذكرني بك.. ولكن عليك أن تنتقيها لي وأن تتأكد من أنها ستدخل السرور إلى نفسي..

ثم قالت :

(إني أمنعك من أن تشـتري هدية بأكثر من عشـرين فرنكًا.. إذ لا يهمني عظم قيمتها وفداحة ثمنها.. إنما يهمني حقيقة شـــعورك وإخلاصك لي) وسكتت قليلًا ثم قالت وهي تخفض بصرها :

(إذا اشـــتريتها لي بثمن منخفض ونالت إعجابي فســـأمنحك قبلة..)

وســـافرت في اليوم التالي إلى كولونيا.. فوجدت المصـــاب رب عائلة فقيرة ووجدت جراحه من الخطورة بحيث تســـتدعي عملية عاجلة.. فأجريتها له ومكثت إلى جواره ثمانيًا وأربعين ســـاعة.. حتى إذا ما رأيته قد بدأ يرجع إلى نفسه استقللت عربة إلى المحطة.

وعلمت أن القطار سيبرح بعد ساعة فخرجت أتجول في الطرقات وأنا أفكر في المريض البائس.. وإذا برجل يتقدم مني.. ومع أني لا أفهم الألمانية وهو لا يفهم الفرنسية استطعت أن أدرك منه أنه يبيع آثارًا للقديسين.. وفجأة تذكرت جيلبرت. وتذكرت أنها شديدة التدين.. فتبعت الرجل إلى حانوته واخترت من بين محتوياته عظمة صغيرة من عظام إحدى القديسات محفوظة في علبة صغيرة من الفضة.. ثم سافرت..

وعندما وصلت إلى منزلي أردت أن أرى العظمة مرة أخرى. ففتحت العلبة.. وإذا بي أراها خالية. وفتشت جيوبي واحدا إثر الآخر ولكني لم أعثر لها على أثر.

وأنت تعلم يا عزيزي القسيس أن معتقداتي الدينية ليست بالمتينة. وتعلم أني لا أعتقد في قدسية آثار القديسين - وتشاركني أنت في هذا الرأي - لذلك لم أحزن على فقد العظمة وبحثت عن أي شيء أحله محلها.. ثم ذهبت إلى حبيبتي..

وما إن دخلت الحجرة حتى جرت إلي وهي تقول :

- ماذا أحضرت لي؟

وتظاهرت بأني قد نسيت طلبها ولكنها رفضت أن تصدق.. وتوسلت إلي أن أريها ما أحضرته لها.. وأخيرًا أظهرت لها العلبة وبداخلها عظمة صغيرة فكادت تجن من الفرح..

- عظمة لإحدى القديسات!!

ورأيتها تقبل العلبة في خشوع..

بدأ ضميري يوبخني على الخدعة التي ارتكبتها وسألتني فجأة :

- هل أنت واثق من أنها إحدى القديسات؟

- كل الثقة..

- وما دليلك على هذا؟

وشـــعرت بحرج الموقف.. فإن أخبرتها أني اشـــتريتها من بائع متجول فقد ضـــاع كل شـــيء.. فماذا أقول؟ وطافت بعقلي فكرة جنونية فقلت لها في صوت منخفض غامض :

- لقد سرقتها من أجلك..

ورأيتها تحدق بعينيها الواسعتين :

- ماذا؟ سرقتها؟ من أين!

- من الكنيســة.. ومن المكان الخاص بآثار القديســات. وأخذ قلبي يدق بشـــدة، ورأيتها تكاد أن يغمى عليها من الفرح وتمتمت : وســـرقتها من أجلي؟ قص علي القصـــة كلها.. وهكذا لم أســـتطع التراجع.. فقصـــصـــت عليها قصـــة من مخيلتي ســـاردًا فيها أدق التفاصـــيل. وقلت إنني رشـــوت الحارس بمائة فرنك لكي يســـمح لي بالدخول وحدي.. وإن العمال الذين كانوا يصـــلحون المكان خرجوا لتناول الغداء ففتحت أحد الصـــناديق وســـرقت عظمة صـــغيرة ثم أقفلت الصـــندوق ثانية وذهبت إلى الصـــائغ فصـــنعت له علبة من الفضة.

ورأيتها تســـتمع إلي في ذهول وســـعادة ثم ســـمعتها تتمتم : ما أعظم حبي لك! وغاصت بين ذراعي..

لتلق بالك إلى هذا يا سعادة القسيس.. لقد سرقت وانتهكت حرمة الكنيسة وغرفة القديسات وسرقت آثارًا مقدسة.. وبسبب ذلك تحبني وتعتبرني مخلصًا كاملًا عظيمًا!.

هكذا النساء يا عزيزي القسيس. دائمًا أبدًا..

وظللت شهرين إلى جوارها وهي تعتبرني أخلص المحبين وأكثرهم سحرًا.. ورأيتها تضع العلبة في مكان أعدته لها لتتعبد إلى جوارها صباح ومساء..

وما أن جاء الصيف حتى انتابها شوق إلى رؤية مكان الجريمة وألحت على والدها بشدة دون أن تطلعه على السبب الحقيقي كي يصحبها إلى كولونيا.. وقد أخفوا جميعًا عني سر هذه الرحلة.

وأظنك تعلم يا سيدي أني لم أشاهد في حياتي كنيسة كولونيا من الداخل.. وأني لا أعلم ما إذا كانت هناك حقًا غرفة لقديسات أم لا..

وبعد أسبوع تلقيت ستة سطور من جلبرت تفسخ فيها الخطبة وخطابًا من أبيها يشرح لي السبب في الفسخ.. لقد ذهبا إلى الكنيسة ودخلا غرفة القديسات وسألت الحارس عما إذا كانت قد وقعت سرقة من الغرفة في يوم ما. فضحك وبين لها استحالة السرقة..

لقد اعتبرتني غير جدير بحبها منذ اتضح لها أنني لم أسرق من هذا المكان الطاهر، وأن يدي الدنسة لم تتسلل إلى العظام المقدسة.

ومنعتني من دخول منزلها برغم توسلاتي الحارة.

أتضــرع إليك يا ســيدي القســيس أن تتوســط في الأمر وأن تشفع لي عندها.. ولك مني أخلص الود.

السر..

تسألينى أيتها الصديقة أن أسرد عليك أكبر الحوادث أثرا في حياتي وأعلقها بذاكرتي.. وبما أنني قد خلفت ورائي الشباب بمراحل طويلة ولم يعد لي من الأقارب من أهتم له، ولذلك لا أجد غضاضة في أن أسر إليك بما تبتغين على ألا تعيديه لأحد، فإن لم تجدي القدرة على الكتمان فلا بأس برده إذا لم تذكري أسمي.

تعلمين أني قد اتخذت لي في حياتي عشاقا من الكثرة بحيث لا أذكر عددهم.. وأنني بادلت بعضهم حبا بحب، فقد كنت جميلة فاتنة وكان الحب بالنسبة إلي دعامة الروج لا تستغني عنه كما لا يستغني الجسد عن التنفس. كنت أفضل الموت على الحياة دون حب ودون أن أشعر بأن هناك من يفكر في طوال الوقت ويرغب في رضاي.. وقد تفخر الكثيرات من النساء بعجزهن عن احب سوى مرة واحدة وبأنهن إن وهبن قلوبهن إلى رجل فإلى الأبد. لا يتحولن عنه.. أما أنا فقد أحببت رجالا كثيرين معتقدة في كل مرة أني سأحبه إلى الأبد وأن عاطفتي نحوه لن تتضاءل. لكنها كانت دائما تتضاءل كالنار التي لا تزودها بالوقود.. وينهى بها التضاؤل إلى الموت..

واليوم أذكر لك مغامرتي الأولى.. وبرغم أنها بريئة تمامًا إلى أن في تربتها تكونت البذرة التي تفرع عنها سائر المغامرات.

كان زوجي كونت هيرفيه دو - رجلًا واسع الثروة من عائلة عريقة ولم أكن أحمل في قلبي له ذرة من الحب.. فالحب في رأي

يتطلب لوجوده الحرية والصعاب.. أما الحب الذي ينظمه القانون ويحميه، وتباركه الكنيسة فسرعان ما تخمد جذوته.. وما قيمة القبلة المشروعة إذا قيست بالقبلة المغتصبة كان زوجي طويلا ضخم الجسم نبيل الطلعة.. غير أنه كان غبيا إلى أقصد حد، فالمناقشات معه مملة وملاحظاته تافهة وعقله جامد لا يتطور ولا يسمح بدخول أفكار جديدة إليه كنا نعيش في منزل كبير بالريف وقد مضى على زواجنا عام واحد.. وكانت تحوطه الأشجار من كل جانب. وفي نهاية الحديقة تجد بحيرتين واسعتين مليئتين بالأعشاب المائية وبينهما كوخ صغير بناه زوجي لاستعماله عند صيد البط.

وبالإضافة إلى خدم المنزل، كان يعيش معنا حارس مخلص لزوجي كل الإخلاص تابع له غدواته وروحاته، ووصيفة لي تحبني وأحبها كالأصدقاء، كنت قد أحضرتها معي من إسبانيا ورغم أنها كانت في السادسة عشرة من عمرها إلا أن الناظر إليها يحسبها في العشرين...

وبدأ في الخريف موسم الصيد. فكنا أحيانا نصطاد في ضيعتنا وأحيانا في ضيعة جيراننا.. وكان البرون دو - على الأخص موضع اهتمامي.. فلما انقطعت زياراته لنا فجأة انقطعت عن التفكير فيه.. غير أني بدأت ألاحظ منذ ذلك الحين تغيرا طرأ على علاقة زوجي بي فقد بدأ لي غامضا تنتابه الهواجس ولم يقبلني.. ورغم أنه لم يعد يدخل إلي في حجرتي الخاصة إلا أنني كنت أسمع أثناء الليل خطوات مسترقة تقف عند باب الحجرة بضع دقائق ثم تعود أدراجها.. وكنت أسمع وقع أقدام في الحديقة ليلا تذهب وتجيء

تحت نافذة حجرتي فلما سألت زوجي عنها نظر إلي نظرة طويلة ثم قال : لا شيء.. لا شيء.. لا بد أنه الحارس.

وفي إحدى الأمسيات - بعد أن انتهينا من العشاء - بدأ زوجي في اضطراب نفسي شديد.. وإذا به يسألني بغتة : هلا خرجت معي إلى الضيعة نصطاد ثعلبًا اعتاد غشيتها كل ليلة؟.

ودهشت لسؤاله وترددت، غير أنه كان ينظر إلي في إلحاح شديد فأجبته أخيرا بالطبع يا عزيزي..

وأرى لزاما على أن أخبرك أنني كنت أصطاد الثعالب كالرجال.. فلم يكن هناك ما هو غير عادي في سؤاله. لكنه ضل طيلة المساء يقطع الردهة في خطوات قلقة وقد بدا على وجهه الهم..

وفي العاشر سألني فجأة : هل أنت مستعدة؟ فأجبته بالإيجاب وخرجت معه.

وسألته. أأضع في بندقيتي الرصاص أم (الخراطيش)؟ فحملق في دهشا بعض الوقت ثم قال : فلتستعملي (الخراطيش) ففيها الكفاية..

ثم أضاف في لهجة غريبة. ما أبردك!

فضحكت قائلة : ما أبردني!؟ وما حاجتي إلى البرودة في صيد ثعلب؟ ما هذا الذي يشغل فكرك يا عزيزي؟.

واخترقنا الحديقة في سكون حتى وصلنا إلى حافة البحيرتين فوقفنا أمام الكوخ الذي علينا أن ننتظر في قدوم الثعلب.. وسألني زوجي أن أدخل أولًا... ثم أحدث فجأة صوتًا ببندقيته أرعبني... ورآني أرتعش...

وسـمعته يقول : يكفي هذا الاختبار... باسـتطاعتك الرجوع... فدهشت كل الدهشة وقلت له : أنني لم أحضر هنا كي أرجع ثانية ما أغربك الليلة!.

قال : كما تشائين...

وانتظرنا نصـف سـاعة دون حراك ولم نسـمع للثعلب صـوتًا فسألت زوجي هامسة : أمتأكد أنت أنه يأتي من هذا الطريق؟.

فبدا عليه الرعب من قولي هذا وأجاب : أجل... متأكد تمامًا.

وحفنا السكون ثانية مدة طويلة... وإذا بزوجي يمسـك بذراعي فجأة ويقول : أترينه؟ أنه هناك... تحت الأشجار.

ونظرت جاهدة فلم أتبين شـيئًا... وجعل زوجي يراقبني وأنا أنظر... ثم بدأ يعد بندقيته وبدأت أحذو حذوه.. وفجأة، وعلى بعد ثلاثين خطوة رأيت رجلًا يبرز في ضوء القمر متسللا وقد حنا جسمه كأنما يفر من شيء...

وأصـابني الفزع فصـدرت عني صـرخة عالية... وقبل أن أستطيع حراكا سمعت صوتًا مدويا ورأيت الرجل يسقط على الأرض كالذئب وقد اخترقته الرصاصة.

وجن جنوني فبدأت أصرخ... وامسكني زوجي بقسوة من رقبتي ورماني على الأرض ثم جرني نحو الجثة الراقدة على الحشـائش وألقاني عليها بقوة كأنما يريد أن يكسر رأسي... لقد كان ينوي قتلي... لكنه ما أن رفع حذاءه كي يحطم به وجهي حتى ذراعين يحوطانه ويلقيان به على الأرض.

ووقفت بسرعة... وإذا بي أرى وصيفتي وهي تنهش زوجي بأسنانها كالهرة وتمزق وجهه ولحيته بأظافرها... ثم رأيتها فتحول عنه فجأة إلى الرجل القتيل وبدأت تقبل عينيه وشفتيه وهي تستخرط في البكاء...

وقام زوجي ورأى وصيفتي تبكي حبيبها فعرف الحقيقة ورمى بنفسه عند قدمي قائلًا :

- سامحيني يا حبيبتي.. لقد شككت فيك وقتلت عشيق الفتاة.. لقد ظللني الحارس..

أما أنا فبقيت أنظر إلى عناق الحي للميت وأستمع إلى بكاء المرأة على حبها..

.. في هذه اللحظة تبينت أنه من المستحيل أن أظل مخلصة لزوجي..

البعث

لم يكن هناك في قرية (فيكامب) من يجهل تاريخ الأم (باتان) الحافل بألوان الشـــقاء... كما لم يكن يختلف اثنان في الحكم على قسوة معاملة زوجها لها طيلة حياته.

اتخذها باتان زوجة له منذ عدة سـنوات حين كانت في نضـارة الصـــبا وقد حباها القدر بقســـط وافر من الجمال والجاذبية... في حين كان هو بحـارًا ماهرًا عملاقًـا اعتـاد الـذهـاب إلى حـانـة العجوز (أوبان) لتناول أربع أو خمس كؤوس من الكحول. ولم يكن ذلك هو الحـد الأعلى لملء فراغ معـدتـه... بـل كثيرًا مـا أرتفع ذلـك الرقم إلى ثماني أو عشر كؤوس... ربما زادت على ذلك قليلًا إذا ما كانت صفقة صـيده رابحة. وكانت ابنة أوبان هي التي تشـرف بنفسـها على خدمة رواد الحـانـة الـذين أســرتهم عينـاهـا الحـالكتـا الســواد، وامتلكت أفئدتهم بقوامها الرائع المشوق.

ويوم جاء باتتا إلى تلك الحانة للمرة الأولى... واكتفى بإطالة النظر إلى الفتاة في شـــوق وحنين وهو يشـــير إليها من طرف خفي. وازدادت فتنتها في عينه حين ارتشـف كأسـه الأول.. فما كاد يأتي على الثـانيـة حتى كان يلتهمهـا بعينيـه في نشـــوة وشـــراهـة.. واســـتقرت محتويات القدح الثالث في جوفه فتمتم قائلًا دون أن يتم جملته (لو كان إمكانك فقط أيتها الآنسة ديزيري...).

ومع فراغ القدح الرابع كان باتان ممسكا بثوب الفتاة وهو يحاول تقبيلها

وتعددت الكؤوس.. واكتملت عشرًا.. وحينئذ أرسل وبان العجوز أبنته إلى الخارج وراح هز بنفسه يشرف على خدمة البقية الباقية من زبائنه الساهرون. كان أوبان رجلًا حاذقا لا تخفى عليه خافية... فكان يترك ابنته تنتقل برشاقتها لإغراء الزبائن حتى يستزيدوا من خمرة تاركها لها مطلق الحرية في توزيع ابتساماتها الرائعة وإرسال سهام عينيها إلى أفئدة المخمورين، وهو واثق منها كل الثقة دون أي محاولة من جانبه اكتشاف سر ذلك البريق الذي في أغوارهما كلما حاولت امتحان عواطفها إزاء رجل من زبائن الحانة.

واصبح وجه ديزيريه مألوفا دي باتان من طول تردده على حانة أوبان.. فكان يراها ماثلة أمامه وهو في موكب صيده ناشرا شباكه في المياه الهادئة أو الصاخبة على حد سواء.. أو كان بتخيله تومئ إليه في حلكة الليل الساجي، أو تحت ضوء القمر الفضي الساهر.. فكان يطيل التفكير فيها.. وكم كان يهنا بذلك التفكير وهو جلسته عند مؤخرة المركب، ويده مستقرة على سكانه.. بينما ارتكزت رؤوس بحارته الأربعة على أيديهم وقد راحوا تحت تأثير نومة استسلام هادئ لذيذ بعد إجهادهم اليومي المرهق.. وفي كل تلك الحالات التي كان يتخيلها فيها.. كان يراها تبتسم إليه وهي ترفع يدها لتملأ كأسه بالرحيق الملون هامسة وهي تتأهب للابتعاد عنه :

أليس ذلك هو كل ما تطلب؟

أحس أخيرا أنها أصبحت تشغل حيز تفكيره كله.. فلم يستطيع كبت تلك الرغبة التي كانت تلح عليه في أن يتخذها حليلة له، وطلب يدها من أبيها.

وأجيب باتان إلى مطلبه : فقد كان يمتلك مركبًا وشباكا علاوة على منزل بالقرب من الميناء.. وفي حين كان أوبان العجوز لا يمتلك شيئًا.. وتمت معدات الزفاف دون تأخير.

انقضت ثلاثة أيام أستيقظ بعدها باتان من الحلم الذي كان يعيش فيه، وهو يعجب كيف أنه اعتقد يومًا أن تلك الفتاة ديزيريه تختلف في شيء عن غيرها من النساء. وابتدأ ينعت نفسه بالجنون، ويعيب عليها ضعفا وخضوعها لذلك القيد الذي قيدت نفسها.. القيد الأبدي الذي استسلم إليه تحت تأثير الخمر... نعم؟ لقد كان الخمر هو السبب في ذلك الزواج... الخمر التي كان يعتقد اعتقادًا جازما أن الفتاة قد مزجتها ببعض العقاقير السحرية للإيقاع به.

ولم يكف باتان عن سب نفسه طوال ذلك الوقت.. وما كاد يصل إلى ذلك الحد من التفكير حتى ألقي فضلات التبغ المتبقية في غليونه؛ وراح ينقل أسماكه الواحدة إثر الأخرى، وهو يغمغم غاضبا.

وعندما بلغ منزله وجد زوجته - ابنة أوبان العجوز - قابعة هناك كعادتها. فلم يحيها بحرف. بل راح بكيل لها ألفاظ السباب الحادة.. فقابلتها الفتاة بأحد منها، إذ كانت طبيعة والدها الهمجية متأصلة فيها، وكان ذلك مما يزيد في غضب زوجها وإيلامه. ولكن

تلك الآلام لم تبلغ الذروة إلا في تلك الليلة التي اعتدى عليها فيها بالضرب.

وخلال السنوات العشر التي تعاقبت بعدئذ... لم يكن هناك من حديث يدور بين أهل الميناء إلا عن تلك المعاملة القاسية التي كان يتبعها بانان مع زوجته، لا لشيء إلا لأنه كان موهوبا بالسليقة بلهجة في سبابة لم يكن هناك في فيكامب من يضارعه فيها.

وعاشت المرأة المسكينة في جو من الخوف والرعب عشر سنوات كاملة اعتادت أثناءها الوحدة والسكون، عشر سنوات كاملة فيها الكفاية لتجعل منها هزيلا يشبه هيكل سمكة صغيرة جافة.

استيقظت امرأة فجأة ذات ليلة على صوت أنين أرياح وهمهمة ريا ح البحر.. فجلست على فراشها وراحت أفكارها تتجمع في نقطة واحدة حتى تركزت في ذكرى زوجها الغائب في مركبه وسط العاصفة، وقفزت من الفراش ثم هرولت نحو الميناء التي كانت قد امتلأت بجموع النساء وقد حملن في أيديهن المصابيح ينرن الطريق لرجال الذين هرعوا بدورهم إلى هناك لمحاولة نجدة من يحتاج إليهم من الصائدين.. وظلوا محدقين في المياه السوداء الممتدة في جلال وروعة وقد بدت أشباح مراكب الصيد الصغير وهي ترتفع وتنخفض فوق أمواج الصاخبة، ودامت العاصفة خمس عشرة ساعة.

وكان من نتيجة ثورة الطبيعة أن أحد عشر صائدا قدر عليهم ألا يعودوا إلى منازلهم أبدًا. وكان باتان من بينهم.

وقذفت الأمواج بحطام سفينة باتان (أميلي الصفراء) إلى أحضان شاطئ (سان فاليري) ولكنها لم تظهر أي أثر لجسد باتان.

كان من أمكن أن يكون قد أصبح طعامًا للأسماك.. كما كان من الممكن أن يكون قد انتشل من المياه وأبحر مع منقذيه إلى حيث يقصدون.

وعودت المرأة نفسها أن نجا حياة الأرملة.. ولكنها إلى جانب ذلك لم تكن تمتنع عن استقبال سائل أو مسافر أو بحار داخل مخدعها.

وانقضت أربعة أعوام على اختفاء رجلها

ومالت الشمس إلى المغيب.. وهبت نسمات باردة تنذر اقتراب الليل.. فزعت الأطيار إلى أوكارها.. في حين كانت المرأة تسير في شارع (اليهود) وقد لفت نظرها منزل قبطان عجوز.. كان يقف ببابه (دلال) ينادي على أثاث المنزل لبيعه.. وفي تلك اللحظة كان الرجل ممسكا بقفص قد استقر فيه ببغاء وهو يهتف :

- ثلاثة فرنكات.. طائر يتكلم كرجل القانون.. فقط ثلاثة فرنكات

وتمتمت ديزيريه لصديق كان يتأبط ذراعها :

- يجب عليك شراؤه فسيكون لك نعم السمير. إنني واثقة من أن ذلك الطائر يساوي ثلاثين فرنكا ثقتي من أنك تستطيع بيعه ثانية بعشرين أو خمسة وعشرين فرنكا.

وارتفع صوت الدلال مرة أخرى قائلًا :

هيا.. أربعة فرنكات أيها السادة.. أربعة فرنكات.. إنه يستطيع الترتيل، فياله من أعجوبة نادرة. وأخيرا..ء انتقلت ملكية الببغاء وقفصه لديزيريه بعد أن دفعت ثمنه لأربعة فرنكات وخمسين سنتا.

وتمتمت المرأة بغضب لما رأت نقطة من الدماء تلوث يدها حين لامست رقبته وهي تضع له شيئًا من الطعام في حجرتها.

- يا الله.. لم اكن أعلم أنه جريح

وتوجهت إلى فراشها بعد أن وضعت للطائر شيئًا من الطعام وإناء صغيرًا مملوء بالماء

ولم تكن أنوار الفجر الوردية قد بدت بعد، حين تعالى إلى أذني مدام باتان صوت واضح جلي يقول :

- ألم تستيقظي بعد أيتها المنكودة؟

وقد رجع زوجها أخيرا.. فذلك الصوت صوته وتلك عادته في مناداتها إذا ما استيقظ في الصباح، وأحست برعشة تسري في عروقها فدفنت وجهها تحت الوسادة بينما راح جسدها يرتجف ارتجافا واضحًا وهي تتمتم قائلة لنفسها :

- يا إله السموات.. لقد رجع ثانية وها هو إذ.. يالله ومرت بضع دقائق دون أن يعكر صفو السكون الشامل صوت.. فأخرجت رأسها من تحت الوسادة، كانت متأكدة من وجوده بالقرب منها يرقبها وهو على أتم استعداد للانهيال بالضرب كما كان في الماضي البعيد.. ولكنها لم تر شيئًا غير أشعة الشمس التي ابتدأت تخترق زجاج النافذة، فهمست قائلة لنفسها :

- لابد أن يكون مختفيا في مكان ما

وظلت تنتظر.. وطال انتظارها فعودها هدوئها وغمغمت :

- إنني لم أره.. إذا.. لابد أنني كنت أهيم في وادي الأحلام

أغمضت عينيها مرة أخرى في اللحظة التي ارتفع فيها صوت باتان كالرعد قائلًا :

ألا زلت نائمة أيتها الملعونة؟

وقفزت من فراشها وقد انتابها فزع المرأة المطيعة التي ظلت أربعة أعوام كاملة وهي ترزح تحت عبء الذكرى الأليمة.. ذكرى العذاب الذي كان يسببه لها صوت ذلك الرجل الكريه.. هتفت :

- هأنا ذي يا باتان.. ماذا تريد؟

ولم يكن هناك من جواب

وتلفتت حولها في دهشة.. ثم أخذت تبحث في كل مكان.. لكنها لم يجد أحدًا.. وتهالكت على مقعد بالقرب منها وهي تحس بروح باتان ترفرف فوق رأسها.. وأخيرا تذكرت الحجرة الصغيرة الإضافية الواقعة فوق حجرة الطعام.. لابد أن يكون مختبئا هناك في انتظار مفاجأتها.. ثم.. ثم العودة إلى نفس الحياة القاسية التي كانت تحياها من قبل.. ونظرت إلى سقف الغرفة وهي تقول متسائلة.

- هلل أنت فوق يا باتان؟

ولم يكن هناك من جواب

وتسللت إلى الخارج فأحضرت سلما تسلقته ونظرت في الحجرة الصغيرة لترى.. لتراه.. ولكنها لم تعثر عليه.. فجلست على الأرض وابتدأت تبكي وهي ترتعد. ومن أسفل جاءها صوت باتان يقول :

- أي جو وأي رياح..؟ إنني لم أتناول وجبة الصباح بعد وصرخت المرأة من أعلى من أعلى قائلة :

- إنني هنا يا باتان.. هأنا ذي في طريقي إليك لأعداد طعامك فلا تغضب.. هأنا ذي آتية وهبطت السلم بسرعة فائقة ولكنها لم تجد أحد بانتظارها أحست بضعف مميت يغمرها من رأسها لأخمصي قدميها وفكرت في أن تهرع إلى الخارج مستغيثة حين ارتفع صوت باتان قائلًا :

- إنني لم أتناول طعامي بعد أيتها ال..

كان الببغاء في قفصه يتابع كلماته، وهو يحدق فيها بعينين كجمرتين

ونظرت إليه والدهشة تغمرها ثم تمتمت :

- إذا.. إنه أنت. وتكلم الببغاء ثانية وهو يحرك رأسه انتظري.. انتظري قليلًا.. فسألقى عليك درسا لتكوني أشد كسلا منك الآن.

أي أحاسيس شعرت بها المرأة في تلك اللحظة؟. لقد شعرت تمامًا أن الرجل الميت قد بعث مرة أخرى.. بعث حيا في هيئة ذلك الببغاء إذا.. سيعود مرة أخرى لإهانتها.. كما كان في الماضي وسوف لا يمر يوم بهدوء.. وجيرانها.. سيعودون حتما للهزء بها والسخرية منها.

أسرعت المرأة نحو القفص ففتحته وأخرجت الطائر الذي راح يدافع عن نفسه بمخالبه فيدمي يديها.. ولكنها لم تعبأ به.. وتهالكت فوقه على أرض الغرفة.. وراحت بكل قواها تضغط على رقبته حتى سكنت حركته.

لم يعد يتحرك، لم يعد يتكلم ولكنه كان مستكينا استكانة الأبد بين ذراعيها، وجمعت الريشات الخضراء المتناثرة هنا وهناك بيد مرتجفة ووضعتها مع الجسد المسجي على الأرض في لفافة صغيرة.. ثم هرولت إلى لخارج عارية وقذفت الحزمة الحاوية لل... للشيء الميت في مياه البحر الهادئة... فبدت كحزمة من البرسيم الأخضر طافية فوق المياه الزرقاء.

وعادت ألي حجرتها فركعت على ركبتيها أمام قفص الطائر الميت.. وراحت تبكي

كانت تشعرا أنها ارتكبت إثما.. وأثما هائلا كأكبر الجنايات وحشية.. فابتدأت تدعو لله أن يغفر لها!.

الشيطان

كانت المرأة العجوز مسجاة على فراشها وهي تعالج سكرات الموت، وترقب من بين أهدابها المرهقة أبنها وهو منتصب أمام طبيب القرية وتحاول بكل ما أوتيت من قوة وإحساس أن تتبين ماهية الهمس الذي كان يدور بينهما. كانت هادئة ساكنة رغم ثقتها من أنها ستموت عن قريب... ولكنها كانت مستسلمة للواقع الملموس... فهي قد أكملت الثانية والتسعين من عمرها... وهذا يعني أنها قد أتمت رسالتها في الحياة.

وتخللت شمس يوليو النافذة... وغمرت أشعتها الملتهبة أرض الغرفة وارتفع صوت الطبيب قائلًا بشدة :

- إنك لا تستطيع أن تترك أمك وحيدة يا (أونوريه) وخصوصًا وهي في مثل تلك الحالة فهي قد تموت بين آن وآخر وأجاب أونوريه بقلة اكتراث :

- مهما يكن المر... يجب على أن أذهب لحصاد الحنطة... وها هو ذا الجو الملائم لذلك... ماذا تقولين في ذلك يا أماه؟.

وبرغم شعور المرأة برعشة الموت وهي تسري في جسدها... فقد شارت إلى أبنها بالموافقة وهي تحت تأثير جشعها وعبادتها للمال.

وضرب الطبيب الأرض بقدمه محنقًا وهو يهتف :

- ما أنت إلا وحش غليظ القلب... ولكنني لا أسمح لك أن تفعل ذلك.. هل فهمت؟ أن كان عليك حقًا أن تحصد حقل الحنطة

فلا أقل من استدعاء المرأة (رايت) للعناية بأمك وأنا أصر على ذلك.. أما إذا لم تفعل ما أشرت عليك به.. فسأتركك تموت وحيداً كالكلب الأجرب إذا ما افترسك المرض بأنيابه وحانت منيتك.. فتذكر ذلك.

أي أحاسيس وجلة خالجت مخيلة أونوريه في تلك اللحظة؟

لقد كان يخاف الطبيب الوحيد في القرية، ولكنه إلى جانب ذلك كان يعبد المال ويقدسه؛ وتردد قليلًا قبل أن يسأل الطبيب في النهاية قائلًا بارتياب :

- وكم تطلب المرأة رابت أجراً للعناية بأمي؟

وتمتم الطبيب :

وأني لي أن أعلم.. إنها تتقاضى أجرها بالنسبة للزمن الذي تعمل فيه... فما عليك إلا أن نتفق معها شخصيًا... وإنني أنذرك أنني أريد أن أراها هنا قبيل مرور ساعة واحدة.

- حسن.. يمكنك أن تطمئن أيها الطبيب. هأنذا ذاهب إليها.

وغادر الطبيب الغرفة بعد أن قال للشاب بلهجة تهديدية متوعدة :

- مرة أخرى... إنني لست هازلا في تحذيري لك إياك

وحين انفرد الشاب بأمه التفت إليها قائلًا بلهجة المغلوب :

إنني ذاهب لاستدعاء الأم (رابت) كما أصر على ذلك هذا الغر.. فكوني هادئة حتى أعود، ودون أن ينتظر إجابتها غادر الغرفة.

كانت الأم (رابت) امرأة عجوزًا تشتغل بكي الملابس وتنظيفها... وإلى جانب ذلك تعمل كممرضة لقاء أجر معلوم، وكان وجهها

مجعـدًا كتفـاحـة معمرة... وهي حقود حســـود... ذات طبع حـاد لا يمكن أن يمت للرحمة البشرية بصلة.

وحين اســـتقبلـت أونوريـه في منزلهـا... كانـت منهمكـة في مزج بعض الألوان لصبغ ثياب بعض فتيات القرية فبادرها قائلًا :

- كيف حالك أيتها الأم رابت؟ هل الأمور في طريقها العادي؟

والتفتت إليه المرأة مجيبة :

- نعم , نعم.. شكرًا.. كيف حالك أنت؟

- على أحسن حال.. إنها أمي التي تشكو

- أمك؟!

- نعم أمي

- وما خطبها؟

- إنها في طريقها نحو الأبدية وهذا كل ما هنالك

- هل بلغ بها سوء الحال هذا الحد؟

- لقد قال الطبيب إنها لن تعيش حتى الضحى

- إذا ربد أن تكون انتهت الآن؟

- وتلعثم أونوريه قليلًا.. فكانت المرأة أشد منه دهاءً.. فلم يجد من مفاتحتها مباشرة بقوله :

- كم تـأخـذين للعنـايـة بـأمي حتى النهـايـة؟ إننـا يـائســـون من التحسن كما تعلمين.. لقد كانت تعمل كفتاة في العاشرة رغم بلوغها الثانية والتسعين.

وأجابت الأم رابت في اقتضاب وتحفظ :

- إنني أتقاضى سعرين.. فللأغنياء.. فرنكان لليوم وثلاثة لليل... أما الفقراء.. ففرنك واحد لليوم واثنان لليل.. وسأعاملك كالفريق الثاني : واحد واثنان.

وراح أونوريه يفكر.. أنه يعرف أمه تماماً.. ويعرف مقدار مقاومتها للمرض،. فلربما عاشت أسبوعا آخر رغم زعم الطبيب بموتها العجل، فأجاب المرأة قائلًا :

- كلا.. إنني أريد أن أكافئك إجماليًا لإتمام المهمة.. أنه نوع من المقامرة.. فلقد أكد الطبيب أنها ستموت حالًا.. فلو تم ذلك فسيكون ذلك أقل ربحًا لك وأقل خسارة لي.

ونظرت إليه الأم رابت بدهشة.. فلم سبق لها أن عاملت محتظرًا بعقد.. وترددت لحظة.. وفجأة راودتها فكرة الخداع فأسرعت قائلة :

- لا يمكنني الموافقة على ذلك حتى أرى أمك

- إذن.. هيا بنا لرؤيتها

وجففت المرأة يديها م تبعته صامتة طوال الماشية وهي ترعى الكلأ، فتمتم أونوريه : اطمئنوا.. فستأكلون القمح الجديد عن قريب.

ولم تكن المرأة العجوز قد ماتت بعد.. بل كانت مستلقية على ظهرها، وقد امتدت يداها فوق غطاء الفراش الملون وقد بدا عليها الضعف والهزال. واتجهت الأم رابت نحو الفراش ثم حدقت في المرأة المحتضرة وتحسست بنفسها ثم مرت بيدها على صدرها وهي تصغي لصوت تنفسها الخافت الذي يشبه النزع، وألقت عليها بضع أسئلة

حتى تتأكد من ضعف صوتها؛ ثم غادرت الغرفة بعد ذلك الامتحان يتبعها أونوريه. كان رأيها الشخصي أن المرأة لا يمكن أن تستمر على قيد الحياة حتى المساء.

وسألها أونوريه بلهفة : والآن؟

وأجابته المرأة بخبث :

- ستعيش يومين وربما ثلاثة أيام.. وسأتقاضى منك ستة فرنكات.

وردد أونوريه قولها : ستة فرنكات؟ الله.. ست فرنكات كاملة؟ هل جننت أيتها المرأة؟ سوف لا تعيش إلا خمس أو ست ساعات على الأكثر.

واشتد الجدل بين الرجل والمرأة.. وأصرت المرأة على الرحيل.. فتخيل أونوريه حنطته في انتظار الحصاد، فلم يجد بدًا من الخضوع وتمتم مستسلمًا : سأعطيك المبلغ على أن ينتهي الأمر كلية مهما طال أمده.

وأوسع خطاه نحو الحقل.. في حين رجعت الأم رابت إلى حجرة المريضة وهمست قائلة لها : لا شك انك تريدين الاعتراف يا مدام بونتمبس؟.

وأشارت مدام بونتمبس برأسها إيجابًا.. فنهضت الأم رابت بسرور ونشاط وهي تهتف يا إله السماوات.. سأذهب لإحضار القس.

وأسرعت المرأة في طريقها نحو القس.. وعادت معه وهي تضطره إلى الإسراع غير عابئة بدهشة الرجال الذين ينظرون إليهما

باستغراب، ولا بنظرات النساء اللاتي كن يرسمن علامة الصليب على صدورهن. ورآهن أونوريه عن بعد.. فتساءل عن سبب إسراع القس، وما كان أسرع جاره في الإجابة عليه قائلًا : أنه سيتلقى اعتراف أمك دون شك.

ولم يساور أونوريه العجب لذلك.. بل واصل الحصاد في هدوء

وتلقى القس اعتراف مدام بونتمبس. ثم غادر المكان.. ومرة أخرى أصبحت المرأتان على انفراد وابتدأت الأم رابت تفقد صبرها وهي تعجب كيف أن المرأة لم تمت حتى الآن.

وشحب لون النهار.. وازدادت برودة الجو. وراحت فراشات الليل تحوم حول النافذة تحاول التحرر من أسرها كروح المرأة العجوز التي كانت راقدة دون حراك وعيناها محملقتان وكأنها في انتظار رؤية شبح الموت.. بينما أنفاسها تتدافع من صدرها بطيئة ذات صفير خافت أليم.

وعاد أونوريه.. فوجد أمه مازالت على قيد الحياة.. فتساءل دهشاَ عن كيفية إمكان ذلك.. ثم ودع الأم رابت بعد أن أوصاها أن تعود في تمام الخامسة مكن صباح اليوم التالي.. وفعلًا عادت المرأة قبل انبثاق الفجر وأسرعت بسؤال أونوريه قائلة : ألم تمت أمك بعد؟.

وأجابها وهو يسير نحو الحقل : كلا وأظنها أحسن حالًا

وضاقت الأم (رابت) ذرعاَ، فتوجهت توا إلى حجرة المرأة المحتضرة فوجدتها كما كانت بالأمس تمامًا.. هادئة ساكنة مفتوحة العينين، ويداها ممدودتان فوق غطاء الفراش الملون.. يبدو عليها

الضـــعف والهزال؛ ورأت الأم رابـت أن المرأة يمكن أن تظل هكـذا يومين أو أربعة.. بل عاشـت أسـبوعًا آخر.. فأحسـت بانقباض يسـود نفســـها.. وبحقد هائل نحو ذلك الذي خدعها بأمه التي لا تريد أن تموت. وظلت عيناها محدقتين بمدام بونتمبس طيلة هذا الصـباح حتى ى عاد أونوريه للغداء. ثم رجع إلى حقله لإكمال حصاد حنطته.

وكادت الأم رابت تفقد شـعورها. فقد خيل إليها أن كل دقيقة تمر إنما هي زمن مسروق منها ومن حقها أن تتقاضى عليه أجرًا.

وأحســت برغبة قوية. رغبة مجنونة في أن تضـغط على ذلك العنق الهزيل فتخمد أنفاس المرأة التي كانت تســلبها وقتها المقدس ولكنها حينئذ استطاعت أن تتصور بشاعة جريمتها.

وراودتها فكرة أخرى. واقتربت من المرأة المحتضـرة، وهمسـت تسألها : ألم ترى الشيطان بعد؟.

فأجابتها مدام بونتمبس هامسة : كلا.

وابتـدأت الممرضـــة تلقى على مســـامعها بعض القصـــص الخرافية المخيفة. فقالت إن : الشـــيطان يظهر عادة لهؤلاء الذين على وشك الموت قبل موتهم بدقائق معدودات، ثم راحت تصف لها شكل الشيطان، فادعت أنه يحمل في يده محصدًا كبير وعلى رأسه قدر مملوءة بسائل يغلي مسمر به ثلاثة قرون. واستمرت في حديثها الرهيب، فعددت لها أســماء من زعمت أن الشـــيطان قد ظهر لهم قبل موتهم. وفعل ذلك الحديث فعل السـحر في مدام بونتمبس؛ فبدت مضطرة حائرة، لا يستقر رأسها على الوسادة في مكان واحد.

واختفت الأم رابت حينئذ وراء الستار بجانب الفراش. وتناولت من صندوق بالقرب منها ملاءة بيضاء ألقتها فوق رأسها فحجبتها من قمة رأسها إلى أخمص القدم. ثم وضعت على رأسها قدرًا بدت أرجلها الحديدية كثلاثة قرون مدببة. ثم أمسكت بيدها مكنسة مستطيلة. وما كادت تنتهي من كل ذلك حتى صعدت فوق مقعد مرتفع.

وفجأة رفعت الستار وبدت بهيئتها أمام المريضة.

ومرت لحظة فزع ورعب.. وحاولت المرأة المسكينة بكل قواها أن تهرب من الشيطان. شيطان الموت الرهيب، ولكنها ما كادت تتحرك حتى خانتها قواها وارتمت على الفراش مرة أخرى وانتهى كل شيء.

وبكل هدوء ودعة. أعادت الأم رابت بضاعتها إلى أماكنها، ثم أغلقت عين المرأة الميتة، العينين الفزعتين المحدقتين في خوف وفزع، ثم جثت على ركبتيها جانب الفراش وابتدأت تصلي على الراحلة بحكم العادة.

وحين عاد أونوريه من الحقل عند الغروب، وجد الأم رابت جاثية على ركبتيها تصلي، فتأكد أن روح أمه قد فاضت وابتدأ يفكر.

لقد استمرت المرأة ف ي خدمة أمه ثلاثة أيام وليلة، أي أن أجرها كان يجب أن يكون خمس فرنكات، ولكن، يجب عليه الآن أن يفع ستة.

وغمغم قائلًا بغضب :

- يا للحظ السيء، لقد خسرت فرنكا

السكيرة

وقفت العربة ذات الحصان الواحد أمام مزرعة الأم (ماكلوار) تحمل المعلم (شـــيكو) خمار (دي به فيل) وهو رجل في العقد الرابع خشـــن المعارف هائل الخلقة أحمر الوجه بطين ســـمين، على وجهه سيما الخبث المكر.

هبط الرجل سـلم العربة، ثم ربط حصـانها بخشـبة معترضـة ومشى على ساحة الدار

كانت الأم (ماكلوار) تمتلك أرضًا تجاوز مزرعته، طالما تشـوقت نفسه إلى ابتياعها منها، وضمها إلى أرضه لولا أن كان يصده عن هذه الرغبة تعصب من العجوز عنيد وتصلب شديد. وكانت تقول :

- إني ولدت في هذه الأرض، وستجنني تربتها...

ففي هـذا الصـــبـاح ألفي العجوز، وهي دردبيس في الثـانيـة والسـبعين من عمرها، أمام منزلها معنية بتقشـير (البطاطس) كانت منكمشـــة الجلد، جافة اللحم، منضـــوخة الوجه. وبرغم ذلك كانت دائبة على عملها وكأنها في ربيع العمر تقدم منها المعلم (شـيكو) وربت على كتفها في دعابة ثم قال.

- وصحتك أيتها الأم، هل هي جيدة وأبدًا جيدة؟

- أحمد الله، وأنت أيها المعلم؟

- بخير، ولولا قليل من الألم لكنت هانئًا راضيًا

- جد مليح. ثم لاذت بالصمت وأخذت تقشر البطاطس وتديرها في حذق ومهارة، بين أصابع يابسة عقداء معروقة، تشبه أرجل السراطين، وفي يدها اليمنى سكين عتيقة منثلمة لا تكاد تقطع الجبن.

وحين فرغت من البطاطس، وأضحت لماعة صفراء، ألقت بها في قدر مملوءة ماء. فإذا دجيجات وأفراخ تسعى إليها ناقة مقوقئة، ثم تختلس ما تبقى في حجرها من قشور البطاطس، وتتراكض في خبث عنها وفي منقار كل منها ما غنمت من قشور.

كان المعلم (شيكو) يرقب هذا المنظر في سأم وضيق وفي نفسه أمر، وعلى لسانه كلام يجتهد في انتزاعه، وأخيرا وفق فقال.

- ألا خبرتني أيتها الأم (ماكلوار)

- وما عساي مخبرتك به؟

- ألا زلت ترفضين بيعي مزرعتك؟

- هذا أمر قد فرغت منه أيها المعلم (شيكو) فلم إقلاقي به مطلع كل صباح ومهبط كل ليل؟.

- ولكني يا سيدتي وجدت حلا للمسألة أن رضيت به خرج كلانا راضيًا بصفقته غير أسف ولا مغبون.

- وما هو هذا الحل؟

تبيعينني أرضك ثم تحتفظين بحق استثمارها ما بقيت على قيد الأحياء، أفلا يرضيك هذا أيضًا؟.

فشغلت العجوز عن تقشير البطاطس، وراحت ترمي الرجل بنظر حاد عنيف تحت جفنين أجعدين. ثم قال الرجل مفسرًا :

- إنك أن ترضي بهذه الصفقة تتسلمي في منتهى كل شهر مائة وخمسين فرنكا أحملها إليك في عربتي. أتتدبرين قولي؟ أتفقهين حديثي؟ مائة وخمسون فرنكا ثم لا تتبدل لك حال، ولا تتغير حياة؛ فستظلين في حقلك آمنة السرب رافهة العيش لا يدينك أحد، ولا تعملين أمرًا، ولا تنصبين نفسك لعمل. إلا أن يكون استلام مائة وخمسون فرنكا، مطلع كل شهر، عملًا شاقا يكد وينضب. قال هذا وطفق ينظر إليها فرحًا مستبشرًا وعلى وجهه الطيبة والصلاح والمسكنة.. والعجوز تلحظه حذرة متيقظة. وقد كبر في وهمها أنه خادع لها وناصب لاصطياد مزرعتها أحبولة من ألفاظ منمقة مزورة. على أنها سألته في خبث :

إنك لتؤكد لي أن المزرعة ستظل في حوزتي فهل بلغ من أريحيتك أن تتبرع لامرأة عجوز بهذا الراتب الضخم دون فائدة تعود عليك؟ قال المعلم شيكو وقد أدرك ما تنطوي عليه غمزة العجوز.

لا أثقل عليك يا سيدتي في شأن الأرض، فلسوف تغلين خيراتها وتنتفعين بثمراتها ما مد الله في حياتك العزيزة. غير أني أرجوك أن تكتبي لي صكا شرعيا، يخولني حق امتلاكها بعد عمرك الطويل أن شاء الله. ولبثت المرأة وهي تصغي لقول المعلم مأخوذة دهشة حائرة لا تملك لرأيها إبراما ولا نقضا، ولا لموقفها من الرجل إجابة ولا رفضًا، وأخيرا قالت :

إنه لا يسعني رفض اقتراحك، فلو أنظرتني أسبوعا آخر أتبصر أمري وأروي رأيي. فأطاع المعلم (شيكو) ثم غادر الأم فرحًا فخورًا، كأنه الملك الجبار، استولى على بلد عدوه بالحديد والنار.. أما الأم (ماكلوار) فقد مضت أيامها ساهمة حالمة، لا يستقر جنبها على مضجع، ولا يزور جفنها سنة من نوم. ثم استشرت بها حميا التردد وعصفت نار الحيرة فكادت توطن نفسها على الرفض التام، لولا أن ذكرى المائة والخمسون فرنكا الطنانة البراقة، التي توشك أن تتدحرج في حجرها مطلع كل شهر، كانت تلهب رغبتها الخامدة وتذكي أطماعها الهامدة.

وأرادت أن تضع لترددها حدا، فمضت إلى الموثق الشرعي تنفض له جملة حالها وتستنصحه في أمرها. فأشار إليها بالاطمئنان ونصح لها بالرضا بحل المعلم (شيكو)، ولكنه اشترط عليها لذلك، أن يضاعف لها الراتب فيجعله ثلاثمائة بدلا من مائة وخمسين فرنكا لأن مزرعتها تساوي في أقل ثمن ١٦٠ ألف فرنك، ثم قال لها في أضعاف حديثه :

- لئن عمرت خمسة عشر عامًا، فلن ترزئي صاحبك أكثر من أربعين ألف فرنك - فاستقلت جسم العجوز هزة من الطمع حين ذكرت الثلاثمائة فرنك التي سوف تحظى بها رأس كل شهر ولكنها على ذلك ظلت حذرة مبلبلة الخاطر، تنوشها الهواجس، وتتوزعها الوساوس فهي تتوقع حينًا مفاجأة مفجعة وآنا مكيدة مستورة، لا تبصرها ولكنها تحسها، ولبثت حتى المساء تناقش المسألة بكل حل،

وتواجه المقترح من كل جهة. ثم. ثم لم تستقر على عزم ولم تتوجه جهة من الرأي.

وجاءها المعلم شيكو يستطلع رأيها ويستعلم غرضها الأخير فأنهت إليه قرارها النهائي، بلزوم رفع مرتبها الشهري، وحين رأت هزة الإخفاق تركب أوصاله، ونار الغيظ تحتدم في عينيه، وبوادر الرفض تتوافد على لسانه، أظهرته على قائمة السنين التي يمكن أن تعيشها بعد هذه الصفقة فقالت :

- إني من الوهن ورقة العظم واشتعال الشيب بحيث لا أستطيع الانتقال إلى سريري إلا مستندة إلى الأذرع، أو محمولة على الظهور ومهما يمتد بي خيط الهرم، فإنه كخيط العنكبوت وشيك الانبتات سريع الانقطاع. وهل بعد الثلاثة والسبعين عامًا التي توقر كاهلي حياة ترجى أو عيش ينتظر؟ وقاطعها المعلم مغيظا فقال.

- إنها لمحاولة فاشلة منك يا سيدتي أن تصطنعي العجز وتتظاهري بانقطاع المنة. ثقي أن منجل الموت لا يعرف سبيله إلى شجرتك قبل أربعين سنة في أقل تقدير، وإني أراهن على أنك أنت التي ستتولين دفني، فما هذا الخوف والفزع من الموت؟.

وتصرم عمر النهار في الجدل والنقاش والأخذ والرد، وجهد المعلم (شيكو) الجهد كله ليقنع العجوز بالنزول عن طلبها الجائر المرهق فما عاد بطائل. وحين لم يجد مندوحة من إجابتها رضي مكرهًا بدفع الثلاثمائة فرنك... وغيرت سنين ثلاث وصاحبتنا العجوز كالسروة العتيقة لا يزيدها المزق إلا صلابة وجلدًا على الأيام، حتى يئس المعلم من موتها وخيل إليه أنه مرغم على دفع

مرتبها الضخم نصف قرن أو يزيد، وان صفقته كانت هي الخاسرة المغبونة، وأنه لا بد موف على الخراب صائر إلى الإفلاس أن ظلت معاهدة الصداقة والود بين العجوز وعزرائيل متينة العرى.

كان يتردد على المرأة الفينة بعد الفينة بحجة السؤال عن نضوج الحنطة، أو الاستفسار عن موعد الحصاد؛ فكانت تستقبله في خبث، وفي قلبها الشماتة والتشفي، وفي معارف وجهها صورة الافتخار والزهو للدور المضحك المسلي الذي لعبته على مسرح بلاهته وغفلته. فكان يرتد سريعًا إلى عربته ويجمجم :

- وإذن فليس في نية هذه البهيمة أن تموت؟ فلم يكن يعرف لمشكله حلا ولا لعقدة أزمته فكاكا. فكانت تمر به ساعات يود فيها لو أهوى على عنق العجوز فخنقه، وروحها فأزهقه، مما في نفسه من الغيظ والحنق والموجدة، وظل زمنًا يلتمس وجهة الحيلة للخلاص من طلعة العجوز المشؤومة. وأخيرا ظفر بما يرجو؛ فغدا عليها يومًا يطفر من البشر والسعادة، ويصفق بيديه من الفرح والمرح، وبعد أن ناقلها برهة حديث المجاملة والود قال :

- ألا قولي لي أيتها الأم ماكلوار فيم امتناعك عن زيارة منزلي حين مرورك على حانة (إيدي فيل)؟ أن الحديث فيه ليلذ ويمتع، وأنا هناك يا للأسف مقطوع الصلة من الصديق، منبت الوشيجة من القريب، لا يؤنس وحشتي زائر، ولا يمر علي عابر. فزوريني أن تكرمت وكلي ما طاب لك فلست مرزئك مالا ولا مكلفك دفع طعام أو شراب. زوريني ففي زيارتك تشيع البهجة في قلبي وينتشر السرور في داري.

وفي الغد لم تكلفه الأم إعادة الاستزارة، فراحت إليه في عربتها، والشمس لم تغادر خدها الوردي، وحين بلغت الحانة ربطت حصان العربة في الإصطبل، ثم دخلت عليه طالبة الغداء الموعود.

لم يكد يصدق عينيه المعلم شيكو، وراح ينشط في خدمتها ويجتهد في مرضاتها، كأن أمامه سيدة نبيلة لا قروية بخيلة، ثم أخذ يفتن في تقديم فاخر الأطعمة والآكال وغريض اللحم من الطير المبهر، والدجاج المحمر، ولحم الخنزير المشوي، وأصناف من الخضار والفواكه والتوابل، ولكنها لم تصب من هذه الآكال الدسمة إلا ما يوافق معدتها العجوز التي اعتادت الاكتفاء بحساء اللحم الرقيق، أو قطع الخبز المغموسة بالزبد، وألح الرجل وعزم عليها. ولكنها لم تأكل مضغة ولم تشرب جرعة حتى القهوة امتنعت من تناولها. وأخيرًا قال لها وهو يناولها قدحًا من (الكونياك) :

- أو ترفضين أيضًا هذا القدح؟

- أما هذا فأقبله دون أن أقول لا. فرجت أركان الحانة بصوت المعلم يقول :

- (روزالي) أيتها العزيزة. احملي لنا كل فاخر معتق من الكونياك. وظهرت الخادمة تضم إلى صدرها زجاجة طويلة ممشوقة ازدانت فوهتها بطابع الكونياك الفاخر. فتناولها المعلم شيكو وأفرغ منها قدحين، ثم عاطى العجوز أحدهما قائلًا :

- إنه لكنياك لذيذ شهير، أفلا تتذوقينه يا سيدتي؟

فتناولته الأم (ماكلوار) شاكرة وطفقت تتحساه جرعات صغيرات، وما أن فرغت من القدح الأول حتى أفرغ لها المعلم قدحًا

ثانيًا، فأعرضت عنه أولًا ثم أكرها المضيف بالقول اللطيف والتجمل الظريف والنكتة المستملحة. وكان عازما على إردافه بثالث ورابع لولا أن عالنته برفضها وامتناعها.

- ولكن هذا يا سيدتي ليس خمرًا؛ أن هذا إلا حليب مصفى، أبتلع عشرة أقداح منه دون أن يتعتعني السكر أو تذهب بوقاري النشوة، لا يكاد يستقر في الجوف كالسكر المذاب حتى يتبخر في الجسم دون أني يجد طريقة إلى الرأس. وليس كمثله شيء لصحة الجسم وابتعاث النشاط. فدعا ذلك العجوز إلى أن اجترعت نصف الكأس الثالثة، ولم تجرؤ على استنفادها لأنها شعرت بفعل المسكر بأطرافها، وتلعاب الخمر بأعطافها. فأهرعت إلى عربتها ومضت.. وغدا عليها صاحبنا في عربته ذات الحصان الواحد وحين استقر بهما المجلس أخرج من جوف العربة برميلا صغيرًا، فيه خمر الأمس، ثم جلسا يعيدان سيرة البارحة، ولما استقر في جوف كل منهما ثلاثة أقداح، غادرها المعلم قائلًا :

- ما أراني بحاجة لأقول لك أن الخمر التي أبقيتها لك تكفيك مدة، فإذا فرغت منها فعندي لك اللذيذ المعتق لا أبخل عليك به، وكلما ألححت في الطلب ألح على السرور وطبت نفسًا..

وآب إليها بعد أيام أربعة، فألقاها على الباب معنية بتقطيع الخبز الذي تعده للحساء، فاقترب منها أنفًا لأنف وبدرها بتحية الصباح، فنفحته منها رائحة (الكحول) وملأت خياشيمه، هنالك أضاء وجهه بنور البشر والفوز ثم قال :

- ألا تقدمين إلي قدحا من الكونياك..؟ وجلس الاثنان يعاقران الخمر ويشـــرب كل منهما نخب صـــاحبه.. ولم يطل الأمر بالأم (ماكلوار) حتى شـــاع عنها أنها تعاقر الخمرة متخيلة لنفســـها وفي الحق كان الجيران يلقونها إما مســـتلقية أمام مطبخها أو ســـاحة دارها لا تعي، أو منطرحة في الطرق والشـــوارع لا تحس، فيحملونها إلى بيتها جثة لا حراك فيها ولا وعي..

ولم يعد المعلم شيكو يتردد على بيتها، فكان يقول للجيرة راثيا :

- إنه لما يبعث الأســى أن تدمن هذه العجوز الشـــراب وهي في أرذل العمر، مع أن الخمر تعجل خطواتها إلى القبر.

وفي الحق لقد وجدها أهل القرية ميتة على بســـاط الثلج صـــباح عيد الميلاد عقب ســـكرة إنكليزية أبلت فيها البلاء الحســـن وورث المعلم (شيكو) أرضها كما خوله الصك، فكان يقول:

- لو لم تتلف العجوز البلهاء صحتها بسموم الخمر، لعاشت عشر سنين أخر!

فهرس الموضوعات

الميتة... 3

صانعة الكراسي 9

ذكرى....! 19

الوالد 26

عزلة 33

الأب... 40

الدَّين... 49

الصدأ... 57

قصيدة غرام... 68

المجنونة 78

اليد المقطوعة 83

في الريف... 95

مجنون!... 107

الصعلوك... 118

فينوس برانيزا 126

إنه ضوء القمر 130

المنبوذة 135

صفقة! 143
الأنموذج 153
كتاكيت العم طون! 161
الغريب..! 167
روز..! 177
الصورة... 187
حديقة الذكرى 193
العظام المقدسة 199
السر.. 205
البعث 210
الشيطان 219
السكيرة 228